موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

8

NOBILIS

موسوعة عالم الأديان

كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

نشوء المسيحية واضطهادها وانتشارها

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الثّامن

نشوء المسيحيّة واضطهادها وانتشارها

NOBILIS

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	:	موسوعَـــة عَالَــــم الأديَــــان كُلُّ الأديَان والمَذاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	نُشُوءُ المَسيحيَّةِ واضطهادها وانْتِشَارُها
الجزء	:	الثَّامِن
المؤلّف	:	مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفَرِّج
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

يُمنع نسخ أو اقتباس أيّ جزء من هذه المجموعة أو خزنه في نظام معلومات إسترجاعيّ أونقله بأيّ شكل أوّ أيّ وسيلة إلكترونيّة أو ميكانيكيّة أو بالنسخ الفوتوغرافي أو التسجيل أو غيرها من الوسائل، دون الحصول على إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

المحتويات

الفَصْلُ الأوّل

يَسُـــــــــــــوع

الفَصْلُ الثَّانِي

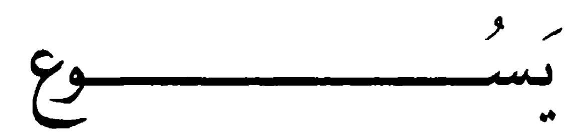
فَجْـــــرُ المَسِيحيّـــــةَ

الفَصْلُ الثَّالِث

صِرَاعٌ بَينَ المَسِيحِيَّة والوَثَنِيَّة

الفَصلُ الرَّابِع

الفَصْلُ الأوَّل



عَصْرُ يَسُوع

يَسُوع

الرِّسَالة

إكتِمَالُ الرِّسَالَة

عصر يسوع

عشيّة ولادة يسوع، كان العصر يونانيًّا ـ رومانيًّا، فكانت الحضارة المسيطرة على بلدان المتوسّط هلّينيّة[1]، وقد جاءت نتيجة الانسجام بين الحضارتَين اللاتينيّة واليونانيّة منذ القرن الأوّل قبل الميلاد. وكان ذلك الانسجام قد أدّى إلى "تسوية" لمصلحة اللغة اليونانيّة التي بقيت لغة التعامل في الشرق، فيما أصبحت اللاتينيّة اللغة الرسميّة في الإدارة. وبينما ثبّت الرومان تفوّقهم في الجانب التنظيميّ والسياسيّ، تفوّق اليونان في الفنون والفلسفة.

في إطار هذا التزاوج الحضاريّ، كانت الحياة السياسيّة ـ الإجتماعيّة في منطقة شرق البحر المتوسّط التي كانت مدنها تمارس احتفالاتها ولهوها ونشاطها الفكريّ وفق تلك المعادلة، بينما كانت الجماعات المحليّة تتمتّع بشيء من الاستقلال الذاتيّ في ظلّ سلالات حاكمة سمح لها الرومان بالبقاء في مراكز السلطة المحليّة تحت قيود قليلة، ومنها سلالة هيرودوس في اليهوديّة، يقابلها سلالة الحارث[2] في

---

١ ـ هيلينيّة: مصطلح يعني في الأساس حضارة الإغريق وأسلوب حياتهم وثقافتهم في العصور الكلاسيكيّة، ويعتبر عصر الزعيم الأثيني بركليس (٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق.م.) أكمل صورة لكلّ ذلك، وغالبًا ما اعتبر المؤرخون تاريخ موت الإسكندر الأكبر ٣٢٣ ق.م. خاتمة عصر تلك الحضارة، ولكن بقيت توصف بالهلينيّة كلّ محاولة لاحقة لإحياء المثل الإغريقيّة القديمة.

٢ ـ الحارث: إسم أربعة من ملوك الأنباط، آخرهم وأشهرهم الرابع الذي لقّب بـ "محبّ الأمّة"، ساعد أغوسطس قيصر في معركة مع اليهود ٤ ق.م.، زوّج ابنته من هيرودوس أنتيباس ثمّ حاربه وهزمه إثر طلاقها، حافظ على استقلال بلاده، وصفته الرسالة الثانية إلى القورنثيين كحاكم دمشق.

البتراء[1]، وأذينة[2] في تدمر[3]. وقد احتفظت الجماعات المحليّة بدياناتها ولغاتها وعاداتها الخاصّة. بينما أخذ الرومان على عاتقهم مسؤوليّة الأمن والحماية، بواسطة الجيوش الإيطاليّة، مقابل جزية كانات تؤخذ من السكّان المحليّين عوضًا عن الخدمة العسكريّة.

وسط هذا النظام، لم يعد الكاهن الأعظم في اليهوديّة ملكًا بل أصبح رئيس طائفة، وكانت الأرستقراطيّة اليهوديّة هي التي تعيّنه. أمّا اللغة التي كانت قد أضحت اللغة المحكيّة في كامل المنطقة من قِبَل شعوبها الساميّة، فكانت الآراميّة، وكان المثقّفون من أهل البلاد يكتبون بلغة واحدة، هي اليونانيّة. إلاّ أنّ اليهود قد احتفظوا باللغة العبريّة في صلواتهم، كلغة مقدّسة.

هذا التنوّع البشريّ، في استقراره، أدّى إلى قيام مدن ذات نماذج مختلفة جنبًا إلى جنب في الطرف الجنوبيّ للمنطقة المعروفة بالهلال الخصيب[4] من شرق البحر

---

١ - **البتراء**: مدينة أثريّة في الأردن هي سلع القديمة أو الصخرة، دعاها اليونان "بيترا PETRA" وجعلوها مركزًا لتخزين المؤن والحبوب، استقلّ بها الحارث الثاني (١١٠ - ٩٦ ق.م.) وانتصر ملكها الثالث على الرومان ٨٧ - ٦٢ ق.م.، وبعد الأنباط احتلّها تريانس فأصبحت على الطريق التجاريّة بين الشرق والغرب وازدهرت، بدأت بالإنحطاط في القرن الثالث ميلادي حين تحوّلت هذه الطريق إلى الفرات، أهمّ آثارها: قصر فرعون والبوّابة الأثريّة والمسرح الكبير وقبور بيترا وهيجرا.

٢ - **أُذَينَة**: ملك تدمر وزوج زنوبيا، هزم الفرس على الفرات وتعقّبهم حتّى طيسفون، عيّنه الأمبراطور غاليانس ٢٦٢ قائد الشرق الأعلى، اغتيل في حمص ٢٦٨.

٣ - **تَدمُر**: إسمها اليوناني PALMYRA ولقبها عروس الصحراء، مدينة أثريّة في قلب الصحراء السوريّة، هي اليوم مركز قضاء يحمل اسمها في محافظة حمص، تحيط بها تلال كلسيّة، كانت واقعة على طريق القوافل بين آسيا وموانئ المتوسّط ومنها إلى روما عاصمة الأمبراطوريّة، استوطنتها قبائل عربيّة أنشأت دولة بلغت في بدء التاريخ الميلادي أوج عزّها، ازدهرت في عهد ملكتها زنوبيا التي أسرها الأمبراطور أورليانس ٢٧٢، دخلها الإسلام بقيادة خالد بن الوليد ٦٣٣، حضارتها مزيج من العوامل اليونانيّة والرومانيّة والشرقيّة، أشهر آثارها: هيكل بيل وبعلشمين والرواق الكبير والقبور الرائعة.

٤ - **الهلال الخصيب**: إسم يطلق على الإقليم الذي يمتدّ من سهول دجلة والفرات شرقًا حتّى شاطئ المتوسّط غربًا، اتخذ اسمه من شكل شاطئه الذي يشبه صورة هلال من الأرض حول البحر الأبيض المتوسّط، ومن الأراضي الخصيبة التي يضمّها في كلّ من العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وكان هذا الإقليم مهدًا لكثير من الحضارات القديمة.

الأبيض المتوسط. فإلى جانب المدن القديمة على الساحل، ومنها غزّة وعسقلان ويافا وعكّا، وكانت جميعًا قد اصطبغت بالهلّينيّة، قامت المدن اليهوديّة التي بنتها الأسرة الهيروديّة ومنها: قيصريّة على الساحل[1]، وسبسطية[2] وطبريّا وقيصريّة فيليبّس[3]، يليها بعض المستعمرات الرومانيّة القليلة، ومنها نيابولِس[4] وعمواس[5].

وبقي في الداخل حلف "المدن العشر" أو "الديكّابولِس". ومنها: بيت شان، وبيلا، وديون، وجرش، وفيلادلفيا، - هي عمّان اليوم - وجدرة، وسواها من المدن الواقعة اليوم في الأراضي السوريّة[6].

---

١ - **قيصريّة الساحل:** هي التي حُرّف اسمها لاحقًا إلى **قيساريّة فلسطين**، بناها هيرودس الكبير ٤٠ - ٤ق.م. بين حيفا ويافا، كانت مركز إقامة الحكّام الرومان، ثمّ كرسيًّا أسقفيًّا له الرئاسة في فلسطين، دخلها الإسلام ٦٣٣، لم يبقَ منها اليوم سوى أنقاض.

٢ - **سبسطية:** هي نفسها السامرة، عاصمة مقاطعة السامرة وعاصمة مملكة إسرائيل القديمة، على أنقاضها بُني جزء من مدينة نابلس، احتلّها الإسكندر المقدوني ٣٣١ ق.م. ثمّ الرومان ٦٣ ق.م.، جعلها هيرودوس الكبير ٤٠ - ٤ ق.م. وأطلق عليها اسم سبسطية، أصبحت مستعمرة رومانيّة في عهد سبتيمس ساويرُس ١٩٣ - ٢١١ وكرسيًّا أسقفيًّا في القرن الرابع، دخلها الإسلام ٦٣٦، احتلّها الصليبيّون ثمّ استرجعها صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطّين ١١٨٧، اكتشف فيها الأثريّ الأميركيّ رايزنر ١٩٠٨ - ١٩١٠ قسمًا من بلاط عُمري ملك إسرائيل ٨٨٥ - ٨٧٤ ق.م. الذي كان جعلها عاصمة لملكه.

٣ - **قيصريّة فليبُس:** هي نفسها بانياس، بلدة في سوريا قرب نبع الأردن على سفح جبل الشيخ، ترجع إلى العهد اليوناني، كرّست مغارتها ومنبع فيها للإله بان الذي أعطاها اسمها، شيّد هيرودس فيها هيكلاً لأغوسطس قيصر وازدهرت في عهد ابنه فيليبّس فنُسبت إليه، فيها سلّم يسوع السلطة لبطرس، احتلّها الصليبيّون وأعادوا بناء قلعتها المعروفة بقلعة الصبيبة أو قلعة بانياس ١١٣٠، استعادها العرب ١١٣٤.

٤ - **نيابُولِس:** أي المدينة الجديدة، كانت تُعرف باسم شكيم قديمًا، وأصبحت تُعرف في ما بعد باسم فلافيا نيابولِس، وهي نابلس اليوم التي تضمّ أيضًا السامرة القديمة كما جاء في الحاشية السابقة، يجاورها بئر يعقوب وقبر يوسف وجبل جريزيم.

٥ - **عَمواس أو عِمّاوُس:** بلدة صغيرة كانت تقع على مسافة سبعة أميال إلى الشمال الغربيّ من القدس، اشتهرت بظهور يسوع فيها لاثنين من تلاميذه، وبينما يعتبر باحثون أنّها هي نفسها عمواس الحاليّة التي ظهر فيها طاعون حصد ٢٥ ألفًا منهم أبو عبيدة ابن الجرّاح ويزيد بن أبي سفيان ٦٣٩، يعتبر آخرون أنّها غير عمواس هذه وأنّها اندثرت، ويبدو لنا أنّ الإعتبار الأوّل هو الأصحّ.

٦ - حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٨) ج١، ص٣١١ - ٣٥١.

دينيًا، كانت الوثنيّة على تعدّدها هي السائدة عند غير اليهود. أمّا اليهود، فقد طرأ على جماعاتهم ظهور بعض المذاهب، ممّا وزّعهم على طوائف دينيّة وسياسيّة مختلفة لكلّ منها كهانة وأسلوب حياة، وكان أشهر تلك الطوائف خمسًا: الصدّوقيّين، والفرّيسيّين، والأساة، والغلاة، والسامريّين.

الصدّوقيّون هم أتباع "صدّوق" وأسرته، ويعتبر هؤلاء أنّ "صدّوق" وسلالته كانوا يتولّون أمر الكهانة الدينيّة منذ عصر داود وسليمان. وكان الصدّوقيّون متشدّدين في مقاومة السلوك غير اليهوديّ، متشبّثين بالتقاليد، مؤيّدين لسلطان الهيكل والكهانة الدينيّة. وكان هؤلاء محترفي كهانة، متوسّعين في أساليب المتعة والمعيشة، لا يرفضون التوسّع في الحياة بمشاركة الأجانب، والاندماج فيهم، رغم ادّعائهم التمسّك بالتقاليد.

الفرّيسيّون، تعود تسميتهم إلى "فروشيم" العبريّة، وترجمتها المميّزون. وكان هؤلاء أقوى من الصدّوقيّين بكثرة العدد وشيوع المبادئ والآراء، كما أنّ سمعتهم بين جميع الفئات الهيوديّة كانت حسنة. رغم كلّ هذه المعطيات، لم يصل الفرّيسيّون إلى السلطة، ما جعلهم يعوّضون عن ذلك بالادّعاء الدينيّ والتعالي في السلوك المحافظ بشكل واضح الأنانيّة والاستعلاء.

"الأساة" أو الأسيّون، طائفة يهوديّة عاصرت الميلاد، كانت تعتبر نفسها الجزء الوحيد المتبقّي من صميم الأمّة الإسرائيليّة، وكان أتباع هذه الطائفة مستقلّين بشعائرهم وعباداتهم وآرائهم وبكلّ ما له علاقة بأسرار الدين والكهانة التي خلعوها على ذاتهم، وكانوا منطوين على أنفسهم، وهم قلّة بجانب المجموعات البشريّة اليهوديّة التي تنقاد للصدّوقيّين والفرّيسيّين. أمّا منشأ تسمية الأساة، فمن المرجّح أنّه يعود إلى جذر ساميّ يفيد عن الحكمة أو الطبّ. فيكون معنى اسمهم "أطبّاء الروح" أو "الحكماء". والظاهر

أنّ جماعات "الأساة" كانوا فعلاً يقومون بمحاولة إبراء المرضى بالصلوات والأوراد بالدرجة نفسها التي كانوا يدّعون بها العلم بخصائص الموادّ والعقاقير.

"الغلاة"، وهم طائفة يهوديّة أخرى من الطوائف الخمس التي كانت موجودة زمن ولادة المسيح، ويعتبر بعض الباحثين أنّهم فرع من الأساة، وكان هؤلاء متطرّفين ومبالغين في سلوك التقشّف إلى حدّ الصنعة الدينيّة المبتذلة، لذلك عُرفوا بالغلاة، كما عُرفوا بالجليليّين من أتباع يهوذا الجليليّ. وكانوا على قلّة عددهم ينظّمون حركات تمرّد ويقودون عصابات يهوديّة في مواجهة الأوامر القيصريّة. إلاّ أنّ هذه الحركات قد انتهت عندما تمكّن الوالي الرومانيّ من قتل يهوذا الجليليّ، فلم يبقَ من أتباعه سوى مسلك المبالغة في التقشّف الدينيّ الاستعراضيّ.

أمّا الطائفة الخامسة، في هذا السياق، فكانت الطائفة السامريّة، التي كانت تمثّل خليطًا من اليهود والمتهوّدين من الأشوريّين وسواهم، لذلك كانت الطوائف الأخرى في حالة نبذ دائم للسامريّين بسبب عدم انتمائهم للعرق العبرانيّ الأصيل بحسب أصوليّتهم. وإذ لم يبالِ السامريّون بنبذ سائر الطوائف، بنوا لهم هيكلاً مارسوا فيه شعائر هيكل بيت المقدس، ومارسوا فيه عبادتهم طوال مائتَي سنة، حتّى هدمه أحد كهّان بيت المقدس خلال حملة قاسية كان هدفها التخلّص من آثاره، ولكنّ السامريّين أعادوا بناء هيكلهم في مكانه الأصيل في جرزيم السامريّة، وإلى السامرة ينتسب هؤلاء في اسمهم.

كان السامريّون، على عكس ما يدّعي خصومهم، يزعمون بأنّهم البقيّة الباقية على الدين الصحيح، وذلك استنادًا إلى أنّ يعقوب، الجدّ الأعلى للعبرانيّين، قد بنى معبده المكرّس للّه في السامرة، وسمّاه "بيت إيل" [1]، أي "بيت الله"، وإلى أنّ موسى كان

١ ـ راجع: ظاظا د. حسن، الفكر الدينيّ الإسرائيليّ، معهد البحوث والدراسات العربيّة (بيروت،١٩٧١) ص ٢٤٨ ـ ٢٦٤.

يجعل قبلته نحو "بيت إيل" هذا. ويعتبرون أنّ داود وسليمان قد غيّرا في شكل المجتمع الدينيّ بحسب هواهما، حتّى حوّلاه إلى مملكة الفرعون أو بختنآسر، وأنّهما حوّرا القبلة القديمة، مثلما غيّر الأنبياء الذين ظهروا بعد موسى شكل الدين وشوّهوه وحرّفوه [1].

أمّا عقيدة السامريّين فتتلخّص بأربع نقاط:

الإيمان بإله واحد، وبأنّ هذا الإله روحانيّ بحت.

الإيمان برسوليّة موسى ويشوع بن نون.

الإيمان بتوراة موسى، وبأنّها كلام اللّه.

الإيمان بأنّ جبل جرزيم المجاور لنابلس هو المكان المقدّس الحقيقيّ، وهو القبلة الحقيقيّة الوحيدة لبني إسرائيل.

وكان السامريّون ينتسبون إلى هارون أخي موسى، وينتخبون كاهنًا أعظم يسمّونه "الكاهن اللاويّ" أي المتحدّر من سبط لاوي (أو ليفي) الذي يتحدّر منه موسى وهارون، وكثيرًا ما يكتفون بتسميته بلقب "الحبر الكبير".

بين هذه الطوائف الخمس، كانت القيادة العمليّة في المجتمع اليهوديّ زمن المسيح للفرّيسيّين وهم "المميّزون". أمّا العامّة من اليهود "الربّانيّين" فكانوا يوصفون على ألسنة زعمائهم الروحيّين بالصفة العبريّة "عام ها أرض" أي "عوام الأرض" أي "الجهّال". وكان الفرّيسيّون، مقابل ذلك يلقّبون أنفسهم بلقب "حسيديم" أي "الأتقياء"، وبلقب "حبيريم" أي "الرفاق والزملاء"، ولعلّها أصل استعمال العرب لكلمة "الأحبار" أي "علماء اليهود" [2].

---

١ ـ راجع: طعيمة صابر، التاريخ اليهوديّ العام، دار الجيل (بيروت، ١٩٩١) ج٢، ص ٢٦٣ ـ ٢٨٠.

٢ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣١١ ـ ٣١٢.

هذه الطوائف اليهوديّة، قبيل ولادة يسوع، كانت، على مذاهبها، تنتظر مجيء مسيح مخلّص موعود على ما جاء في التوراة.

أمّا السلالة الحاكمة فكانت السلالة الهيروديّة، وكان هيرودس الكبير (٧٢ ـ ٤ ق.م.)، مؤسّس هذه السلالة، قد جعل أورشليم مقرّ حكمه، ووطّد سلطته كملك، وبقي يدير الأمور لمدّة ثلاث وثلاثين سنة، ولكن لحساب روما. فشجّع المصالح الرومانيّة على حساب المصالح القوميّة، ونجح، حيث فشل الحكّام الرومان، في جعل اليهوديّة بالقوّة شبه مملكة هلّنستيّة، وبدأ في مشروع إنشاء أبنية عامّة بدّل وجه البلاد تمامًا. وقد بنى في أورشليم ميدانًا لسباق الخيل ومسرحًا مدرَّجًا وأقام ألعابًا عامّة، وكانت كلّها لا تتّفق مع اليهوديّة. وزيادة على ذلك أعاد بناء المعبد. وكانت السامرة مقرّه المحبَّب، فزيّنها بالأبنية وأعاد تسميتها باسم سباطية SEBASTE، وكلمة سيباستيوس اليونانيّة تعني "أغوسطس"، وكان ذلك تكريمًا لأغوسطس قيصر، وليزيد في سرور الأمبراطور سيّده أعاد بناء برج ستراتون على الساحل وسمّاه قيصريّة التي قُدِّر لها أن تصبح في ما بعد عاصمة فلسطين الرومانيّة، وقد تزوّج هيرودس عشر نساء وذبح بعضهنّ مع بعض أفراد أسرته وسحق، بقسوة، المعارضة لحكمه المطلق.

هيرودس هذا، وهو الذي عُرف بهيرودس الكبير، والذي حصل من مجلس الشيوخ الرومانيّ على لقب "ملك اليهود"، كان مستبدًّا إلى درجة ظالمة. ولم يكن قتله لثلاثة من أبنائه إضافة إلى زوجته المفضّلة مريم، إلاّ بسبب وساوسه وشكوكه، وهكذا أمر بقتل أطفال بيت لحم الأبرياء، لمّا سمع من المجوس بميلاد ملك اليهود، ظنًّا منه أنّه بذلك يتخلّص من منافسه الطفل يسوع الذي سيصبح ملك اليهود. بيد أنّ هيرودس هذا قد مات بعد ميلاد يسوع بأربع سنوات ليقتسم المملكة من بعده أبناؤه الثلاثة: أرخيلاوس وهيرودس أنتيباس، وفيلبّس.

في ذلك التاريخ، كانت فلسطين تتألّف من ولايات، كانت الضفّة الغربيّة تضمّ ثلاثًا منها هي: اليهوديّة وأهمّ مدنها وقراها القدس وبيت لحم وعين كارم وعمواس والرامة[١]، وأفرام[٢] وبيت عنيا[٣] وأريحا. أمّا السامرة، فكانت تضمّ إضافة إلى مدينة السامرة، سوخار[٤]، وبئر يعقوب[٥] وغيرها من البلدات الواقعة بين اليهوديّة وبيريا[٦] والجليل. والجليل كانت تضمّ الناصرة، وقانا، وطبريّا، ومجدلة، وكفرناحوم، وبيت صيدا.

وكانت الضفّة الشرقيّة، أو عبر النهر، تضمّ مقاطعة بيريا والمدن العشر، وهي مدن مستقلّة في الشرق والشمال الشرقيّ من الأردنّ، وتمتدّ حتّى دمشق، وكان أكثر سكّان تلك المنطقة من الوثنيّين.

وكانت مدينة أورشليم العاصمة الدينيّة والسياسيّة معًا لليهود الذين كان نظامهم تيوقراطيًّا، بحيث يُعتبر الله القائد الدينيّ والسياسيّ. وكانت أورشليم، وهي التي تضمّ داخل أسوارها هيكل سليمان، وهو المكان المكرّس لعبادة الربّ الإله، ذات أهميّة كبرى في تاريخ يسوع، إذ إنّ اليهود توقّعوا أن تكون عاصمة مُلك المسيح المنتظَر، وفيها يتمّ تنصيبه ملكًا. وكان هيرودس الكبير قد عزّز أسوار المدينة التي جمّلها بأبنية فخمة منها قصره الملكيّ، وأعاد تشييد هيكل سليمان بشكل غنيّ. ففي زمن يسوع

---

١ ـ الرَّامَة: هي نفسها رنتيس، قرية في فلسطين، تشرف على بلاد صور وجبال القدس والبحر المتوسّط ومدينة صفد وبحيرة طبريّة.

٢ ـ أفرَام: هي طيّبة رام الله اليوم.

٣ ـ بَيت عَنيَا: قرية في شرق القدس، إسمها اليوم العَازَريَّة نسبة إلى لعازر أخي مرتا ومريم الذي أقامه يسوع من الموت.

٤ ـ سُوخَار: لعلّها قرية دارسة في مقاطعة السامرة القديمة بين الجليل واليهوديّة.

٥ ـ بِئر يَعقُوب: قرية قرب نابلس.

٦ ـ بِيريَا: هية نفسها البيرة، بين القدس ونابلس، خرّبها الملك الناصر حين استنقذها من الإفرنج.

كان الهيكل الهيرودسيّ والقصر الملكيّ وبيت قيافا وعلّيّة صهيون داخل الأسوار. أمّا جبل الزيتون وجبل الجلجلة فكانا خارج أسوار المدينة.

في ذلك الزمان، كانت الأمبرطوريّة الرومانيّة قد بلغت شأوًا عظيمًا، فشملت بعضًا من ثلاث قارّات: أوروبّا وآسيا وأفريقيا. وفي ظلّ هذه الدولة عاشت أمم متباينة وشعوب مختلفة في التاريخ والحضارة والعِرق والدين، تحت إدارة واحدة، وسلام شامل، عُرف بالسلام الرومانيّ PAXA ROMANA. وكان الأمبرطور أغوسطس قيصر (٦٣ ق.م. ـ ١٤م.) حفيد يوليوس قيصر، على رأس تلك الأمبرطوريّة المتراميـة الأطراف[١].

في هذه الأجواء، وُلد في قرية صغيرة من أعمال ولاية الجليل من فلسطين، طفل "ابن نجّار". وكانت تلك القرية تُعرف بالناصرة، وكان ذلك الطفل: يسوع، الذي سيُنسب إلى الناصرة... والذي سيقسم مولده التاريخ إلى قبْل وبعد. إلاّ أنّ "المؤرّخ لم يكن ليحفل بوجود ابن نجّار في ولاية نائية من الأمبرطوريّة جمع بعض الأتباع حوله وعلّم وبشّر وشفى ثمّ "صُلب بسبب معتقداته"[٢]. وقد ظهر مؤرّخ شاب معاصر كان في الوقت ذاته يهوديًا ومواطنًا ليسوع، فخصّص له أي "لهذا الرجل الحكيم" و"صانع الأعمال الخارقة" كما قال عنه، مقطعًا صغيرًا ينتهي بهذه الملاحظة: "وعشيرة المسيحيّين التي سُمّيت بالنسبة إليه ليست منقرضة اليوم"[٣].

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٣.

٢ ـ راجع: نعمات الأب يوسف من كهنة البطريركيّة اللاتينيّة الأورشليميّة، بشرى الخلاص ـ حياة سيّدنا يسوع المسيح من خلال الأناجيل الأربعة (بيروت، ١٩٨١) ص٩ ـ ٢٢.

٣ - JOSEPHUS, ANTIQUITIES OF THE JEWS, TRANS BY: WILLIAM WHISTON, NEWED, 2VOLS (LONDON 1897)
BK. XVIII, CH. 3, S3.

وهناك مؤرّخ لاتينيّ ذكر "المسيح" بصورة عرضيّة، مشيرًا إلى أنّه "تعرّض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس بموجب حكم الحاكم بيلاطس البنطيّ"، هذا المؤرّخ هو تاسيتوس Tacitus[1]. وتبقى الأناجيل المصدر الوحيد المفصّل لحياة يسوع.

يَسوع

عُرف مؤسّس المسيحيّة باسمَين، منفصلَين أحيانًا ومتّحدَين أحيانًا أخرى. أمّا الإسمان فهما يسوع المسيح. ويعود أصل كلمة يسوع إلى الصيغة الهلّينيّة ليشوع Johosua وهي كلمة عبرانيّة معناها: يهوه الخلاص. وكلمة المسيح، هي ترجمة للكلمة العبرانيّة: مَشيا، أو مَشياح Mâshiâh التي كانت تُستعمل كلقب للملوك اليهود، وبالتالي للملك الموعود الذي كان ينتظره اليهود[2]. أمّا معنى الكلمة، فهو "المكرّس بالمسحة". وإذا كانت حياة يسوع المسيح لم تلقَ الاهتمام من قِبَل مؤرّخي زمانه، فإنّ الذين عرفوه من قرب، قد اقتنعوا، من خلال ملازمته، بأنّه كان غير عاديّ، وبأنّه ابن اللّه، ما جعلهم يبدّلون طريقة حياتهم جذريًّا، ليسيروا على خطاه، دون أن يتردّدوا في بذل الذات في سبيل هذا المعتقد.

حفظ تلاميذ المسيح ورسله في ذاكرتهم كلّ ما قاله السيّد في حياته وكلّ ما فعله. وراحوا ينقلون مُشافهة ما رأوا وسمعوا ولمسوا من كلمة الحياة إذ كانوا شهود عيان. ثمّ شرع بعضهم يدوّن من تلك التعاليم التي كرز بها يسوع، وذلك في وقت مبكّر، كان

---

١ - Tacitus, Bk. XV, Ch. 44

٢ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٣.

لا يزال فيه مَن اتّبعوا المسيح يعتبرون نصوص العهد القديم كتابهم المقدّس الأوحد، وسمّوا تلك النصوص "الشريعة والأنبياء" وفقًا للاصطلاح اليهوديّ يومذاك. لكنّ مسيحيّي الجيل الأوّل، وخاصّة الكتبة منهم، أخذوا يستشهدون، إضافة إلى نصوص العهد القديم، بما أجمعوا على تسميته "الربّ". وكان هذا الإسم يُطلق على كلّ من التعليم الذي ألقاه يسوع[١]، وسلطة ذلك الذي قام من بين الأموات وتكلّم بلسان الرسل[٢].

بقي التقليد الإنجيليّ في معظمه متناقلاً على ألسنة الحفّاظ، إلى أن شرع بعض الرسل بتدوين التعاليم التي ستؤلّف في ما بعد العناصر الرئيسيّة للعهد الجديد، ولكنّ ذلك لم يحصل قبل السنوات الواقعة ما بين سنة ٦٠ وسنة ٧٥ م. إذ بدأ بالتدوين متّى[٣]، وتبعه مَرقُس[٤] ثمّ لوقا[٥]. أمّا يوحنّا[٦] فكتب إنجيله نحو نهاية القرن الأوّل. هذه المدوّنات الرسوليّة، هي الأناجيل[٧]، وهي بشرى الخلاص بشخص يسوع المسيح التي أعلنها كلّ من الإنجيليّين الأربعة في روايته لأقوال يسوع وأعماله ولموته وقيامته[٨].

---

١ ـ راجع: رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس، ٩: ١٤.

٢ ـ راجع: رسالة بولس الثانية إلى أهل قورنتس، ١٠: ٨، ١٨.

٣ ـ متّى: أحد رسل المسيح الإثني عشر وأحد الإنجيليّين الأربعة، كان عشّارًا في كفرناحوم، كتب إنجيله لمسيحيّي فلسطين اليهوديّي الأصل باللغة الآراميّة حوالى سنة ٥٠.

٤ ـ مَرقُس أو يُوحنّا مَرقُس: أحد تلاميذ المسيح وأحد الإنجيليّين الأربعة، فتح بيته للرسل والتلاميذ في أورشليم، رافق بولس ثمّ لازم بطرس في تبشيره وكتب إنجيله حوالى سنة ٦٤، ينسب إليه تأسيس كنيسة الإسكندريّة.

٥ ـ لُوقا: أحد تلاميذ المسيح وأحد الإنجيليّين الأربعة، رفيق بولس الرسول في أسفاره، كان طبيبًا، كتب إنجيله حوالى سنة ٦٧ وأعمال الرسل ٦٨ ـ ٨٥.

٦ ـ يوُحنّا الحَبِيب (ت حوالى ١٠٠): هو ابن زبدى وسلومة وأخو يعقوب الكبير، أحد رسل المسيح الإثني عشر وأحد الإنجيليّين الأربعة، أحبّه المسيح محبّة خاصّة فلُقّب بالحبيب، له إنجيل يوحنّا والرؤيا وثلاث رسائل، المقول إنّه مات شهيدًا في جزيرة بطمس حيث نُفي.

٧ ـ الأناجيل، جمع إنجيل. وأصل الكلمة يونانيّ، ومعناها "بشرى"، أي بشرى الخلاص. (راجع مرقس ١: ١) في اليونانيّة "إيفانجيليون".

٨ ـ الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٢٥.

هذه الأناجيل، غدت مصدرنا الرئيس عن حياة المسيح. "وإذا كان لبعض حوادث حياة المسيح أو تعاليمه ما يشابهها في التراث الدينيّ لبلاد الشرق القديم، فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يجد في أيّ مكان آخر مثل هذه الخلاصة المحكمة من الأفكار النبيلة وهذا التأكيد على المثُل السامية، كما أنّه ليس باستطاعة أحد أن يكتشف، في أيّ زمن، شخصًا طبّق ما علّمه بمثل هذه الصورة التامّة"[1].

كان لمجيء يوحنّا المعمدان[2] قبل يسوع، معنًى مهمًّا عند الإنجيليّين الذين استَشهدوا[3] بآية من سفر إشعيا من العهد القديم تقول: "... صوتٌ منادٍ في البرّيّة: أعدّوا طريق الربّ واجعلوا سبل إلهنا في الصحراء، قويمة. كلّ وادٍ يُردَم، وكلّ جبل وتلّ يُخفَض، والطرق المنعرجة تُقوَّم، والوعرة تُسهَّل، وكلّ بشر يرى خلاص اللّه"[4]. وإذ كان اليهود في حالة انتظار لمجيء المسيح، كان الشعب ينتظر، وكلّ يسأل نفسه عن يوحنّا: هل هو المسيح؟ فأجاب يوحنّا "قائلاً لهم أجمعين: أنا أعمّدكم بالماء، ولكن يأتي مَن هو أقوى منّي، مَن لست أهلاً لأنّ أفكّ رباط نعلَيه، إنّه سيعمّدكم في الروح القدس والنار. بيده المذرى، ينقّي بيدره، فيجمع القمح في أهرائه وأمّا التبن فيحرقه بنار لا تطفأ"[5].

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٤.

٢ ـ يوحنّا المَعمدان: هو ابن زكريّا وأليصابات، من أنسباء مريم أمّ يسوع، وهو يحيى في القرآن، عاش في برّيّة اليهوديّة قبل أن يظهر على ضفّة الأردن ليعمّد بالماء للتوبة وليبشّر بمجيء المسيح لذلك سُمّي بـ "السّابق"، قطع هيرودس رأسه بتحريض من زوجته هيرودية حوالى ٣١.

٣ ـ متّى، ٣:٣؛ يوحنّا، ١: ٢٣؛ لوقا، ٣: ٤ ـ ٦.

٤ ـ سفر إشعيا، ٤٠: ٣ ـ ٥.

٥ ـ لوقا ٣: ١٥ ـ ١٨؛ قابل: يوحنّا ١: ١٩ ـ ٢٠، ٣: ٢٨؛ أعمال الرسل ١٣: ٢٥.

راح يوحنّا يعمّد الناس في نهر الأردنّ، وكانت معموديّته هذه لليهود مرتبطة بالتوبة، وباعتراف المتعمّدين بخطاياهم، إلى أن جاء شاب في الثلاثين من عمره، يُقال له يسوع، ليعتمد هو أيضًا على يد يوحنّا، "فانفتحت السماء، ونزل الروح القدس عليه في صورة جسم كأنّه حمامة، وأتى صوت من السماء يقول: ـ هذا أنت ابني الحبيب عنك رضيت[1] ـ .

أمّا الذي سبق ذلك الظهور القدسيّ من إشارة إلى أنّ هذا الشاب الثلاثينيّ ليس شخصًا عاديًّا، فكان ممانعة يوحنّا في البداية لأن يعمّده وهو يقول له: "أنا أحتاج إلى الاعتماد عن يدَيك، أوَأنت تأتي إليّ؟" فأجاب يسوع: "دعني الآن وما أريد، فهكذا يحسن بنا أن نُتِمَّ كلّ برٍّ "[2].

ذلك الشاب الثلاثينيّ غير العاديّ، كانت قد ولدته قبل ثلاثين عامًا امرأة عذراء من بنات الناصرة، إسمها مريم، كانت مخطوبة لرجل من سلالة داود يعمل نجّارًا اسمه يوسف. وعندما علم يوسف بأنّ خطيبته حامل، دون أن يقرُبها، عزم على أن يطلّقها سرًّا، ولكنّه تراجع عن عزمه إثر حلم تراءى له فيه "ملاك الربّ" وأعلمه أنّ "الذي كُوّن في مريم هو من الروح القدُس" وقال له إنّها ستلد ابنًا طلب إليه "أن يسمّيه يسوع، لأنّه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم"[3]. وكان في هذا إتمامٌ لِما جاء على لسان النبيّ: "ها إنّ العذراء تحمل فتلد ابنًا يسمّونه عمّانوئيل"[4] أي "اللّه معنا". وقد فعل يوسف بموجب قول ملاك الربّ، وأتى بامرأته إلى بيته.

---

١ ـ لوقا ٣: ٢١ ـ ٢٢؛ مرقس، ١: ٩ ـ ١١؛ يوحنّا، ١: ٣٢ ـ ٣٤.

٢ ـ متّى، ٣: ١٤ ـ ١٥.

٣ ـ راجع: لوقا، ٢: ١ ـ ٢٠.

٤ ـ متّى، ١: ١٨ ـ ٢١؛ لوقا، ١: ٣١ ـ ٣٥.

بعد أشهر، كان على يوسف أن يذهب مع امرأته الحامل إلى بيت لحم ليكتتب في الإحصاء الذي أمر أغوسطس قيصر (٢٩ق.م. ـ ١٤م.) بإجرائه على أهل الأمبرطوريّة. وبينما كانا ينتظران دورهما للاكتتاب، حان وقت ولادة مريم، وإذ لم يكن لهما موضع في المضافة، لجأا إلى مغارة حيث ولدت مريم ابنها البكر، فقمّطته وأضجعته في مذود.

كان أوّل مَن تلقّى إشارة بمولد يسوع، أولئك الرعاة الذين لم تكن سمعتهم حسنة في إسرائيل في ذلك الزمان، لأنّهم كانوا يعيشون على هامش جماعة العاملين بأحكام الشريعة، فلقد كانوا من الوضعاء والفقراء. وإذ كان بعض هؤلاء يتناوبون السهر في الليل على رعيّته حضرهم ملاك الربّ، وبشّرهم بفرح عظيم: "وُلد لكم اليوم مخلّص في مدينة داود، وهو المسيح الربّ".

وبحسب تعليمات الملاك، انتقل الرعاة إلى بيت لحم، وقصدوا مسرعين المكان الذي وجدوا فيه مريم ويوسف والطفل مضّجعًا في مذود، ولمّا رأوا ذلك جعلوا يخبرون بما قيل لهم في ذلك الطفل[1].

في الوقت نفسه، قدم منجّمون إلى أورشليم، كانوا يُعرفون بالمجوس[2]، وسألوا: "أين ملك اليهود الذي وُلد؟ فقد رأينا نجمه في المشرق، فجئنا نسجد له". وكان هذا سببًا لأن يُقدِم هيرودس على قتل كلّ طفلٍ في بيت لحم وجميع أراضيها، لأنّه خشي على مُلكه من ذلك الذي وُلد على أنّه ملكٌ لإسرائيل.

---

١ ـ سفر إشعيا، ٧ ـ ١٤.

٢ ـ المَجُوس: تُطلق في الأصل على أمّة يعبد أبناؤها الشمس أو النار، الواحد منهم مجوسيّ، وكان يطلق اسم المجوسي أيضًا على الساحر والحكيم والفيلسوف، والكلمة معرّبة عن عبارة "ميخ كوش" الفارسيّة التي تعني "صغير الأذنين".

بهذا، تحقّقت نبوءتان: الأولى تلك التي قالت: "أنتِ يا بيت لحم[١] أفراتة[٢]، إنّك أصغر عشائر يهوذا، ولكن منك يخرج لي مَن يكون متسلّطًا على إسرائيل، وأصوله منذ القديم، منذ أيّام الأزل"[٣]. والثانية تلك التي جاء فيها: "صوتٌ سُمع في الرامة، بكاء ونحيب شديد، راحيل تبكي على بنيها، وقد أبت أن تتعزّى لأنّهم زالوا عن الوجود"[٤].

في هذه الأثناء، كان يوسف قد أخذ الطفل وأمّه ليلاً ولجأ إلى مصر، عملاً بما طلب منه فعله ملاك الربّ في الحلم لإنقاذ الطفل من مجزرة هيرودس. فأقام هناك إلى وفاة هيردوس لتتمّ بذلك نبوأة أخرى: "مِن مصر دعوت ابني"[٥]. وبعد عودة يوسف وعائلته من مصر، أقام معها في الناصرة.

لا تفيدنا الأناجيل بغير نُتَفٍ قليلة عن حياة يسوع بين طفولته ومعموديّته على يد يوحنّا وهو في سنّ الثلاثين. من تلك النتف خبر جلوسه بين المعلّمين في هيكل أورشليم لمدّة ثلاثة أيّام وهو ابن اثنتَي عشرة سنة، يستمع إليهم ويسألهم، "وكان جميع سامعيه معجبين أشدّ الإعجاب بذكائه وجواباته". وكان أبواه قد صعدا إلى أورشليم جريًا على السنة في عيد الفصح[٦]. وتذكر الأناجيل أنّ يسوع، الذي سكن مع أبوَيه في الناصرة، كان يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند اللّه والناس[٧].

---

١ ـ بَيت لَحْم: ذكر ياقوت نقلاً عن مكّي بن عبد السلام الرميلي ثمّ المقدسي قوله: رأيت بخطّ مشرف بن مرجا "بيت لخم" بالخاء المعجمة، وسمعت جماعة من شيوخنا يروونه بالحاء المهملة وقد بلغني أنّ الجميع صحيح جائز.

٢ ـ أفْراتَة: دلّت في أوّل أمرها على عشيرة محالفة لكالب ومقيمة في منطقة بيت لحم، ثمّ انتقل اسمها إلى المدينة. تجدر الإشارة إلى أنّ ميخا كان يفكّر في أصول سلالة داود القديمة، وقد رأى الإنجيليّون في "بيت لحم أفراتة" إشارة إلى مكان ميلاد المسيح.

٣ ـ سفر ميخا، ٥: ١.

٤ ـ سفر إرميا، ٣١: ١٥.

٥ ـ سفر هوشع، ١١: ١؛ راجع: متّى، ٢: ١٥.

٦ ـ راجع: لوقا، ٢: ٤١ ـ ٤٩.

٧ ـ لوقا، ٢: ٤٠، ٥١ ـ ٥٢.

الرِّسَالَة

لم يبدأ يسوع رسالته قبل اعتماده على يد يوحنّا ومن ثمّ إقامته في البرّيّة أربعين يومًا حيث قاوم تجارب الشيطان، ولم يعُد منها إلى الجليل إلاّ بعد بلوغه خبر اعتقال يوحنّا. وهنا يبدأ يسوع أعماله.

لم يختر يسوع مكانًا لكرازته يقتصر وجود الناس فيه على اليهود مثلما كان يفعل الآخرون، كأهل قمران[١] أو يوحنّا المعمدان، ولكنّه افتتح رسالته في "جليل الأمم"[٢] حيث بدأ بتوجيه تعليمه إلى أكثر الأسباط تعرُّضًا لظلمة الوثنيّين. وبذلك انفتحت رسالته على جميع الأمم. فقد ترك الناصرة منتقلاً إلى مدينة تقع شماليّ بحيرة طبريّة، اسمها كفرناحوم[٣]. وكانت هذه المنطقة منسوبة في التراث اليهوديّ إلى سبطَين من

---

١ ـ أهل قُمران: نسبة إلى قُمران في فلسطين، هي اليوم خربة تُعرف باسم خربة قمران، كانت تقع على تلّ يشرف على البحر الميت، اكتُشف فيه مخطوطات قديمة نادرة ١٩٤٧ وأطلال دير لفرقة الأسينيّين اليهوديّة يعود إلى القرن الأوّل قبل الميلاد، خربت نهائيًا في الحرب اليهوديّة ٦٨ ـ ٧٠.

٢ ـ الجليل: تُعرَف منطقة الجليل من قبل الجغرافيّين المحدثين بأنّها تقع في فلسطين الشماليّة بين لبنان شمالاً والمتوسّط غربًا والأردن شرقًا والسامرة جنوبًا، وأنّ من مدنها حيفا وعكّا ومن بلداتها الناصرة وقانا وقديمًا كفرناحوم. وتُعرَف "جبال الجليل" بأنّها كتلة صخريّة جبليّة في فلسطين هي امتداد لجبل عامل في لبنان، تنتهي على ارتفاع ١,٣٠٨م. عند مرج ابن عامر. إلاّ أنّ ياقوت قد ذكر جبل الجليل على أنّه من أعمال صيدا وبيروت، وذكر أيضًا أنّ عيسى ابن مريم قد دعا لهذا الجبل أن لا يعدوَ سبعُه ولا يجدبَ زرعه. ثمّ إنّ إطلاق تسمية "جليل الأمم" على المنطقة تجعلنا نميل إلى اعتبار أنّ المقصود منها أرض لبنان وليس أرض فلسطين. وما من شكّ على الإطلاق في أنّ قانا الجليل الواردة في الأناجيل هي قانا جنوب لبنان بعد اكتشاف أجرانها الأثريّة والمنحوتات التي تمثّل الرسل على بعض صخورها. ويُفهم من المدوّنات أنّ أبناء هذه المنطقة قد اتّبعوا الدين المسيحيّ باكرًا، وقد جاء في شعر لأبي قيس بن الأسلت: ... ولولا ربّنا كنّا نصارى، مع الرهبان في جبل الجليل.

٣ ـ كفَرناحوم: مدينة في شمالي بحير طبريّة، سكنها الرسولان بطرس وإندراوس، ألقى فيها يسوع تعاليمه وصنع بعضًا من معجزاته.

أسباط إسرائيل: زبولون ونفتالي[1]. وبإقامة يسوع في كفرناحوم، تحقّقت آية أخرى من نبوأة إشعيا: "أرض زبولون وأرض نفتالي، طريق البحر، عبر الأردنّ، جليل الأمم. الشعب المقيم في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا، والمقيمون في بقعة الموت وظلاله أشرق عليهم النور"[2].

بدأ يسوع كرازته بالعبارة نفسها التي كان يكرز بها يوحنّا: "توبوا، قد اقترب ملكوت السماوات"[3]. ثمّ راح يختار تلاميذه، وكان الأوائل منهم أربعة من صيّادي الأسماك في بحيرة طبريّة هم: سمعان الذي يُقال له بطرس وأخوه إندراوس، ويعقوب بن زبدى وأخوه يوحنّا.

إختصر يسوع رسالته وتعاليمه من خلال عظته الأولى، التي تضمّنت الخطوط العريضة للمسيحيّة. وهي تلك العظة الموصوفة بالعظة الكبرى، التي شرع بها تعاليمه إلى تلاميذه، بعد أن أثبت قدرته السماويّة بشفاء شعب الجليل من كلّ مرض وعلّة "فشاع ذكره في سورية كلِها، فأتوه بجميع المرضى المصابين بمختلف العلل والأوجاع من الممسوسين والذين يُصرعون في رأس الهلال والمقعدين فشفاهم. فتبعته جموع كثيرة من الجليل والمدن العشر وأورشليم والهيوديّة وعبر الأردنّ"[4]، بعد أن عرّف عن أنّه المسيح المنتظَر، من خلال أسفار العهد القديم. وكان لمّا أتى الناصرة، حيث نشأ، "دخل المجمع يوم السبت على عادته، وقام ليقرأ. فدُفع إليه سفر النبيّ إشعيا، ففتح السفر، فوجد المكان المكتوب فيه: "روح الربّ عليّ، لأنّه مسحني لأبشّر الفقراء، وأرسلني لأعلن للمأسورين تخلية سبيلهم، وللعميان عودة البصر إليهم، وأفرّج عن

---

١ ـ زَبولون: سادس أبناء يعقوب من ليّا، جدّ أحد أسباط إسرائيل. كذلك نَفتالي: فهو ابن يعقوب أيضًا، وإليه نسب أحد الأسباط.

٢ ـ متّى، ٤: ١٥ ـ ١٦؛ قابل: سفر إشعيا، ٨: ٢٣؛ ٩: ١.

٣ ـ متّى، ٣: ٢؛ ٤: ١٧.

٤ ـ متّى، ٤: ٢٣ ـ ٢٥.

المظلومين، وأعلن سنّة رضًا عند الربّ"[1]. وبعد أن اكتفى بهذا القدر من القراءة، طوى السفر فأعاده إلى الخادم وجلس. وكانت عيون أهل المجمع كلّهم شاخصة إليه. فأخذ يقول لهم: "اليوم تمّت الآية بمسمع منكم"[2].

في عظته الكبرى، رسم يسوع خطوط البرّ المسيحيّ الجديد، وذلك من خلال أقسامها: التطويبات، ثمّ البرّ الكامل، ثمّ التوضيحات، فالتنبيهات وتوضيحاتها.

في التطويبات، قال يسوع: "طوبى[3] لفقراء الروح، فإنّ لهم ملكوت السماوات. طوبى للودعاء، فإنّهم يرثون الأرض. طوبى للمحزونين، فإنّهم يعزّون. طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، فإنّهم يُشبعون. طوبى للرحماء، فإنّهم يُرحمون. طوبى لأطهار القلوب، فإنّهم يشاهدون الله. طوبى للساعين إلى السلام، فإنّهم أبناء الله يُدعون. طوبى للمضطّهدين على البرّ، فإنّ لهم ملكوت السماوات. طوبى لكم، إذا شتموكم واضطّهدوكم وافتروا عليكم كلّ كذب من أجلي، إفرحوا وابتهجوا: إنّ أجركم في السماوات عظيم، فهكذا اضطّهدوا الأنبياء من قبلكم"[4].

هذه التطويبات، من شأنها أن تختصر الروح المسيحيّة الجديدة، وأساسها المحبّة، محبّة اللّه ومحبّة الإنسان. وأعطت هذه المفاهيم الدينيّة الجديدة للمضطّهدين وعديمي الحظّ الأمل في حياة ثانية تقدّم للأبرار المسرّات التي حُرموا منها في هذه الحياة الدنيا. وفي الوقت نفسه، حثّت التطويبات على البذل والعطاء، وعلى تحمّل الاضطّهادات التي نبّه يسوع من خلال التطويبات إلى مستقبل حدوثها.

---

١ ـ سفر إشعيا، ٦١: ١ ـ ٢؛ راجع: لوقا، ٤: ١٤ ـ ١٩.

٢ ـ لوقا، ٤: ٢٠ ـ ٢١.

٣ ـ طوبى: كلمة من أصل عبريّ معناها: "هنيئًا لـ..." أو "ما أسعد". وهي من أسلوب الكتاب المقدّس.

٤ ـ متّى، ٥: ٣ ـ ١٢.

بعد التطويبات، حثّ يسوع تلاميذه على الالتزام بالتعاليم: "أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح فأيّ شيء يملّحه؟ إنّه لا يصلح إلاّ لأن يُطرح في خارج الدار فيدوسه الناس"[١] كما حثّهم على إعطاء المثل الصالح، وعلى الاجتهاد في الكرازة وتعميم الرسالة: "أنتم نور العالم. لا تخفى مدينة على جبل، ولا يوقد سراج تحت المكيال، بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت، هكذا فليضِئ نوركم للناس ليروا أعمالكم الصالحة، فيمجّدوا آباكم الذي في السماوات"[٢] .

وحرص يسوع على الربط بين الشريعة القديمة ودعوته الجديدة من خلال التأكيد على أنّ هذه الدعوة، إنّما هي تتمّة لمسار فكرة اللّه عند الإنسان: "لا تظنّوا أنّي جئت لأُبطل الشريعة أو الأنبياء: ما جئت لأبطل بل لأكمّل"[٣]. ولكنّ هذا "الإكمال" يتطلّب مزيدًا من البرّ: "إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين لا تدخلوا ملكوت السماوات". وهنا يشرح يسوع هذا التسامي في الرسالة الدينيّة، وذلك الترقّي المفروض على الإنسانيّة في ظلّ المسيحيّة: "سمعتم أنّه قيل للأوّلين: لا تقتل، فإنّ مَن يقتل يستوجب حكم القضاء[٤] أمّا أنا فأقول لكم: مَن غضب على أخيه استوجب حكم القضاء، ومَن قال لأخيه يا أحمق، استوجب حكم المجلس، ومَن قال له يا جاهل استوجب نار جهنّم..."[٥] ومثل هذا التشديد أورده يسوع بالنسبة للزنى، وللطلاق، ولاحترام العزّة الإلهيّة، وللتسامح، ولأعمال البرّ، وللصلاة، وللصوم، ولعمل الخير،

---

١ ـ متّى، ٥ ـ ١٣.

٢ ـ متّى، ٥: ١٤ ـ ١٦؛ قابل: يوحنّا، ٨: ١٢؛ لوقا، ٨: ١٦؛ ١١: ٣٣؛ مرقس، ٤: ٢١؛ يوحنّا، ٣: ٢١.

٣ ـ متّى، ٥: ١٧؛ راجع: رسالة بولس إلى أهل رومة، ٣: ٣١.

٤ ـ راجع: سفر الخروج، ٢٠: ١٣.

٥ ـ متّى، ٥: ٢١ ـ ٢٢.

واختصر فلسفة التعاطي بين الناس مسيحيًّا بالقاعدة المثلى: "فكلّ ما أردتم أن يفعل الناس لكم، إفعلوه أنتم لهم: هذه هي الشريعة والأنبياء"[1].

وقبل النهاية يحذّر يسوع من الأنبياء الكذّابين "فإنّهم يأتونكم في لباس الخراف، وهم في باطنهم ذئاب خاطفة"[2].

أمّا التنبيه الأخير الذي جاء في عظة يسوع الكبرى، فقد كان ذا علاقة بيوم الحساب: "ليس مَن يقول لي: يا ربّ، يار ربّ - مَن يدخل ملكوت السماوات، بل مَن يعمل بمشيئة أبي الذي في السماوات. فسوف يقول لي كثير من الناس في ذلك اليوم: يا ربّ، يا ربّ. أمَا باسمك تنبّأنا؟ وباسمك طردنا الشياطين؟ وباسمك أتينا بالمعجزات الكثيرة؟ فأقول لهم علانية: ما عرفتكم قطّ. إليكم عنّي أيّها الأثمة!. - فمثَل مَن يسمع كلامي هذا فيعمل به كمثَل رجلٍ عاقلٍ بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح، فثارت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنّ أساسه على الصخر. ومثَل مَن سمع كلامي هذا فلم يعمل به كمثل رجل جاهل بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح، فضربت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه شديدًا"[3].

قضى يسوع الجزء الأوّل من أيّام رسالته في الجليل. فبعد كفرناحوم، راح وتلاميذه الأربعة، يجول في قرى الجليل، حيث كان يشفي المرضى المصابين بمختلف العلل. وكان هؤلاء يقصدونه حيث وُجد ليشفيهم. في هذه الأثناء، ضمّ يسوع إلى تلاميذه الأربعة الأوَل، تلميذه الخامس متّى، الذي يرد اسمه أيضًا "لاوي بن حلفى".

---

١ - متّى، ٧: ١٢؛ قابل: لوقا، ٦: ٣١؛ ورسالة بولس إلى أهل رومة، ١٣: ٨ - ١٠.

٢ - متّى، ٧: ١٥؛ راجع: رسالة بطرس الثانية، ٦: ٤٣ - ٤٤.

٣ - متّى، ٧: ٢١ - ٢٧؛ لوقا، ١٣: ٢٦ - ٢٧.

وكان هذا جالسًا في بيت الجباية عندما مرّ يسوع من هناك، فقال له "اتبعني"، فقام وتبعه[١].ويرى التقليد الكنسيّ في هذا الرسول مؤلّف الإنجيل الأوّل. وفي بيت هذا الرسول، جلس يسوع إلى الطعام ومعه تلاميذه، وإلى المائدة كثير من العشّارين[٢] الذين كان اليهود ينظرون إليهم نظرتهم إلى الخاطئين الذين لا يحفظون الشريعة، والذين لا بدّ من الإعراض عنهم، لأنّهم كانوا يستغلّون غالبًا وظيفتهم للاغتناء بالمال الحرام. وكان إلى جانب هؤلاء بخلال المأدبة عدد من الخاطئين. فأخذ الكتبة[٣] والفرّيسيّون[٤] على يسوع أنّه يأكل مع العشّارين والخاطئين، غير أنّ يسوع قال لهم: "ليس الأصحّاء بمحتاجين إلى طبيب بل المرضى، ما جئت لأدعو الأبرار بل الخاطئين"[٥].

وفي الجليل، أتمّ يسوع جمع تلاميذه. فبعد سمعان بطرس[٦]، وأندراوس[٧]، ويعقوب ابن زبدى[٨] وأخيه يوحنّا[٩]، ومتّى[١٠]، وبينما كان في جبل الجليل والناس محتشدون

---

١ ـ متّى، ٨: ٩؛ قابل: مرقس، ٢: ١٣ ـ ١٤؛ لوقا، ٥: ٢٧ ـ ٢٨.

٢ ـ **العشّارون**: أي لخذة العشر، سمّوا كذلك إذ كانوا يجبون ضريبة العشر اليهوديّة.

٣ ـ **الكتبة**: أي كتبة الناموس الذين كانوا يشكّلون مرجعيّة في تفسير الشريعة.

٤ ـ **الفرّيسيّون**: طائفة من اليهود تنظّمت في عهد المكابيّين للدفاع عن الشريعة وصفاء الإيمان، لكنهم تطلّقوا، مع الزمن، بالحرف دون الروح، لهذا لامهم يسوع بشدّة على ريائهم وكبريائهم، فكانوا في طليعة مقاوميه.

٥ ـ مرقس، ٢: ١٥ ـ ١٧.

٦ ـ **بُطرُس** (نحو ١٠ق.م. ـ ٦٧): هو سمعان بن يونا أوّل رئيس على الكنيسة، كان صيّاد سمك على بحر طبريّة فدعاه يسوع وسمّاه "كيفًا" أي الصخرة وأقامه رئيسًا للرسل، بشّر في أورشليم والجليل ثمّ أقام في أنطاكية وروما حيث استشهد في عهد نيرون كما سيأتي.

٧ ـ **أندراوُس**: هو أخو بطرس، استشهد مصلوبًا على خشبتَين بشكل X يسمّى صليب القدّيس إندراوس.

٨ ـ **يعقوب ابن زبدى**: سمّي يعقوب الأكبر تمييزًا له عن يعقوب الأصغر بن حلفى، استشهد في أورشليم نحو ٤٤.

٩ ـ **يوحنّا**: هو يوحنّا الحبيب الإنجيلي الوارد ذكره في حاشية سابقة.

١٠ ـ **متّى**: هو متّى الإنجيلي الوارد ذكره في حاشية سابقة.

حوله، دعا الذين أرادهم فأقبلوا إليه، فاختار إضافة إلى الخمسة المذكورين: فيلبّس[١]، وبرتلماوس[٢]، وتوما[٣]، ويعقوب بن حلفى[٤]، وتدّاوس[٥]، وسمعان الغيور[٦]، ويهوذا الإسخريوطي[٧].

وبموازاة استقطاب يسوع للناس والتفافهم حواليه، كان الكتبة والفرّيسيّون يسعون إلى محاربته، فيتّهمونه حينًا بأنّ رئيس الشياطين يسكنه، وحينًا آخر بأنّه سيّد الشياطين. ذلك أنّ يسوع قد "عنّف الكتبة والفرّيسيّين المرائين، الذين يُقفلون ملكوت السماوات في وجوه الناس، فلا هم يدخلون، ولا الذين يريدون الدخول يدعونهم يدخلون"[٩]. كما أورد التفاصيل الواضحة عن خروج هؤلاء عن الشريعة والدين[٩]. فلقد كان هؤلاء كما سواهم من رجال الكهانة اليهوديّة بعيدين كلّ البعد عن تعاليم المسيح.

١ ـ فيلبُّس: ولد في بيت صيدا الجليل، استشهد نحو ٨٠.

٢ ـ بَرتِلماوُس: يروى أنّه بشّر في شمال الهند، استشهد في أرمينيا.

٣ ـ تُومَا: الرسول الذي لم يؤمن بقيامة يسوع إلا بعدما رأى آثار جراحه ووضع فيها إصبعه، ينسب إليه تبشير الهند بالمسيحيّة.

٤ ـ يعقوب بن حلفى: هو التلميذ المعروف بيعقوب الأصغر تمييزًا له عن يعقوب الأكبر ابن زبدى، أوّل أسقف في أورشليم، مات شهيدًا ٦٢، له رسالة اعتُبرت من أسفار العهد الجديد.

٥ ـ تَدّاوُس: إسمه أيضًا لباوس ويهوذا وهو غير الإسخريوطي، كان أخا يعقوب الأصغر، مات شهيدًا في بلاد فارس، له رسالة واحدة.

سِمعَان الغَيُور: يُسمّى أيضًا سمعان القانوني، يقال إنّه التقى بيهوذا الرسول في فارس حيث استشهد الإثنان.

٧ ـ يَهُوَذا الإسخَريُوطِي: هو تلميذ يسوع الذي باع معلّمه بثلاثين من الفضّة فصار اسمه عنوانًا للخيانة، شنق نفسه يأسًا، يُعرف عند العامّة باسم "يوضاس"، حلّ محلّه "متياس" باعتباره التلميذ الثاني عشر.

٨ ـ مرقس، ٣: ١٣ ـ ٢.

٩ ـ راجع: متّى، ٢٣: ١٣ ـ ١٦؛ لوقا، ١١: ٣٩ ـ ٤٨.

أولئك كانوا جامدين في القديم، والمسيح كان تجديدًا، وقد رأى أنّ "ما من أحد يشقّ قطعة من ثوب جديد، فيجعلها في ثوب عتيق، لئلاّ يشقّ الجديد وتكون القطعة التي أُخذت من الجديد لا تلائم العتيق. وما من أحد يجعل الخمرة الجديدة في زقاق عتيقة، لئلاّ تشقّ الخمرة الجديدة الزقاق فتراق هي، وتتلف الزقاق. بل يجب أن تُجعل الخمرة الجديدة في زقاق جديدة. وما من أحد إذا شرب معتّقة، يرغب في الجديدة لأنّه يقول: المعتّقة هي الطيّبة"[1].

بعد هذا، لم يعد من مجال للتساؤل كيف أنّ المسيح اختار تلاميذه من غير أهل الكهانة ومن غير الكتبة، ولكنّه اختار "للخمرة الجديدة زقاقًا جديدة". كما أنّه لم يتوقّع من أولئك الكتبة والكهّان أن يستسيغوا تعاليمه، لأنّ "ما من أحد إذا شرب معتّقة، يرغب في الجديدة". فكان الخصام بين القديم والجديد: بين يسوع وقادة اليهود. وإذ لا تقرّ تعاليم يسوع بالعداء والبغضاء والتآمر ومقاومة الشرّ بالشرّ، فإنّ أولئك كانوا أحرارًا في انتهاج تلك الأساليب، خاصّة وأنّهم قد رأوا في ذلك الثائر بالمحبّة، خطرًا أكيدًا على مكانتهم القياديّة، بل نهاية محتّمة لذلك الدور الذي اعتقدوا أنّ اللّه قد خصّهم به إلى الأبد لهم ولذراريهم من بعدهم. وأكثر من ذلك، فقد لمسوا في تعاليم الثائر بالمحبّة انفتاحًا على سائر الأمم، لا بل مساواة بين الأمم، وفي ذلك نهاية لاعتبار شعبهم شعب اللّه المختار. فعندما كان يعلّم في المجمع، في الناصرة، قال لهم: "لا شكّ أنّكم تقولون لي هذا المثل: يا طبيب إشفِ نفسك. فاصنع ههنا في وطنك كلّ شيء سمعنا أنّه جرى في كفرناحوم". وأضاف: "الحقّ أقول لكم: ما من نبيّ يُقبَل في وطنه. وبحقّ أقول لكم: كان في إسرائيل كثير من الأرامل في أيّام إيليّا، حين احتبست السماء

---

١ ـ لوقا، ٥: ٣٦ ـ ٣٩؛ متّى، ٩: ١٦ ـ ١٧؛ مرقس، ٢: ٢١ ـ ٢٢.

ثلاث سنوات وستّة أشهر، فأصابت الأرض كلّها مجاعة شديدة[1]، ولم يُرسَل إيليّا إلى واحدة منهنّ، وإنّما أُرسل إلى أرملة من صرفت صيدا[2]. وكان في إسرائيل كثير من البُرص على عهد النبيّ أليشاع، فلم يبرأ واحد منهم، وإنّما برئ نعمان السوريّ". فثار ثائر جميع الذين في المجمع عند سماعهم هذا الكلام، فقاموا ودفعوه إلى خارج المدينة وساقوه إلى حرف الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيّة عليه ليلقوه عنه، ولكنّه مرّ من بينهم ومضى[3].

ولإدراك الحال الذي كان واقعًا في نفوس أبناء المجتمع اليهوديّ آنذاك، لا بدّ من تقدير ما كانت بلغته بلايا إسرائيل، بحيث لم يبقَ من المعقول أن يرجوَ الناس بعد ظهور "مشيح" بشريّ يستطيع أن يعيد ذات يوم إلى الشعب المختار كرامته. فكانوا ينتظرون من اللّه وحده تبديل الحالة، وكانوا يرَون أنّ ذلك التحوّل الذي ينتظرونه بفروغ الصبر لن يحدث إلاّ لمصلحة انقلاب يشمل الكون كلّه إذ يظهر بغتة عالم جديد برمّته. ففي ذلك المشهد لرؤيا الأزمنة الأخيرة ليس لـ "المشيح" نصيب كبير في جميع الآراء، فإنّ مؤلّفي الرؤى، عندما تكلّموا عليه، كفّوا، على ما يبدو، عن أن يرَوه، شأنهم في الماضي، "مشيحًا" دنيويًّا مسحه يهوه[4]. وبعبارة أخرى، ملكًا من ذريّة داود، يقوم بأعمال سياسيّة وعسكريّة في جوهرها، ليحقّق بعون اللّه تحرير الشعب وازدهاره. فهم يميلون بعد ذلك إلى إظهار "المشيح" بمظهر كائن من الملأ الأعلى

---

١ ـ راجع: رسالة القدّيس يعقوب، ٥: ١٧؛ سفر الملوك الأوّل، ١٧: ١؛ سفر الملوك الثاني، ١٧: ٩.

٢ ـ صَرفَت صَيدا: وتُكتب أيضًا صرفة صيدا، هي نفسها الصرفند اليوم، تقع جنوب صيدا، ترتدّ إليها إيليّا النبيّ وزارها يسوع، فيها آثار فينيقيّة ورومانيّة وصليبيّة.

٣ ـ لوقا، ٤: ٢٣ ـ ٢٩؛ راجع: يوحنّا، ٨ ـ ٥٩.

٤ ـ يَهوَه: إسم أُطلق في التوراة على الله، على أساس اعتقاد اليهود أنّه أوحي به إلى موسى على جبل حوريب.

أقرب إلى اللّه منه إلى البشر، ويُطلَق عليه في بضع رؤى اسم ابن الإنسان، ولكنّه يظلّ في جوهره وجهًا سماويًّا ليس له صلة حقيقيّة بالناس وغير قابل للألم[1].

في هذا الوقت، بقي يسوع مصرًّا على عدم الكشف عن أنّه "ابن اللّه". فيوم كان في المجمع في كفرناحوم، وصاح رجلٌ بأعلى صوته موجّهًا كلامه إليه: ــ "آه! ما لنا ولك يا يسوع الناصريّ، أجئتَ لتُهلكَنا؟ أنا أعرف مَن أنت: أنت قدّوس اللّه". فانتهره يسوع بقوله: "إخرس واخرج منه". فصرعه الشيطان في وسط المجمع، وخرج منه[2].

وعلى شاطئ طبريّا، تلقّاه رجلان ممسوسان بعد أن سكّن العاصفة، وأخذا يصيحان: "ما لنا ولك، يا ابن اللّه" أجئتَ إلى هنا لتعذّبَنا قبل الأوان؟" فكان أن طرد يسوع الشياطين من الرجلَين، فدخلت في الخنازير، كما هو معروف[3].

وكان الشيطان فور اعتماد يسوع على يد يوحنّا قد حاول تجربته عندما تحدّاه بأن يحوّل الحجارة إلى أرغفة إنْ كان ابن اللّه[4].

وعندما طرح على تلاميذه هذا السؤال: "مَن أنا في قول الجموع؟" فأجابوا: "يوحنّا المعمدان، وبعضهم يقول إيليًّا، وبعضهم نبيّ من الأوّلين قام". فقال لهم: "ومَن أنا في قولكم أنتم؟" فأجاب بطرس: "مسيح اللّه". نهاهم بشدّة عن أن يخبروا أحدًا بذلك[5].

---

١ ـ راجع: الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت،١٩٩١) ص ١٩.

٢ ـ لوقا، ٤: ٣٣ ـ ٣٥؛ راجع: مرقس، ١: ٢٤؛ لوقا، ١: ٣٥.

٣ ـ متّى، ٨: ٢٨ ـ ٣٢؛ مرقس، ٥: ١٠ ـ ٢٠؛ لوقا، ٨: ٢٦ ـ ٣٩.

٤ ـ راجع: متّى، ٤: ٣ ـ ١١؛ لوقا، ٤: ١ ـ ١٣؛ مرقس، ١: ١٢ ـ ١٣.

٥ ـ لوقا، ٩: ١٨؛ متّى، ١٦: ١٣ ـ ١٦؛ مرقس، ٨: ٢٧ ـ ٣٠.

وقد ربط بعض الإنجيليّين ربطًا وثيقًا بين السكوت الذي فرضه يسوع على تلاميذه في شأن "مشيحيّته" والإنباء بموته الوشيك، فبعد أن "نهى الرسل بشدّة عن أن يخبروا أحدًا بذلك" قال لهم: "يجب على ابن الإنسان أن يعاني آلامًا شديدة، وأن يرذله الشيوخ وعظماء الكهنة والكتبة، وأن يُقتل ويقوم في اليوم الثالث"[1].

***

وبعد أن قضى يسوع حوالى ثلاث سنوات يعلّم ويكرز ويبرئ المرضى ويقيم الموتى ويزرع الأمل في النفوس، كان ما هو معلوم من أمر صلبه على يد اليهود.

---

١ ـ لوقا، ٩: ٢٢؛ قابل: متّى، ١٦: ٢١؛ مرقس، ٨: ٣١.

إكمالُ الرِّسالة

كان لا بدّ لابن الإنسان من "أن يعاني آلامًا شديدة، وأن يرذله الشيوخ وعظماء الكهنة والكتبة، وأن يُقتل ويقوم في اليوم الثالث"[١] حتّى تكتمل الرسالة. وهذا ما تمّ فعلاً، وما حقّق بعض ما جاء في المزامير: "لماذا ضجّت الأمم، وإلى الباطل سعت الشعوب؟ ملوك الأرض قاموا وعلى الربّ ومسيحه تحالف الرؤساء جميعًا"[٢]. بيد أنّ المسيح سيحقّق بموته الخلاص، وسيضمّ إلى شعب واحد جميع الذين سينتمون إلى الآب في العالم. فإنّ "حبّة الحنطة التي تقع في الأرض، إنْ لم تمُت، تبقى وحدها. وإذا ماتت، أخرجت ثمرًا كثيرًا"[٣].

وقبل أن يتمّم يسوع ما في الكتب، ودّع رسله الذين سيحملون رسالته إلى العالم، ودّعهم بتلك الوصيّة الخالدة: "أحبّوا بعضكم بعضًا كما أنا أحببتكم..."[٤].

وبقيامته من بين الأموات، وترائيه لتلاميذه بعد تلك القيامة، قبل أن ينفصل عنهم ويُرفع إلى السماء، تمّت الرسالة، وبدأ عهد جديد، كان على الرسل أن يبشّروا به جميع الأمم.

---

١ - لوقا، ٩: ٢٢.

٢ - المزمور ٢: ١ - ٢.

٣ - يوحنّا، ١٢: ٢٤.

٤ - يوحنّا، ١٣: ٣٤.

الفَصْلُ الثَّانِي

فَجْرُ المَسِيحيَّة

بَينَ العَهدَينِ القَديمِ والجَديد

في مواجهَةِ عِبَادَةِ الأمبَراطور . بُولس "رَسُولُ الأمَم" وَرِفاقُه

كَنِيسَةُ أنطَاكِيَة، بَعدَ كَنِيسَةِ أورَشَليم

في مُواجَهةِ البدَع . التَّنظِيمُ الكَنَسِيُّ الأوَّل

إنْتِشَارُ المَسيحِيَّة

الحَياةُ المَسِيحِيَّةِ فِي القَرنِ الأوَّل .

بَينَ العَهدَينِ القَديمِ والجَديد

ترتكز ديانة الشعب اليهوديّ على أنّها تجعل منه شعبًا فريدًا. وضع كتابه أناس اعتبروا أنّ اللّه دعاهم لتكوين شعب يحتلّ مكانةً خاصّةً في التاريخ بتشريعه ومبادئه في الحياة الفرديّة والجماعيّة.

وبموجب هذا الكتاب، فإنّ إسرائيل لم يكن يعرف إلاّ إلهًا واحدًا لا يُرى، ويفوق كلّ شيء، وهو الربّ. وكان يعبّر عن صلته باللّه بلفظ يعتبره حقوقيًّا "العهد". وكان يُخضع وجوده كلّه لهذا العهد وللشريعة الناتجة منه. فازداد نمط حياته تعارضًا مع نمط حياة سائر الأمم. فكلّ القسم العبريّ من الكتاب المقدّس يتعلّق بهذا العهد كما عاشه إسرائيل وفكّر به حتّى القرن الثاني قبل المسيح، فإنّ جميع النزعات التي تحرّك هذه الجماعة منطلقها الكتاب المقدّس... والشريعة، وهي تكرّمه على أنّه كلمة الربّ. واليهود يقرأونه ويبنون عليه ممارستهم في إطار تقاليد متأصّلة في حياة إسرائيل القديم، وُضعت بعد دمار الأمّة وكوّنت "المشنة" و"التلمود" و"المدارس".

وهكذا، فإنّ اليهود، لا يعودون يهودًا، إذا هم تخلّوا عن الكتاب، وبالتالي عن اعتبار "العهد"، وعن خاصيّة "الشعب المختار".

حتّى الذين تبعوا المسيح منهم، إنّما هم تبعوه على أنّه "المشيح" الذي أرسله الربّ ليخلّص شعبه! حتّى هؤلاء، لم يكونوا ممستعدّين على الإطلاق لأن يتخلّوا عن الاعتبارات القديمة تلك، بكلّ ما لتلك الاعتبارات من معنى.

أمام هذا الواقع، واجهت المسيحيّة، في أوّل عهدها في البيئة اليهوديّة، مسألة في غاية الأهميّة والتعقيد: كيفيّة الانتقال من اليهوديّة إلى المسيحيّة، من الخلاص بالشريعة، إلى الخلاص بالإيمان والنعمة. فبينما كان الرسل الأوائل يبشّرون بالمسيحيّة، كان بعض اليهود الذين آمنوا بالمسيح، يتبعونهم ليقولوا للوثنيّين الذين اعتنقوا المسيحيّة: "إذا لم تختتنوا على سنّة موسى، لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص"[1]. والذين آمنوا بالمسيحيّة من الفرّيسيّين قالوا: "يجب ختن الوثنيّين وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة موسى"[2]. وكان المهتدون الكبار إلى المسيحيّة أنفسهم، لا يستطيعون أن يفصلوا بين الشريعة اليهوديّة والتجدّد المسيحيّ بمعزل عن سننها. حتّى أنّ بولس نفسه، في البداية، لم يسعه إلاّ أن يؤكّد أمام الحاكم فيلكس، وإن على سبيل المفارقة، على أنّه باتّباعه "الطريقة"، ولأنّه مسيحيّ، لم يزل أمينًا لِما يؤمن به إسرائيل[3]. ولم يشذّ بطرس عن هذه القاعدة[4]. وإسطفانس، وهو أحد الشمامسة السبعة الذين اختارهم الرسل بعد عيد العنصرة، والذي يُعتبر أوّل الشهداء المسيحيّين في حوالى العام ٣٣، كان أقلّ عداء للشريعة ممّا يظنّه خصومه[5]. وكانت الكنيسة في اليهوديّة، مع أنّها كنيسة، لا تزال غائصة غوصًا عميقًا في المعتقدات اليهوديّة[6].

---

١ ـ أعمال الرسل، ١٥: ١.

٢ ـ أعمال الرسل، ١٥: ٥.

٣ ـ راجع: أعمال الرسل، ٢٦: ٢٢؛ ٢١: ٢٦؛ ٢٢: ١٧.

٤ ـ راجع: أعمال الرسل، ١٠: ٩ ـ ١٤.

٥ ـ راجع: أعمال الرسل، ٦: ١٣.

٦ ـ الكتاب المقدّس، العهد الجديد، طبعة دار المشرق (بيروت،١٩٩١) ص ٣٧٠.

بيد أنّ بولس وهو الذي كان أساسًا من أشدّ مضطّهدي المسيحيّة، يوم كان اسمه شاول[١]، قبل أن يهتدي على طريق دمشق حوالى سنة ٣٣ م. قد تعمّد على يد حننيّا[٢]، ثمّ اختلى في شمال جزيرة العرب مدّة ثلاث سنوات، باشر بعدها تبشير الأمم الوثنيّة فكان رسولها الممتاز، حتّى لُقّب برسول الأمم. بولس هذا، لم يلبث أن اقتنع بوجوب تحرير المسيحيّة من الموسويّة. وكذلك فعل برنابا[٣]، اليهوديّ القبرصيّ الذي اهتدى إلى المسيحيّة، ورافق بولس في تبشيره. وعندما بلغ الفرّيسيّين وسواهم من المتنصّرين اليهود في أورشليم مضمون دعوة بولس وبرنابا، بدأ صراع شديد بين الفئتَين بعد عودة الرسولَين من رحلتهما الأولى بين الأمميّين في "المشرق" فتقرّر الاحتكام إلى مجلس الرسل والكهنة الأساقفة في أورشليم. فكان مؤتمر الرسل هناك سنة ٤٩. وقد خرجت نظريّة بولس منتصرة بفضل تأييد بطرس، الذي اقتنع بوجوب تحرير المسيحيّة من الموسويّة، وتأييد يعقوب، وأسقف أورشليم، أمّ الكنائس[٤].

حرّر ذلك المؤتمر المسيحيّ الأوّل المسيحيّين الأمميّين من الشريعة والختان، لكنّه ترك النصارى من بني إسرائيل أحرارًا في إقامة التوراة والإنجيل معًا، والعماد

---

١ - **بولس الرسول** (ت٦٧): من أعظم رجال التاريخ المسيحيّ، وُلد في طرسوس بآسيا الصغرى من أبوَين يهوديّين، إسمه الأصليّ شاول، رومانيّ الجنسيّة، درس في القدس ونشأ نشأة يهوديّة متحمّسًا لأبيه ووطنه، فكان يضطهد المسيحيّين الأول، وقد شهد استشهاد القدّيس إسطفانوس، كلّفه رئيس الكهنة بالذهاب إلى دمشق لمقاومة المسيحيّين عام ٢٥، وفي طريقه رأى بغتة نورًا ساطعًا، وسمع صوتًا يقول له: شاول شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت ياسيّدي؟ فأجابه الصوت: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. وأصاب شاول عمًى موقّت، وهكذا تحوّل إلى المسيحيّة، وسمّى نفسه بولس.

٢ - **حننيّا**: تلميذ الرسل، كان يقطن دمشق، لجأ إليه القدّيس بولس بعد الرؤيا على طريق دمشق فقبل العماد منه.

٣ - **بَرنابا الرسول**: وُلد في قبرص، زامل بولس ومرقس في رحلاتهما التبشيريّة، المقول إنّه استُشهد في قبرص، يعزى إليه إنجيل منحول تبيّن أنّه من تأليف كاتب عاش بين القرنَين الثالث عشر والسادس عشر. وهناك رسالة تحمل اسم برنابا أيضًا، كتبها مجهول في القرن الثاني، تحتوي على نصائح أخلاقيّة.

٤ - راجع: أعمال الرسل، ١٥: ٥ - ٢٣.

والختان معًا، والسبت والأحد معًا[1]. ولقد كان انتصار المسيحيّة المحرّرة من اليهوديّة، انتصارًا بالتراضي، علمًا بأنّ هذا التراضي ينقذ روح المشاركة في الكنيسة. وقد بقي الجوهر سالمًا: فسواء كان ختان أم لا، لا يخلص المسيحيّون إلاّ بالإيمان وبنعمة المسيح[2].

بيد أنّ غلاة المتنصّرين من بني إسرائيل، لم يغفروا أبدًا لبولس دعوته لتحرير المسيحيّة من الموسويّة. وهكذا كان مؤتمر الرسل سببًا غير مباشر لانقسام أهل الإنجيل إلى فئتَين: فئة "النصرانيّة" من بني إسرائيل، وفئة "المسيحيّة" المهتدين من الأمميّين[3]. وتكتّل النصارى حول يعقوب، وانتسب المسيحيّون إلى بولس.

وقد تمحورت عقيدة "النصارى" حول ثلاثة أركان:

١) إقامة التوراة والإنجيل معًا.

٢) إعتبار يسوع المسيح "كلمة اللّه وروحًا منه". ففسّروا "كلمة اللّه" بأنّه "ملاك كلمة اللّه" أي ملاك حلّ في يسوع الناصريّ، بخلاف النظريّة المسيحيّة التي تؤمن بأنّ "كلمة اللّه" من ذات اللّه، وهو بالتالي نطقه الذاتيّ.

٣) إعتبار حلول كلمة اللّه في يسوع ظاهريًّا لا تجسّدًا أو تأنّسًا، وقد فارق المسيح قبل الآلام يسوع الناصريّ، ولمّا رجع المسيح الكلمة إلى يسوع في القبر قام من الموت وارتفع حيًّا إلى السماء[4].

---

١ ـ راجع: أعمال الرسل، ١٠: ١١ ،١٠: ٢٨ و١١ ،٣٨: ٢٠ ـ ٢١ ،١٥: ١ و٥ ،١٥: ٤ ـ ٢٩.

٢ ـ راجع، أعمال الرسل، ١٥: ٩ و١١.

٣ ـ بالرغم من هذا الفارق المعتقديّ بين "النصارى" و"المسيحيّين"، وما سينتج عن هذا الخلاف في المعتقد من تباين وانقسام، لقد درج العرب في ما بعد على تعميم تسمية النصارى على جميع أتباع يسوع. هذا الخطأ الشائع مقتصر على الكتابات العربيّة، نقصد الكتابات باللغة العربيّة كائنًا من كان كاتبها، وقد أضحى من الصعب تصحيحه.

٤ ـ راجع: يوسف درّه الحدّاد، فلسفة المسيحيّة، ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

المَسِيحيَّة

في مواجهَة عِبَادَة الأمبَراطور

إذا كانت الديانة اليهوديّة بكلّ ما كان لها من تمييز لشعب اللّه المختار عن سائر الشعوب، قد جعلت أتباعها يتشبّثون بقوانينها ومفاهيمها رغم اعتناقهم المسيحيّة، لأنّ هؤلاء اعتبروا مجيء المسيح متمّمًا لتلك الديانة، فـ "المشيح" ابن داود، إنّما هو مخلّص شعب "الرب" من مظالم سائر الشعوب، ولا يمكن بالتالي أن يكون مخلّصًا لجميع الأمم، بما فيها تلك التي كان إسرائيل يسعى للتخلّص من حكمها... فإنّ الديانة الوثنيّة، على تفرّعاتها، قد شكّلت، هي الأخرى، عوائق جمّة في نفوس أتباعها الأوّلين أمام المسيحيّة.

إعتبر المتعمّقون في دراسة تاريخ شعوب المنطقة أنّه "لا بدّ من أن تكون المسيحيّة قد بدت للمواطن الرومانيّ المتوسّط، حتّى أواخر القرن الأوّل للمسيح، كمذهب يهوديّ غامض، وأنّها من الفلسفات الكثيرة الأخرى التي كانت تنتشر من الشرق الأدنى. خاصّة وأنّ نواة المجتمعات المسيحيّة الأولى كانت مؤلّفة من اليهود.

وعندما أعلنت المسيحيّة تحدّيها للديانات القديمة، قام الكتّاب اليونان واللاتين يحاربون الدين الجديد، وكانت الأديان القديمة بالنسبة لهؤلاء الكتّاب تقترن بالأمجاد الماضية للتاريخ القوميّ. وكانت بالنسبة للرومان، بصورة عامّة، رموزًا للسلطة

الأمبراطوريّة... وكانت عبادة الأمبراطور أكثر عبادات الدولة قوّة وانتشارًا يومذاك، وهي العبادة التي أنشأها الأمبراطور أوغسطس[1] الذي عاصر يسوع، وأصبحت تعبيرًا ماديًّا للولاء للعرش[2].

من ناحية ثانية، فإنّ ديانات الأمم، على العموم، لم تكن مجرّد عقيدة نظريّة يُعترف بها، ولكنّها كانت ممارسة يوميّة من قِبَل الفرد والجماعة، تداخلت فيها الشؤون الحياتيّة في العمل واللهو وفي ظروف الحياة العامّة والخاصّة. فلقد كانت أمور الحرب والسلام تبدأ وتختتم بتقديم القرابين، بخلال احتفالات رسميّة طقسيّة كبرى، وكانت المشاهد العامّة جزءًا أساسيًّا من عبادة الوثنيّين، "المرحة". أضِف إلى ذلك ما كان يجري في تلك المجتمعات من حفلات إباحيّة، لا بدّ أنّها كانت تشكّل للإنسان العاديّ المتنفّس الوحيد للحياة، وبخاصّة تلك الاحتفالات الموسميّة التي كانت تشهد أشدّ مظاهر الابتهاج والإباحيّة.

كان على الإنسان الوثنيّ، أن يتخلّى عن كلّ تلك المباهج، لكي يتبع الدين الجديد. ذلك الدين الذي وعد بحياة أبديّة بعد الحياة الدنيا الفانية. إلاّ أنّه ليس من السهل على

---

١ ـ كايوس يوليوس أوكتافيوس أوغسطس (٦٣ ق.م. ـ ١٤م.): أوّل أمبراطور روماني، هو ابن بنت أخت يوليوس قيصر الذي تبنّاه وجعله وريثه دون علمه، إسمه أصلا أوكتافيوس وبعد التبنّي ٤٤ ق.م. أصبح أوكتافيانوس، علا شأنه في روما عقب مقتل قيصر وكوّن مع أنطونيوس ولبيدوس "الحكومة الثلاثيّة" الثانية، هزم هو وأنطونيوس الجمهوريّين بقيادة بروتس وكاسيوس عند فيليبي ٤٢ ق.م. كما طهّر هو ومعاونه أغريبا البحار من قوّات سكستوس بومبي، وبعد احتدام الخلاف بينه وبين أنطونيوس هزم هذا القائد وعشيقته كليوبترا في أكتيوم ٣١ ق.م. وفي العام التالي ضمّ مصر إلى الأمبراطوريّة الرومانيّة وأصبح على هذا النحو سيّد العالم الرومانيّ، منحه مجلس الشيوخ "السناتو" عدّة ألقاب من بينها: "أمبراطور" أي "القائد المظفّر"، و"أوغسطس" أي "المبجّل"، أصلح الإدارة ودعّم ركائز الأمبراطوريّة وجمّل روما وزاد وحسّن الطرق الرومانيّة، وازدهرت العمارة الرومانيّة في عهده، ورعى فرجيل وأوفيد وليفي وهوراس وأطلق اسمه على آداب ذلك العصر، ونشر لواء السلام المعروف بسلام أوغسطس على العالم المتمدّن المعروف، خلفه على العرش تيبريوس ابن زوجته.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

الإنسان أن يتخلّى عمّا يعتبره فردوسًا مُعاشًا أملاً بفردوس موعود. لذلك، لم يكن الوثنيّون الأوائل الذين اعتنقوا المسيحيّة، من أولئك الذين كانوا يتمتّعون على الأرض بما اعتبروه فردوسًا، بل كانوا من المنبوذين والمقهورين والفقراء والمساكين، تمامًا مثلما كان أوائل المسيحيّين من اليهود.

لقد حملت المسيحيّة في عمقها، بموازاة تعاليمها الروحيّة ودعوتها للمحبّة والإخاء، ما يمكن تسميته "ثورة" بكلّ ما في الكلمة من معنى. تلك الثورة المسالمة النابعة من مناهل المحبّة والإخاء والمساواة، من الطبيعيّ أن تلاقي الترحاب إلى درجة التعلّق من قِبَل الفقراء والمساكين وأبناء الطبقات الدنيا سواء كان ذلك في المجتمع اليهوديّ الطبقيّ، أو في المجتمعات الوثنيّة ذات النظم الطبقيّة هي الأخرى، وإن كانت من نوع آخر.

وما لا بدّ من أخذه بعين الاعتبار عند مقاربة أحوال الشعوب في تلك الحقبة من التاريخ، هو أنّ أبناء البلاد، أيّ بلاد، كانوا على العموم مواطنين من الدرجة الثانية، فيما كان الرومان واليونان محتكرين المراتب السامية في طبقات المجتمع. ما يعني، أمام هذا الواقع، أنّ أهل البلاد الأصليّين كانوا مهيّئين لقبول المسيحيّة بكلّ حماس، وأنّ الرومان واليونان كانوا، كما العشّارين والكهنة والكتبة عند اليهود، مناهضين لتلك التعاليم التي تنادي بالمساواة بين السيّد والمسود.

وحتّى ذلك التاريخ، لم يكن قد ظهر، سوى المسيحيّة، خاصّة في الوسط الهلّنستي، كعقيدة اتّخذت المحبّة فلسفة أساسيّة لها. ولو كانت الرواقيّة[1] وحدها قد سارت، أو حاولت السير في ذلك الاتّجاه.

---

١ ـ الرواقيّة: مدرسة فلسفيّة لسّسها زينون حوالى ٢٠٠ ق.م. وكان يعلّم في رواق، أي في سقيفة في مقدّمة البناء، فنُسبت إليه.

فقد رأى الرواقيّون أنّ الحقيقة ماديّة تسودها قوّة توجّهها هي الله، وما دامت الطبيعة تسير وفق العقل، فمن الحكمة أن يسير الإنسان وفق الطبيعة، منصرفًا عن ميل العواطف والأفكار التي تحيد عن جادة القانون الطبيعيّ. وحريّة الإنسان مرهونة بأدائه لواجبه في اقتفاء الطبيعة وقوانينها.

وإذا كان زينون[١] قد ارتقى في فلسفته الرواقيّة إلى ما تميّزت به من مفاهيم سامية، مقتبسًا الكثير عن أنتستين[٢] وهيرقليطس[٣] وأفلاطون[٥] وأرسطو[٤]، فقد بقيت فلسفته طبقيّة في جوهرها. ولم تُعرف أيّ عقيدة سابقة للمسيحيّة تقول بأنّ هناك إلهًا

---

١ ـ زَينون الرواقي (٣٣٦ ـ ٢٦٤ ق.م.): معروف أيضًا باسم زينون القيسيونيّ فيلسوف يونانيّ فينيقيّ الأصل، وُلد في قبرص، مؤسّس الفلسفة الرواقيّة، تأثّر بالكلبيّين وحاول أن يضع لمذهبهم الأخلاقيّ الأساس الميتافيزيقيّ والمنطقيّ، نسّق كثيرًا من أفكار هرقليطس وأفلاطون وأرسطو في بناء فلسفيّ، أُصيب بمرض تعذّر عليه علاجه فانتحر، يُنسب إليه القول المأثور "إنّما العيش هو العيش مع الطبيعة".

٢ ـ هي مدرسة الكلبيّين الفلسفيّة اليونانية ومذهبها أنّ الفضيلة هي وحدها الخير، فكلّ ما عداها من مال وشرف وحريّة جدير بالازدراء، وكان الكلبيّون غلاظًا في نقدهم وسلوكهم.

٣ ـ هيراقليطس (٥٣٥ ـ ٤٥٧ ق.م.): فيلسوف يونانيّ من أفسس، اعتبر أنّ الحقيقة هي في التغيّر، وأنّ الدوام وهم، وكلّ شيء يحمل معه ضدّه، فالوجود والعدم موجودان معًا في كلّ شيء، فما من شيء إلاّ وهو حالة انتقال دائم، وأنّ النار هي الجوهر الأوّل الذي منه نشأ الكون.

٤ ـ أفلاطون (حوالى ٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م.): اعتبر الفيلسوف اليونانيّ أفلاطون أنّ النفس خالدة، وأنّ الفضيلة هي سيطرة الجانب العقليّ من النفس على جانبَي الشهوة والغضب، والعدل هو تحقيق فضيلة العقل، والحكمة في ضبط الشهوة بالعفّة والغضب بالشجاعة. وتعدّ فلسفة أفلاطون نموذجًا للمذهب المثاليّ. وكانت نزعة أفلاطون السياسيّة تدفعه دومًا إلى التفكير بإصلاح المجتمع وإعداد الحاكم الصالح. رسم في كتابه "الجمهوريّة" صورة للمدينة الفاضلة كما تخيّلها وتمنّاها.

٥ ـ أرسطو أو أرسطاطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م.): اعتبر الفيلسوف اليونانيّ أرسطو أنّ للعالم مبدأن هما الصورة والمادّة، فكما أنّ صورة التمثال تنطبع على البرونز فتجعله تمثالاً لشيء بذاته، فكذلك كلّ شيء قوامه صورة ومادّة، ولا تكون صورة بغير مادّة إلاّ صورة الله وصورة النفس الإنسانيّة قبل حلولها في الجسم وبعد مفارقتها له. واعتبر أنّ الله هو المحرّك الأوّل للمادّة فهو العلّة الغائيّة التي تجذب الكون نحو هدفه الأسمى. ولكنّ مبادئ التربية عند أرسطو تعكس لنا واقع التقاليد اليونانيّة مع عيوبها، فالتعليم يقتصر على أولاد المواطنين الأحرار ويحرم منه الأرقّاء...

فاديًا يهتمّ بأحطّ أفراد الجنس البشريّ مثلما بأعظمهم. كما أنّه لم تكن لأيّة منها رسالة حيويّة تتوجّه إلى الفقير والمنبوذ، كما تتوجّه إلى العشّار والخاطئ من اليهود. وقلّما أثّرت أيّ ديانة وثنيّة في الدوافع الداخليّة للسلوك والحياة. فقد كان جميعها يهتمّ بصورة رئيسيّة بالطقوس. ولم يوجِد أيّ منها مثل ذلك الارتباط الفعّال بين الدين والأخلاق، أو يخصّص مثل هذا الاهتمام للحياة الثانية كما فعلت المسيحيّة، التي قرنت الحياة الأخلاقيّة بالدين، بصورة وثيقة. فأصبح الإحسان عندئذ من أعمال الإيمان بدلاً من أن يكون من أعمال العدل. وأعطى الدين الجديد للمضطّهدين وعديمي الحظّ الأمل في حياة ثانية تقدّم للأبرار المسرّات التي حُرموا منها في هذه الحياة الدنيا. وكان اليونان والرومان يمنحون الخلود لمَن كان محسنًا لشعبه فقط، أو لمَن أُدخل في إحدى ديانات الأسرار، التي كانت آلهتها بالأصل آلهة نبات، ثمّ اصطبغت في هذا العصر بالهلّينيّة تمامًا، وتبنّاها اليونان والرومان. وكان ديونيسيوس، إله الخمر، من أقدم هذه الآلهة، فهو روح النبات بوجه عام، وكانت إيزيس المصريّة أرفع الآلهة المؤنّثة شأنًا. وقد اعترف كاليغولا، الأمبرطور الرومانيّ (٣٧ ـ ٤١م.) بها بين العبادات الرومانيّة الرسميّة. وبلغ من شيوع عبادة أدونيس أنّها انتشرت في جميع الأمبراطوريّة في القرنَين الأوّل والثاني الميلاديّين.

ومن ديانات الأسرار ديانة "ميثرا"، وهو بالأصل إله الشمس عند الفرس. وقد استهوت عبادة "ميثرا" الجنود الرومان بشكل خاصّ، إذ كان هذا الدين يصوّر الحياة كصراع مستمرّ بين إلهٍ خيّر وقوّة شريرة. وبدا الأمر لمدّة من الزمن كأنّ المصير هو إمّا فوز المسيحيّة أو ديانة "ميثرا"[١]. ومن صفات ديانات الأسرار كونها سريّة.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٩.

وكان الانتساب إليها مقتصرًا على أولئك الذين أُتيح لهم الاطّلاع على أسرارها. وكانت آخر مرحلة في الاطّلاع هي إبلاغ الشخص بأنّ الذي يتمتّع بمثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص. وكانوا يبحثون عن الخلاص بواسطة الاتّحاد الشخصيّ مع مخلّص إلهيّ اختبر الحياة والموت بنفسه. ومن المظاهر الأخرى لديانات الأسرار التعبير عن المشاعر الشخصيّة بحريّة أكثر ممّا كانت تسمح به طقوس الدولة والعائلة[١]. وبما أنّ ديانات الأسرار كانت تنقصها السلطة المعترف بها للعقائد الرسميّة، فإنّها التجأت إلى وسائل جديدة لكي تكسب الأتباع. وكثيرًا ما كانت تحوي احتفالاتها عنصرًا "تجدّديًّا" قد يبلغ حدّ الخلاعة. إضافة إلى أنّ تلك الديانات قد وعدت أولئك الذين قد اجتازوا مراحل الاختبار الضروريّة بحياة سعيدة. وبعد الموت يرتفع المطّلع على الأسرار إلى العالم الإلهيّ ويسكن مع الآلهة.

كذلك كانت هنالك عبادة أخرى في المنطقة تنافس المسيحيّة، هي عبادة "هدد ـ رومانو" ذي الأصول الساميّة، والذي تحوّل في العصر الهلّنستي إلى "زفس" أو "جوبيتير" الذي كان من هيليوبوليس (بعلبك) أو من هيرابوليس (منبج). وقد انتشرت عبادته في جميع أرجاء الأمبراطوريّة. وكانت رفيقته "أثرغاتس" منافسة لـ "إيزيس" ومنهم مَن يقول: للعذراء[٢]. وكان هناك "زفس" أو "جوبيتير" آخر في بلدة "دوليكه DOLICHE" التي تُعرف بـ "عينتاب"[٣] وقد عاش "حيث يوجد الجديد". و"جوبيتير

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٣٦٩، استنادًا إلى: FRANZ CUMONT, *LES RELIGIONS ORIENTALES DANS LE PAGANISME ROMAIN*, ED. 4, (PARIS1929), PP. 24 SEQ.

٢ ـ المرجع السابق، ص ٣٧٠.

٣ ـ المرجع السابق، استنادًا إلى:
FRANZ CUMONT, ETUDES SYRIENNES, (PARIS,1917) PP. 173, SEQ.

دوليكينوس" هذا، هو بالأصل "تيشوب TESHUB" إله الحثّيين، نجح بنشر عبادته في الأمبراطوريّة كلّها بصحبة الجيوش الرومانيّة.

أمام هذه المنافسة الدينيّة في المجتمعات الوثنيّة في العصر الميلاديّ الأوّل، كانت المسيحيّة، ذلك الدين الجديد في مجموعة أفكاره وتعاليمه الأخلاقيّة، وفلسفته في الخلود، وعقيدته الراسخة، قادرة كما يبدو، على تلبية المطالب الروحيّة والفكريّة والاجتماعيّة التي كان المتنوّرون غالبًا يتطلّبونها من دياناتهم التقليديّة، في كلّ مكان، من دون أن ينجحوا في الحصول عليها.

كان اليونان والرومان يعتقدون بآلهة متعدّدة، وكانوا بوجه عام متسامحين في موقفهم تجاه معتنقي الديانات الأخرى. والواقع أنّهم ذهبوا إلى حدّ إضافة آلهة جديدة مستوردة إلى مجموع آلهتهم الوطنيّة. وقد سمحوا، حتّى في عاصمة أمبراطوريّتهم، بالعبادة المصريّة الغريبة، والشعائر اليهوديّة، وأباحوا تمثيل المسرحيّات، ليس باللغات اللاتينيّة واليونانيّة فحسب، بل باللغات العبريّة والفينيقيّة والآراميّة أيضًا. وكانت سياستهم في شؤون الدين: "عش ودع الآخرين يعيشون".

في هذا الوقت، وبما أنّ المسيحيّين كانوا موحّدين، فإنّهم لم يتمكّنوا من التساهل. وكانوا نشيطين متحمّسين في بحثهم عن أتباع جدد لدياناتهم. وامتنعت جماعاتهم الأولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينيّة والرسميّة في مدنهم. ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العبادات الوثنيّة، بالإضافة إلى جهدهم المستمرّ في كسب الأتباع، كان لا بدّ من أن يؤدّي إلى الاصطدام... فالاضطّهاد.

بُولـــس

رَسُولُ الأُمم، وَرِفاقُه

لم يكن بولس الرسول من تلاميذ المسيح، حتّى أنّه لم يعرف المسيح شخصيًّا، وإن كان "رابيًّا" يهوديًّا فرّيسيًّا معاصرًا للسيّد المسيح. لا بل هو حارب الدين الجديد بشدّة، إلى أن اهتدى، وهو على طريق دمشق في حوالى سنة ٣٣، فتعمّد على يد حننيّا، ثمّ اختلى في شمال جزيرة العرب مدّة ثلاث سنوات، قبل أن يباشر بعدها بتبشير الأمم الوثنيّة في مدن آسية الصغرى ومقدونية واليونان، غير آبه للمصاعب التي أدّت إلى سجنه مرّتَين في أورشليم، ومن ثمّ إلى سَوقه إلى روما حيث استُشهد بقطع رأسه سنة ٦٧م.

قبل ذلك التاريخ، كان رسل المسيح قد استأنفوا رسالة السيّد بعد صعوده، وبعد أن اختاروا بديلاً ليهوذا الذي "أمسى دليلاً للّذين قبضوا على يسوع". فكان ذلك البديل "متتيّا" الذي ضُمّ إلى الرسل الأحد عشر[١].

راح بطرس والرسول يدعون اليهود إلى الإيمان بالمسيح مستشهدين بما جاء في كتب العهد القديم من نبوءات حول المسيح. وفي خطبته الأولى إلى اليهود، قال

١ ـ راجع: أعمال الرسل، ١: ١٥ ـ ٢٦.

بطرس: "فليعلم يقينا بيت إسرائيل أجمع أنّ يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم قد جعله اللّه ربًّا، ومسيحًا"[1]. ولمّا كان الناس يقولون لبطرس ولسائر الرسل بعد سماع كلامه "ماذا نعمل أيّها الإخوة؟"، كان بطرس يجيب: "توبوا، وليعتمد كلّ منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم، فتنالوا عطيّة الروح القدس. فإنّ الوعد لكم أنتم ولأولادكم وجميع الأباعد، على قدر ما يدعو منهم الربّ إلهنا"[2].

وكان اليهود يتبعون الدعوة بالمئات، بل بالآلاف أحيانًا[3].

لم يكن بوسع الرسل أن يتوجّهوا بهذا الأسلوب نفسه إلى الوثنيّين من أجل دعوتهم لاعتناق الدين الجديد. ذلك أنّ الوثنيّين لم يكونوا مؤمنين بالعهد القديم، ولم يكن مجيء المسيح منتظَرًا من قِبَلهم، ولم يكن الوعد لهم ولأولادهم...

كان المسيحيّون الأوائل في إسرائيل، يواظبون على متابعة تعاليم الرسل "والمشاركة وكسر الخبز والصلوات" التي يعتبر الباحثون أنّها كانت قد أضحت صلاة مسيحيّة بكلّ معنى الكلمة، وما عادت صلاة يهوديّة تقليديّة كما كانت قبل المسيح[4]. "وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة يجعلون كلّ شيء مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلّ منهم، يلازمون الهيكل كلّ يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، وينالون حظوة، عند الشعب كلّه... وكان الربّ يضمّ كلّ يوم إلى الجماعة أولئك الذين

---

١ ـ أعمال الرسل، ٢: ٣٦.

٢ ـ أعمال الرسل، ٢: ٣٧ ـ ٣٩.

٣ ـ أعمال الرسل، ٢: ٤١.

٤ ـ راجع: أعمال الرسل، ٤: ٢٤ وما يليها.

ينالون الخلاص"[1]، ولم تنفع ملاحقة الرسل من قِبَل الصدّوقيّين[2] والكهنة في منع الناس من حمل مرضاهم إليهم وهم يقيمون في "رواق سليمان" ليشفوهم من أمراضهم.

وعندما أمر عظيم الكهنة بسجن الرسل، فُتحت أبواب السجن بشكل غريب، ما زاد في عدد الأتباع والمؤمنين[3]. ومع ازدياد الإقبال عليهم، عيّن الرسل سبعة معاونين لهم هم: إسطفانس، وفيلبّس، وبروخورس، ونيقانور، وطيمون، وبرمناس، ونيقلاوس[4]. وأصبح أحد هؤلاء: إسطفانس، أوّل شهداء المسيحيّة إذ رجمه اليهود إثر خطبته المدافعة عن الدين المسيحيّ أمام عظيم الكهنة بخلال اعتقاله، وعقب ذلك اضطّهاد شديد على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتّت المسيحيّون جميعًا، ما عدا الرسل، في نواحي اليهوديّة والسامرة[5].

وإذ راح الرسل يبشّرون وينصّرون في نواحي السامرة، كان رجل مولود في طرسوس، تعلّم في أورشليم، حتّى استطاع أن يصف نفسه بالعبرانيّ. إسم هذا الرجل شاول. وكانت له مكانة مرموقة في مجلس اليهود، وكان من أشدّ مضطّهدي المسيحيّة، وواحدًا من الذين طلبوا الموت لإسطفانس. وكان شاول، في هذه الأثناء "ينفث تهديدًا وتقتيلاً لمعتنقي المسيحيّة في أورشليم. وبلغ فيه تشدّده في الاضطهاد أن قصد عظيم الكهنة وطلب منه رسائل إلى مجامع دمشق، حتّى إذا وجد أناسًا على هذه الطريقة،

---

١ ـ أعمال الرسل، ٢: ٤٢ ـ ٤٧؛ راجع: لوقا، ٢٤: ٥٣.

٢ ـ الصدّوقيّون: طائفة من اليهود كانوا خصوم الفريسيّين ومن أشدّ اليهود عداوة للمسيح. أنكروا قيامة الموتى والآخرة ولم يقبلوا من التوراة إلاّ الكتب الخمسة الأولى.

٣ ـ أعمال الرسل، ٥: ١٢ ـ ٢١.

٤ ـ أعمال الرسل، ٦: ٥ ـ ٦.

٥ ـ أعمال الرسل، ٨: ١ ـ ٢.

رجالاً ونساء، ساقهم موثقين إلى أورشليم. وبينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نور من السماء قد سطع حوله، فسقط على الأرض، وسمع صوتًا يقول له: "شاول، شاول، لماذا تضطّهدني؟" فقال "من أنت يا ربّ"، قال: "أنا يسوع الذي أنت تضطّهده، ولكن قُم فادخل المدينة، فيُقال لك ما يجب عليك أن تفعل"[1].

تلك كانت بداية اهتداء شاول، وهو الإسم العبريّ لبولس، الذي تنصّر في ما بعد على يد حننيّا في دمشق، والذي سيصبح في ما بعد "رسول الأمم".

بدأ بولس، فور تنصّره في دمشق، ينادي في المجامع اليهوديّة بأنّ يسوع هو ابن اللّه، أي أنّه "المشيح" المنتظر. ما أثار يهود دمشق الذين حاولوا أن يغتالوه، فغادر المدينة خلسة بمساعدة المؤمنين وعاد إلى أورشليم حيث حاول الانضمام إلى التلاميذ، ولكنّهم لم يأمنوه، بسبب ما عُرف به من عداء للدين الجديد. إلاّ أنّ لاويًّا[2] قبرصيًّا اسمه يوسف، كان يملك حقلاً كان قد باعه، وأتى بثمنه وألقاه عند أقدام الرسل، الذين لقّبوه بـ "برنابا" أي "ابن الفرج" أخذ بيد بولس وسار به إلى الرسل الذين يبدو أنّهم قبلوه بينهم بعد أن أطلعهم على حقيقة ما جرى معه.

مرّة ثانية، تعرّض بولس لمحاولة الاغتيال من قِبَل اليهود، وهذه المرّة في أورشليم، فهرّبه الإخوة إلى قيصريّة، ثمّ رحّلوه إلى طرسوس[3]، مسقط رسه، حيث أقام بضع سنوات.

---

١ ـ أعمال الرسل، ٩: ١ ـ ٦.

٢ ـ نسبة إلى سبط اللاوائيين الإسرائيلي، منسوب إلى لاوي بن يعقوب، خرج منه الكهنة أو اللاويّون.

٣ ـ طَرسوس: مدينة في جنوبي تركيا الأسيويّة (قيليقيا) على نهر طرسوس (قره صو) وهي كدنوس القديمة التي كانت ثغرًا لبلاد قيليقيا، دخلها الإسكندر الأكبر، فتحها الخليفة العبّاسيّ المأمون ٧٨٨ وفيها تُوفّي ودُفن.

في هذه الأثناء، قام بطرس الرسول بتعميد أوّل مجموعة من الوثنيّين باسم يسوع المسيح، وذلك في قيصريّة. وكانت ردّة فعل الأتباع الأوائل من أصل يهوديّ، في أورشليم، عنيفة، ضدّ إقدام بطرس على "دخوله إلى أناس قلف[1] وأكله معهم". ولكنّ بطرس أخبر هؤلاء عن الرؤيا التي أوحى له اللّه من خلالها بأن يعمّد الوثنيّين. "فلمّا سمعوا ذلك، هدأوا ومجّدوا اللّه وقالوا: قد وهب للوثنيّين أيضًا التوبة التي تؤدّي إلى الحياة"[2].

---

١ ـ قلف: غير مختونين بحسب الشريعة اليهوديّة.

٢ ـ أعمال الرسل، ١١: ٨.

كَنيسَةُ أنطاكيَة

بَعدَ كَنيسَةِ أورَشَليم

كان الذين تشتّتوا بسبب الضيق الذي وقع على معتنقي المسيحيّة إثر استشهاد إسطفانس، قد انتقلوا إلى فينيقيّة وقبرص وأنطاكية[1]، حيث راحوا يحاولون إقناع اليهود بالإيمان بأنّ يسوع هو المسيح. وكان هؤلاء، باختلاطهم مع اليونانيّين، يحاولون تبشيرهم أيضًا، وقد آمن من هؤلاء، على ما يبدو، عدد لا بأس به، ما جعل كنيسة أورشليم توفد إلى أنطاكية برنابا لرعاية هؤلاء. ولمّا رأى برنابا شدّة الإقبال تلك على الإيمان بالمسيح، سارع إلى طرسوس يبحث عن بولس، واصطحبه إلى أنطاكية، حيث

---

١ ـ **أنطاكية**: مدينة على العاصي في جنوب تركيا عند سفح جبل سيلبيوس، أسّسها سلوقس الأوّل نيكاتور ٣٠٧ ق.م.، تقع عند ملتقى الطرق الممتدّة من الفرات إلى البحر المتوسّط ومن البقاع إلى آسيا الصغرى، أصبحت عاصمة السلوقيّين حتّى الفتح الرومانيّ على يد بمبيوس ٦٤ ق.م.، شكّلت مقرًا هامًا للحضارة الهلنستيّة ازدهرت فيه الآداب والفنون وصارت من أهمّ المراكز التجاريّة في العالم، تحوّلت إلى مركز كنسيّ هامّ كما سيأتي تبيانه، دمّرها الفرس ٥٤٠ ثمّ أجهزت عليها الزلازل في القرن السادس، دخلها العرب ٦٣٦ وخضعت للأمبراطوريّة البيزنطيّة ٩٦٩ ـ ١٠٨٥، وللسلاجقة الأتراك ١٠٨٥ ـ ١٠٩٨، استولى عليها الصليبيّون ١٠٩٨ وأصبحت إقطاعًا في مملكة بيت المقدس اللاتينيّة تحت حكم بيوموند الأوّل وخلفائه، استولى عليها المماليك ١٢٦٨ ثمّ وقعت في أيدي العثمانيّين ١٥١٦ وبدأت بالتقهقر، انتقلت إلى سوريا ١٩٢٠ ولكنّها أعطيت لتركيا ضمن سنجق أو لواء الإسكندرونة ١٩٣٩، تشغل أنطاكية الحديثة جزءًا من المدينة القديمة، ما زالت بقايا من أسوارها وقناطرها ومسرحها وقلعتها باقية، كشفت الحفريّات فيها عن فسيفساء رائعة، هي اليوم مركز زراعيّ وتشتهر بمتحفها الأثريّ.

راحا يعملان معًا في تعليم الناس. وهكذا نشأت الكنيسة الأنطاكيّة بعد كنيسة أورشليم، حيث عُرِف أتباع الدين الجديد، لأوّل مرّة، بالمسيحيّين[1].

ولن يطول الزمن، حتّى تصبح تلك المدينة الوثنيّة الكبيرة، أنطاكية، مركزًا رسوليًا هامًّا، بالرغم من سمعتها السيّئة التي كانت عليها قبل ذلك التاريخ[2]، بالنظر لِما كان يحيى فيها من احتفالات إباحيّة. وهي المدينة التي كان سلوقوس الأوّل نيكاتور من ملوك سورية السلوقيّين (٣٥٥ ـ ٢٨٠ ق.م.) قد أسَّسها حوالى العام ٣٠٠ق.م. على ضفاف نهر العاصي ودعاها أنطاكية تخليدًا لذكرى أبيه أنطيوخوس[3]. ثمّ احتلّها الفاتح الرومانيّ بومبايوس سنة ٦٤ ق.م. فاحترم حقّها في إدارة شؤونها الداخليّة، رغم أنّه جعلها مقرّ الحكم الرومانيّ العامّ، فأضحت عاصمة ولاية سورية. وبقيت فلسطين مرتبطة بها حتّى سنة ٧٠م. وقد لُقِّبت أنطاكية بـ "تترابوليس ـ TETRAPOLIS" أي: "المدن الأربع" لأنّها كانت إحدى المدن الأربع الكبيرة التي بناها سلوقس: سلوقية[4]،

---

١ ـ أعمال الرسل، ١١: ٢٢ ـ ٢٦؛ إشارة إلى أنّ المسيحيّين قد عُرِفوا في الوسط اليهوديّ بالنصارى نسبة إلى يسوع الناصريّ كما سبقت الإشارة إليه، كون اليهود لم يعترفوا بأنّ يسوع هو "المشيح" أو المسيح.

٢ ـ راجع: أعمال الرسل، ١٣: ١ ـ ٣؛ ١٤: ٢٦ ـ ٢٨؛ ١٥: ٣٥ ـ ٣٦؛ ١٨: ٢٢.

٣ ـ راجع: STRABO, *GEOGRAPHY*, BK. XVI: 749, 751; DIODOREES, XX: 47.

٤ ـ سلُوقيَة: إسم لمدينتَين أسّسهما سلوقس الأوّل، الأولى حوالى ٣٠٠ ق.م. في سوريا لتكون ميناء لأنطاكية وهذه هي المقصودة، استولى عليها بطليموس الأوّل حوالى ٢٤٥ ق.م. واستعادها أنطيوخوس الثالث حوالى ٢١٩ ق.م.، اتّخذها الرومان قاعدة لأسطولهم، أدخل فسباسيانوس تعديلات على مرفئها؛ والثانية على نهر دجلة حوالى ٣١٢ ق.م. لتكون عاصمة أمبراطوريّته، أصبحت مركزًا كبيرًا للحضارة الإغريقيّة في الشرق، خلفت مدينة بابل بوصفها مركزًا للتجارة بين الشرق والغرب، وعندما فتح البارثيّون بابل أبقوا على سلوقية لكنّهم اتّخذوا أكتيسيفون أو طيشفون على الضفّة المقابلة مركزًا لقوّاتهم وحكّامهم، استمرّت سلوقية مركزًا تجاريًا كبيرًا حتّى العهد الرومانيّ ودمّرت فيه مرّتين آخرهما ١٦٤ إذ كانت ضربة قاضية لها وللحضارة الإغريقيّة في بابل.

وأبامية[1]، واللاذقيّة[2]، إضافة إلى أنطاكية[3]. لذلك كانت أنطاكية عامرة بالهياكل والقصور والمسارح، وكانت مجهّزة بأقنية المياه التي كانت تتدفّق في عمائرها وحمّاماتها الرومانيّة، كما كانت مجهّزة بطريق ذات أعمدة على جانبَيها. وعلى العموم، فقد كانت مجلّلة بأبهى حلل الفخر المدنيّ. وكان العنصر المسيطر في المدينة آنذاك العنصر اليونانيّ، كما كان يقطنها مواطنون من الدرجة الثانية، كالآراميّين واليهود. وكان هؤلاء الأخيرون يمثّلون عشر مجموع سكّان المدينة الذي كان يبلغ قرابة الأربعمئة ألف نسمة. ويبدو أنّ اليهود كانوا يقطنون في أطراف المدينة عند بوّابتَيها الشرقيّة والغربيّة[4]، كما كان بعضهم يقوم بأعمال الزراعة في السهول الواقعة قرب المدينة[5]. وتدلّ الدراسات المتعمّقة على أنّ يهود أنطاكية كانوا يومذاك، كما في فلسطين، فئتَين: الفئة المحافظة والمتمسّكة بالأصوليّة، وجماعة هذه الفئة كانت من

---

١ ـ أباميّة: مدينة على نهر العاصي، كانت قلعة طبيعيّة وقاعدة عسكريّة للدولة السلوقيّة وعاصمة إحدى مقاطعاتها، فيها عقد الرومان مع أنطيوخوس الثالث ١٨٨ ق.م. المعاهدة التي تقرّر بمقتضاها حرمانه من جميع ممتلكاته شمالي وغربي طوروس، كما تقرّر تحرير المدن الإغريقيّة التي كانت خاضعة له وتقسيم باقي ممتلكاته الأسيويّة بين رودس وبرجام.

٢ ـ اللّاذقيّة: ميناء ومدينة على المتوسّط بالقرب من مصبّ النهر الكبير الشمالي في سوريا، كانت في ما مضى مدينة فينيقيّة، عُرفت في العصور القديمة باسم "راميتا" ثمّ "لوكه أكتِه" ثمّ "مزابدان"، أضحت جزءًا من منطقة أوغاريت (رأس شمرة) في الألف الثاني ق.م.، احتلّها البابليّون ٦٠٤ ق.م. ثمّ اليونان ٣٣٣ ق.م.، أعاد بناءها سلوقس الأوّل الذي أطلق عليها اسم "لاوديقية البحريّة" تكريمًا لأمّه وجعلها مدينة هامّة، ازدهرت في زمن الرومان ومنحها أنطونيوس حريّات واسعة، خرّبها نيجر، احتلّتها زنوبيا في القرن الثالث، خرّبتها الزلازل ٤٩٤ و٥٥٥، أعاد يوستينيانس بناءها، دخلها العرب نحو ٦٣٨، استولى عليها السلاجقة ثمّ الصليبيّون ١٠٩٧، استردّها صلاح الدين الأيّوبي ١١٨٨ وهدمها قبل أن يستعيدها الصليبيّون، استولى عليها قلاون ١٢٨٧، ضُمّت إلى سوريا ١٩٤٢، هي اليوم قاعدة محافظة اللاذقيّة، وسّعت الجمهوريّة مرفأها مؤخّرًا، فيها آثار رومانيّة أهمّها قوس نصر أقيمت احتفاء بالأمبراطور سيفيروس وفيها مغاور وأقبية ومدافن أثريّة.

٣ ـ STRABO, *GEOGRAPHY*, BK. XVI: 750

٤ ـ LECLERCQ, ANTIOCHE, II: 150; CHEYSOSTOMOS, HOMELIES AGAINST THE JEWS, I: 6

٥ ـ TALMUD DE JERUSALEM, II: 144.

المعوزين، ثمّ الفئة المتهلنسة، وأفرادها من الذين انضمّوا إلى الجيش السلوقيّ فأضحوا بذلك يتمتّعون بحقوق المواطن الهلّيني[1]. والسائد أنّ يهود أنطاكية كانوا، في في بداية المسيحيّة، يتمتّعون بحريّة العبادة، وكانت لهم محاكمهم الخاصّة التي كانت تنظر في شؤون جاليتهم داخل المدينة.

إعتبر جمهرة من المدقّقين في تاريخ نشوء المسيحيّة أنّ كنيسة أنطاكية، لم تؤسَّس على يد بولس، بل على يد بطرس. ومن أصحاب هذا الرأي، القدّيس إيرونيموس[2] (حوالى ٣٤٧ ــ ٤١٩) الذي يُعدّ من آباء الكنيسة، وهو الذي أرّخ وفسّر الأسفار المقدّسة وترجمها بكاملها إلى اللاتينيّة، فأصبحت النصّ المعتمد من قِبَل الكنيسة الغربيّة. وكذلك المؤرّخ الكنسيّ يوحنّا الأفسسي[3] (٥٠٧ ــ ٥٨٦). ورأى كثيرون من الباحثين في التاريخ الكنسيّ في ما بعد الرأي نفسه، باستثناء بعض الذين قالوا بأنّ مؤسّس الكنيسة الأنطاكيّة إنّما هو برنابا[4].

في الواقع هناك كنائس كثيرة تدّعي بأنّ بطرس الرسول هو الذي أسّس أنطاكية، أو أنّ بعض المؤرّخين يدّعي لها ذلك، منها كنائس: صور، وصيدا، وطرابلس، وقيصريّة فلسطين وسواها. وإذا لم يكن هنالك ما ينفي صحّة هذه الاعتبارات، فليس هنالك ما يثبّتها، سوى أنّ المرجع الأوثق لتاريخ الكنيسة في بداية عهدها، يبقى أعمال

---

١ - KEAELING, *JEWISH COMMUNITY AT ANTIOCH*, (JOURN. OF BIB. LIT. 1922) P. 135.

٢ - PRIMIUM EPISCOPUM ANTIOCHENAE ECCLESIAE FUISSE "EUMQUE ROMAE TRANSLATUM". S. JEROME MIGNE, PAT. LAT. VOL. 26, COL. 340; VOL. 23, COL. 637. EUSIBIRS.

٣ - EUSIBIUS, *HISTORIA ECCLESIASTICA*, BK. III: 22, 36.

٤ - COLSON (J). *L'EVêQUE DANS LES COMMUNAUTÉS PRIMITIVES*, "YUNAM SANCTUM" (1951) PP. 27 - 44)
راجع أيضًا: رستم أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، المكتبة البولسيّة (بيروت،١٩٨٨) ج ١، ص ١٩ ـ ٢٠.

الرسل، الذي لا يذكر شأنًا لبطرس في تأسيس كنيسة أنطاكية، وإنْ كانت المراجعة الدقيقة لأعمال الرسل تدلّ على أنّ بطرس كان دائم الترحال في تبشيره. ثمّ إنّ التقليد الكنسيّ يعتبر أنّ أنطاكية "أضحت كرسيًّا رسوليًّا على رأسه بطرس الرسول حتّى انتقاله إلى رومة". لكنّ هذا لا يعني، حكمًا، أنّ بطرس هو الذي أسَّس كنيسة أنطاكية!.

على أيّ حال فإنّ كنيسة أنطاكية، هي الكنيسة الثانية التي أُسّست بعد الكنيسة الأمّ في أورشليم. وما يميّز الثانية على الأولى، هو أنّ كنيسة أورشليم إنّما كانت، في بدايتها، شبه محصورة باليهود المتنصّرين، بينما اتّخذت كنيسة أنطاكية الطابع الأمميّ. فغدت البوّابة الكبرى التي انطلقت منها المسيحيّة إلى العالم. ومن أنطاكية، كما ذكرنا سابقًا، انطلقت التسمية المسيحيّة على المؤمنين بدين يسوع، الذين لم يُعرفوا قبلاً بهذه الصفة، بل كانوا يُعرفون في اليهوديّة ومحيطها باسم النصارى.

سرعان ما غدت كنيسة أنطاكية أمّ كنائس الأمم، وكان بولس وغيره من الدعاة الأوائل للدين المسيحيّ، ينطلقون من أنطاكية للقيام بأعمالهم التبشيريّة ثمّ يعودون إليها لرفع التقارير عن أعمالهم. وبعد أن دمّر الرومان أورشليم سنة ٧٠م.[١] ودُمّرت بذلك الكنيسة الأمّ فيها، غدت أنطاكية العاصمة الوحيدة للعالم المسيحيّ[٢]. وكان قد أقبل المقيمون في أنطاكية، عاصمة الشرق، من يونانيّين وثنيّين، على اعتناق الدين الجديد، ما فتح المجال واسعًا أمام انتشار المسيحيّة في سائر المناطق القريبة. إلاّ أنّ هذه الانطلاقة المسيحيّة الواسعة، قد تأثّرت سلبًا بظاهرة لم تسلم منها أيّة دعوة أخرى ظافرة في تاريخ الإنسانيّة: نشوء الملل... والانقسامات.

---

١ ـ راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

في مُواجَهَةِ البِدَع

من أنطاكية، إنطلق بولس ورفاقه إلى مناطق أفسس[1] وإزمير[2] وآسية الصغرى[3]

---

١ ـ أفَسُس: مدينة قديمة في آسية الصغرى على بحر إيجه، تقع أنقاضها بالقرب من سلجوق الحاليّة في تركيا، كانت مركزًا تجاريًا هامًا منذ القرن الثامن ق.م.، وُصفت بأنّها أعظم المدن الأيونيّة وثرواتها مضرب الأمثال، وعندما ضُمّت إلى الأمبراطوريّة الفارسيّة ازدادت أهميّتها واتّسع نطاق تجارتها، احتلّها الإسكندر المقدوني واستمرّ ازدهارها في العصر الهلّنستي، ثمّ ألحقت بدولة برغاما ١٩٠ ق.م.، احتلّت الصدارة بين مدن ولاية آسية بعد خضوعها لرومة ١٣٣ ق.م.، اشتهرت بعبادة أرطاميس الذي كان له فيها معبد اعتُبر من عجائب الدنيا السبع، بشّرها الرسل بالمسيحيّة، أقام فيها يوحنّا الإنجيليّ ووجّه إليها القدّيس بولس إحدى رسائله وزارها ٥٥ ـ ٥٨، عُقد فيها ثالث مجمع كنسيّ مسكونيّ ٤٣١، اشتهر منها الأسقف المونوفيزيّ يوحنّا الأفسسيّ (حوالي ٥٠٧ ـ ٥٨٦) الذي له "تاريخ القدّيسين الشرقيّين" و"التاريخ الكنسيّ".

٢ ـ إزمير: مدينة في غرب تركيا وميناء على خليج إزمير في بحر إيجه، كانت مستعمرة إغريقيّة تُعرف باسم سميرنا، المقول إنّها مسقط رأس الشاعر هوميروس، أعاد بناءها أنتيجونوس الأوّل في القرن الرابع ق.م.، أضحت من أكبر وأغنى مدن آسية الصغرى تحت حكم الرومان والبيزنطيّين، كانت مركزًا مسيحيًا منذ بداية المسيحيّة ونشأت فيها إحدى كنائس آسية السبع (الرؤيا ٢ ـ ٨)، خرّبها تيمورلنك ١٤٠٢، استولى عليها الأتراك العثمانيّون ١٤٢٤، احتلّتها القوات اليونانيّة ١٩١٩ وجعلت منطقتها تحت الإدارة اليونانيّة بمقتضى معاهدة سيفر ١٩٢٠ ثمّ ألغت معاهدة لوزان هذا الإجراء ١٩٢٣ عقب انتصار الوطنيّين الأتراك بقيادة كمال أتاتورك على اليونانيّين وطردهم من آسية الصغرى في حملة ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ وجرى تبادل بين سكّان إزمير اليونانيّين والأقلّيّات التركيّة في اليونان فصارت أغلبيّة السكّان من الأتراك، تعرّضت لزلازل عنيفة ١٩٢٨ و١٩٣٩، صارت مدينة حديثة ١٩٧٠، فيها متاحف ومقرّ جامعة.

٣ ـ آسية الصغرى: شبه جزيرة بأقصى غرب آسية، تُسمّى أيضًا بالأناضول، يحدّها البحر الأسود شمالاً، والبحر المتوسّط جنوبًا، وبحر إيجه غربًا، ويصل البحر الأسود ببحر إيجه بحر مرمرة ومضيقا البوسفور والدردنيل، ويقرب الساحل الجنوبيّ لآسية الصغرى تمتدّ جبال طوروس، ويتألّف باقي شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال وتكثر بها البحيرات، كانت آسية الصغرى ملتقى الحضارتَين الشرقيّة والغربيّة في العصور القديمة إذ يربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان، ظهرت المستعمرات اليونانيّة على سواحلها بعد تدهور الحيثيّين (الحثّيّين) وبذلك اتّصل اليونانيّون بكلّ من ليديا وفيريجيا وطروادة، وأدّى غزو الفرس لآسيا الصغرى إلى الحروب الفارسيّة، أدمج الإسكندر الأكبر الإقليم في أمبراطوريّته وبعد وفاته قُسّم إلى

ومقدونية[1] وبلاد اليونان وإيطالية. وانتشر الإيمان بالسيّد المخلّص في هذه الحقبة في ما وراء الفرات، بفضل كرازة توما وتلميذه أديّ أو ثديّ THADDAION، وهو أحد السبعين، وإليه يُنسب تأسيس كنيسة الرها وغيرها من الكنائس في العراق وجوارها[2].

لم يكن المجتمع الأورشليميّ المسيحيّ الأوّل حاسمًا بالنسبة لبعض الآراء اليهوديّة المتطرّفة الصادرة عن بعض مَن اتّبعوا المسيحيّة من اليهود، فراح هؤلاء يعارضون

ولايات صغيرة، وحّدها الرومان من جديد ولكنّها كانت موضع هجوم شبه مستمرّ من قِبَل الغزاة في ظلّ الأمبراطوريّة البيزنطيّة، سقطت بيد العرب والأتراك السلاجقة، استعادها الغرب موقّتًا على أيدي الصليبيّين، استولى عليها الأتراك العثمانيّون بين القرنَين الثالث عشر والخامس عشر، دخلت بعد ذلك ضمن الأمبراطوريّة العثمانيّة.

١ - مَقْدونيَة أو مكدونيا: بلاد في شبه جزيرة البلقان، تمتدّ شمالاً من بحر إيجه بين إيبيروس وتراقيا، نشأت فيها دولة مقدونيّة في القرن السادس ق.م. كانت متخلّفة عن المدن اليونانيّة في نظمها وحضارتها، سيطرت على العالم اليونانيّ في عهد فيليبس الثاني (٣٥٦ - ٣٣٦ ق.م.) وابنه الاسكندر الكبير (٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م.)، مقاطعة رومانيّة ١٦٨ ق.م.، خضعت في القرون الوسطى للأباطرة البيزنطيّين وكان حكمهم لها مضطربًا إذ كانت باستمرار فريسة للغزاة خاصّة البلغار، فتحها ستيفن دوشان ملك صربيا في القرن الرابع عشر وبعد موته احتلها الأتراك ١٣٧١، أصبحت رقعة تسودها الديانات والقوميات من المسيحيّين والمسلمين واليهود والصرب والبلغار واليونانيّين، وحينما أخذت الأمبراطوريّة العثمانيّة تتفكّك في القرن التاسع عشر ادّعى كلّ من اليونان وصربيا وبلغاريا حقّه في تملّكها، أعطت معاهدة "سان ستفانو" الجانب الأكبر الذي يدخل فيه الساحل إلى بلغاريا، أعاد مؤتمر برلين الحكم التركيّ المباشر إليها ١٨٧٨، تألّفت منظمات سرّيّة مقاومة للعمل على تحرير مقدونيا من نير الترك ونالت تأييد بلغاريا التي ظفرت بنصيب كبير من مقدونيا في حرب البلقان الأولى ١٩١٢ - ١٩١٣، ولمّا هزم اليونان والصرب بلغاريا في حرب البلقان الثانية ١٩١٣ حصلتا من مقدونيا ما يدخل منها في الحدود الحاليّة لكلّ منهما تقريبًا، تقاسمها بعد الحرب العالميّة الأولى كلّ من بلغاريا ويوغوسلافيا واليونان، نتج عن تبادل السكان بعد ١٩٢٣ إحلال اللاجئين اليونان الذين نزحوا عن آسية الصغرى مكان معظم العناصر البلغاريّة والتركيّة في مقدونيا اليونانيّة، استمرّت بلغاريا تطالب بنصيب أكبر في مقدونيا ووقعت أحداث على الحدود تخلّلها اتّهامات متبادلة بانتهاك حقوق الأقليات، وقعت مقدونيا في الحرب العالميّة الثانية بقبضة البلغار مدة قصيرة (١٩٤١ - ١٩٤٤) وبعد هزيمة ألمانيا أعيد تأسيس جمهوريّة يوغوسلافيا، في ١٩٤٦ أصبحت مقدونيا جمهوريّة يوغوسلافيّة تتمتّع بالحكم الذاتيّ وأعادت معاهدة الصلح ١٩٤٧ الحدود السابقة لها، في ١٩٩٢ أعلنت مقدونيا اليوغوسلافيّة استقلالها، يحدّها صربيا من الشمال، ألبانيا من الغرب، اليونان من الجنوب، وبلغاريا من الشرق، عاصمتها سكوبلي، ومن أهم مدنها بيتولا وبريلب، أكثريّة سكّانها مسيحيّون أرثذوكس وفيها أقلّيّة من المسلمين في الغرب.

٢ - EUSEBIUS, *HISTORIA*, I, 13. III, ١; ORMANIAN, PATRIARCH MALAKHIA, *THE CHURCH OF ARMENIA*, P. 3.

أعمال التبشير التي كان يقوم بها بولس ورفاقه بين الوثنيّين. وبلغت معارضتهم حدّ الحرب العقائديّة، إذ راحوا يتتبّعون بولس في آسية الصغرى وبلاد اليونان داعين المسيحيّين من أصل يهوديّ إلى الانتفاض على بولس، والذين من أصل وثنيّ إلى وجوب الاختتان وحفظ السبت وسوى ذلك من فرائض العهد القديم. ويبدو أنّ أمر هؤلاء قد استشرى بشكل خطير، ما أوجب على بولس إرسال رسائله إلى كنائس المنطقة، ساعيًا إلى تحرير المسيحيّة من تلك الاعتبارات اليهوديّة الأصوليّة. فقد اعتبر غلاة "النصارى" ـ أي أولئك اليهود المتنصّرون من بني إسرائيل، بولس مرتدًّا، وكفّروه، ما جعل بولس يعتبر أولئك النصارى في رسائله: "الإخوة الكاذبين". وفي رسائله الكلاميّة إلى الغلاطيّين[1] وإلى الكورنثيّين[2] وإلى الرومانيّين، يتصدّى بولس "للنصرانيّة" المحافِظة التي تريد إقامة التوراة والختان مع الإنجيل والعماد، ولسان حاله أنّ "الخلاص والتبرير بالإيمان بالمسيح وبالإنجيل، لا بأعمال الشريعة"، فقد نسخ المسيح الشريعة بصليبه. وقد جاء في رسالته إلى الغلاطيّين: "الإنسان لا يبرّر بأعمال الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح، إذ ما من إنسان يبرّر بأعمال الشريعة"[3].

---

١ ـ نسبة إلى غلاطيّة: إسم أُطلق قديمًا على بلاد في شمال تركيا الأسيويّة، قاعدتها أنقرة، سادها الرومان ٢٥ ق.م.، وجّه بولس رسالته إلى أهلها نحو سنة ٥٠.

٢ ـ نسبة إلى كورنثوس أو كورنتس KORINTHOS: مدينة قديمة ومرفأ في جنوب اليونان على خليج كورنتس، نافست أثينا واسبارطة، اشتهرت بغناها، وجّه إليها بولس رسالتَين: الأولى سنة ٥٥ وهي من أطول وأهم الرسائل البولسيّة تشتمل على عدة نواح ممّا ينبغي أن تكون عليه الحياة المسيحيّة وتتضمّن نصائح ضدّ التحزيبّة وسفاح القربى والخصومات والشهوانيّة وتجيب على عدّة أسئلة خاصّة بالزواج والعزوبيّة وتحوي عدّة نصوص مهمّة جدًا مثل تناول القربان المقدّس (١١: ١٧ ـ ٣٤) ومدح قوى المحبّة (١٣)، والرسالة الثانية أقصر كُتبت بعد الأولى بسنة تحوي دفاع بولس عن رسالته مستندًا إلى مؤهّلاته وأعماله. وكورنثوس اليوم مدينة بقرب القديمة التي أضحت قرية صغيرة، وهي في شمال شرق اليونان في إقليم البيلوبونيسيس وهي ميناء على خليج يحمل اسمها، أعيد بناؤها ١٨٥٨ بعدما دمّرتها الزلازل وأعيد بناؤها مرّة ثانية ١٩٢٨ بعدما دمّرها زلزال آخر.

٣ ـ رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ٢: ١٦.

ويقول في رسالة أخرى حمل عبرها على "أهل الشر" و"أهل البتر" ـ أي الختان: "في كلّ شيء لا أرى سوى أقذار... حتّى أربح المسيح وأجدني فيه، لا على بِرّي الذي من الشريعة، بل على البرّ الذي بالإيمان بالمسيح؛ البرّ الذي من اللّه، القائم على الإيمان"[١].

ويقول بولس للكورنثيّين، في ردّ عنيف ضدّ "النصارى" من بني إسرائيل الذين طعنوا في سيرته وفي دعوته وفي رسوليّته، متستّرين خلف بطرس، ومعتمدين على أسلوب الحكمة في تقديم معتقدهم: "لو جاءكم أحد يدعو بيسوع آخر لم ندعُ به، أو نلتم روحًا آخر غير الذي نلتموه، أو بشارة غير التي قبلتموها، لاحتملتموه أحسن احتمال، ولكنّي أحسب أنّي لست أقلّ شأنًا من أولئك الرسل الأكابر"[٢] ... "إنّ هؤلاء القوم رسلٌ كذّابون وعملة مخادعون يتزيّون بزيّ رسل المسيح. ولا عجب فالشيطان نفسه يتزيّا بزيّ ملاك النور، فليس بالغريب أن يتزيّا خدمه بزيّ خدم البرّ. ولكنّ عاقبتهم تكون على قدر أعمالهم"[٣].

وفي رسائل أخرى لبولس إلى أهل رومة مواقف مماثلة، وأخرى تحذّر من الشقاق الذي يحاول هؤلاء "النصارى" من اليهود أن يثيروه بين المسيحيّين، ويدعو إلى الابتعاد عنهم، "فإنّ أمثال أولئك لا يعملون للمسيح ربّنا، بل لبطونهم، ويضلّلون القلوب بمعسول كلامهم وتملّقهم"[٤].

---

١ ـ الرسالة إلى أهل فيليبّي، ٣: ٨ ـ ٩.

٢ ـ الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس، ١١: ٤ ـ ٥.

٣ ـ الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس، ١١: ١٣ ـ ١٥.

٤ ـ الرسالة إلى أهل رومة، ١٦: ١٧ ـ ١٨.

لم تكن "النصرانيّة" البدعة الوحيدة التي عرّضت الرسالة المسيحيّة في بداية عهدها للانقسامات، بل ظهر العديد من البدع والهرطقات، أهمّها الغنوسيّة[1]، التي قالت بإله واحد لا يدرك "صدرت عنه أرواح هي الأيونات والأراكنة. وقد صدرت هذه أزواجًا ذكرًا وأنثى، وراحت تتضاءل في الألوهيّة كلّما ابتعدت عن مصدرها الإله الأعلى. وعندما أراد أحد الأراكنة أن يرتفع إلى مقام الإله الأعلى، طُرد من العالم المعقول... فصدرت عن هذا الأركون الخاطئ أرواح شرّيرة مثله، وصدر العالم المحسوس الذي لم يكن ليوجَد لولا الخطيئة. وبذلك يكون هذا العالم عالم شرّ ونقص بصانعه وبالمادّة المصنوع منها". وقالوا بأنّ "هذا الأركون الخاطئ حبس النفوس البشريّة في أجسامها فكوّن الإنسان، وإنّ هذه النفوس تتوق إلى الخلاص، وإنّ الناجين قليلون لأنّ الناس ثلاث طوائف متمايزة هي: طائفة تشمل الروحيّين الذين هم من أصل إلهيّ وهم الغنوسيّون صفوة البشر، وطائفة ثانية تتألّف من المادّيّين الذين لا يمكنهم أن يصعدوا فوق العالم السفليّ، وثالثة تجمع الحيوانيّين الذين قُدِّر لهم الارتفاع والسقوط: النجاة والهلاك". وقد اختلفوا في طريقة النجاة، فمنهم مَن قال بقهر الجسد، ومنهم مَن قال بإطلاق العنان للشهوة"[2].

ومن أصحاب البدع والهرطقات في بداية عهد المسيحيّة، "سيمون الساحر" الذي جاء ذكره في أعمال الرسل، وهو كان يدهش الناس في نواحي السامرة من خلال أعمال السحر، فكانوا "يصغون إليه... ويقولون: هذا هو قدرة اللّه التي يُقال لها القدرة العظيمة"[3]. ذلك أنّهم كانوا يرون فيه انبثاقًا مباشرًا لقدرة اللّه نفسها.

---

١ ـ الغنوسيّة أو الغنوصيّة: من اليونانيّة: GNOSIS أي المعرفة والحكمة، سيأتي التعريف بها مفصّلاً.

٢ ـ كرم يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانيّة، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

٣ ـ أعمال الرسل، ٨: ١٠.

في تلك الأثناء، كان فيلبّس، أحد السبعة، قد نزل في السامرة، وراح يبشّر أهلها بالمسيح. وقد لاقت دعوة فيلبّس إقبالاً شديدًا، وراح الناس يعتمدون رجالاً ونساء، كذلك فعل سيمون نفسه الذي لزم فيلبّس بعد أن اعتمد. ولمّا سمع الرسل في أورشليم أنّ السامرة قبلت كلمة اللّه، أرسلوا إليها بطرس ويوحنّا. وهنا يبدو واضحًا أنّ سيمون الساحر لم يكن قد تخلّى عن طموحاته، ذلك أنّه عندما "رأى أنّ الروح القدس يوهَب بوضع أيدي الرسولَين ـ على الناس ـ عرض عليهما شيئًا من المال وقال لهما: "ـ أعطياني أنا أيضًا هذا السلطان لكي ينال الروح القدس مَن أضع عليه يديّ ـ قال له بطرس: ـ تبًّا لك ولمالك، لأنّك ظننت أنّه يمكن الحصول على هبة اللّه بالمال. فلا حظّ لك بهذا الأمر ولا نصيب، لأنّ قلبك غير مستقيم عند اللّه. فاندم على سيّئتك هذه، واسأل الربّ لعلّه يغفر لك ما قصدت في قلبك. فإنّي أراك في مرارة العلقم وشرك الإثم ـ. فأجاب سيمون: ـ إشفعا لي أنتما عند الربّ لئلاّ يصيبني شيء ممّا ذكرتما"[١].

ويذكر بعض كتب الـ "أبوقريفة" غير المعترف بصحّتها من قِبَل الكنيسة، أنّ سيمون الساحر قد انتقل بعد ذلك إلى روما حيث عظم شأنه. ولكنّ جوستينيان القدّيس[٢]، يؤكّد على أنّ أتباع سيمون في السامرة كانوا كثرًا، وأنّهم اعتبروه الإله الأعلى، وأشركوا معه ENNOIA ـ الفكر، الذي انبثق عنه، فتجسّد في امرأة اسمها هيلانة، وهي الزانية الصوريّة امرأة MENELAUS.[٣] وقد قال سيمون إنّ الإله الأعلى أظهر نفسه

---

١ ـ راجع أعمال الرسل، ٨: ١٤ ـ ٢٤.

٢ ـ جوستينيان أو يوستينُس JUSTINUS القدّيس (نحو ١١٠ ـ ١٦٣): كاتب مسيحيّ وفيلسوف، وُلد في نابلس فلسطين واستُشهد في روما، درس المذاهب الفلسفيّة طلبًا للحقيقة فلم يقتنع، اهتدى إلى المسيحيّة وأسّس مدرسة لاهوتيّة فلسفيّة في روما، له دفاعان عن الدين المسيحيّ.

٣ ـ ST. JUSTINUS, APOL., I, 26, 56: DIAL., 120

بصفة الإبن بيسوع بين اليهود، وبصفة الآب بين السامريّين في شخصه هو، أي في شخص سيمون، وفي بلاد أخرى بصفة الروح القدس[1].

ومن الذين ادّعوا الألوهيّة أيضًا لأنفسهم في تلك الحقبة مستغلّين البشارة المسيحيّة، وعلّموا بما يشبه ما علّم به سيمون الساحر، ساتورنينوس SATURNINUS في أنطاكية بين نهاية القرن الأوّل وبداية القرن الثاني، الذي تمكّن من استيعاب أتباع كثر، وقد قال بإله واحد آب خلق القوى والملائكة ورؤسائهم، وبأنّ سبعة من هؤلاء الملائكة كوّنوا العالم المنظور، وقد قُدّر لهم أن يرمقوا الإله الأعلى بالرؤيا، فخلقوا الإنسان على صورة هذا الإله، ولكنّهم جعلوه يزحف زحفًا، فشمله الإله الأعلى بعطفه وحنانه لأنّه كان على مثاله، فأمر أن ينتصب فيمشي على قدمَيه. وقد جعل ساتورنينوس إله اليهود أحد هؤلاء الملائكة، وجعل الباقين مصدر وحي الأنبياء، وأشرك الشيطان في هذا الوحي في بعض الأحيان. وجعل الملائكة السبعة في نزاع مستمرّ مع الإله الأعلى، كما جعل هذا الإله يُصدر عن نفسه مخلّصًا ليقضي على هؤلاء الملائكة ويخلّص الإنسان. إلاّ أنّه اعتبر أنّ ذلك المخلّص لم يولد ولادة بشريّة ولم يكن له جسم إنسان[2].

ومن أصحاب البدع أيضًا عصرذاك، ميناندروس الكبارتي MENANDROS CAPPACATEA وذوسيثيس DOSITHEUS وكليوبيوس CLEOBIUS، الذين ادّعى كلّ منهم الألوهيّة. وهنالك كيرنثوس CERINTHOS اليهوديّ المصريّ الذي جاء أورشليم في أيّام الرسل، ومنها انتقل إلى قيصريّة فلسطين ثمّ إلى أنطاكية حيث راح يعلّم بوجوب حفظ

---

١ - ST. IRENAEUS, HEAR., I, 23.

٢ - EUSEBIUS, HIST. ECC., IV, 22; ST. IRENAEUS, I, 23 - 24; وراجع أيضًا: رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ج١، ص ٢٩ ـ ٣٠.

السبت والاختتان وغير ذلك من فروض الناموس، مدّعيًا بأنّ السيّد المسيح هو ابن يوسف ومريم، وبأنّ ملاكًا من الملائكة خلق الكون، وآخر أعطى الشرائع والناموس، وهذا الأخير هو اللّه إله اليهود، وأنّ شيئًا من الروح القدس المنبثق من الإله حلّ على يسوع عند اعتماده في الأردنّ فرافقه حتّى الصلب[١]. وقد نفى قيامة السيّد المسيح وأرجأها حتّى قيامة "جميع الأتقياء"[٢].

وظهر الأبيونيّون[٣] EBIONAIOI الذين تفرّعوا عن كنيسة أورشليم، وتفرّقوا معلّمين أنّ المخلّص هو ابن يوسف، وأنّ بولس مرتدّ عن الدين القويم، متمسّكين بالناموس، وكانوا يجعلون في صلواتهم أورشليم قبلة لهم.

كذلك ظهر الدوكينيّون الذين قالوا بأنّ يسوع المسيح لم يولَد من لحم ودم، ولم يكن له جسد، ولم يتألّم، ولكن شُبِّه لهم[٤].

ويبدو أنّ الأنتيمونيّة قد بدأت بالظهور في ذلك العهد أيضًا، وهي القائلة بأنّ مَن يؤمن لا يخطئ، وبالتالي فلا يربطه ناموس[٥]. كذلك ظهر النيقولاويّون "الذين يتمسّكون بتعليم بلعام[٦]، الذي علّم "بالاق" أن يلقي معثرة بني إسرائيل حتّى يأكلوا من ذبائح

---

١ - ST. IRENAEUS, HAER., I, 26

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، ج ١، ص ٣٠ - ٣١.

٣ - يختلف الباحثون في أصل التسمية، فينسبه بعضهم إلى أبيون EBION على أنّه المؤسّس، ويقول آخرون بأنّه مشتقّ من "أبيونيم" العبريّة، ومعناها الفقراء، وبأنّه مأخوذ من الآية: "طوبى لكم أيّها المساكين، فإنّ لكم ملكوت اللّه" لوقا، ٦: ٢٠؛ متّى، ٥: ٣.

٤ - من هذه الفكرة اتّخذ الدوكينيّون اسمهم، واللفظ DOKEIN يونانيّ، معناه لاح وبدا.

٥ - ANTINONISME: راجع: GOGUEL M., *NAISSANCE DU CHRISTIANISME*, 445

٦ - بلعام: عرّاف أرسله ملك مؤاب ليلعن إسرائيل لكنّ حمارته تحوّلت عن سيرها ووبّخته فبارك ولم يلعن.

الأوثـان ويزنـوا"[1]. وفيمـا يذهـب البعض إلـى أنّ النيقولاويّين هـم شـيعة نيقـولاوس الأنطاكيّ أحد الشمامسة السبعة الذيـن رسـمهم الرسـل، وأنّ نيقـولاوس هـذا ضـلّ فـي الإيمان وخرج عن الكنيسة، يعتبر آخرون بأنّ هذا القول ضعيف لأنّ مراجع أصحابه متأخّرة ونصوصها مبهمة غامضــة، ويخلصـون إلـى الاعـتراف بعدم معرفـة مَن هـم هؤلاء بالضبط[2].

---

١ - رؤيا يوحنّا، ٢: ١٤؛ ١٨: ٢٦.

٢ – رستم، كنيسة مدينة الله، ج ١، ص ٣٥؛ راجع: GOGUEL M., *LES NICOLAÏTES*, REU. DE L'HISTOIRE DES RELIGIONS, 1937, 5 - 36

التَّنظِيمُ الكَنَسِي الأوَّل

وسط هذا السيل من البدع والهرطقات[1]، كان على الرسل أن يجتهدوا في حفظ الإيمان القويم، رغم الاضطهاد الفظيع الذي كانوا يتعرّضون له، وراح المهتدون ينضمّون إلى جماعات، ما لبث سفر أعمال الرسل أن سمّاها كنائس، لم يحُل عددها الكثير دون سيرها على طريقة واحدة، فصارت في ما بعد كلمة "كنيسة[2]" تدلّ على مجموعة الكنائس.

وكان من الطبيعيّ أن تبرز داخل الكنائس جماعات من المؤمنين تقوم بأعمال خاصّة، وكان هذا في البداية شأن الرسل الإثني عشر، وعلى رأسهم بطرس، وكان لهم في أورشليم وخارجها منزلة فريدة، وقد تجاوز دورهم رسالتهم الأساسيّة، وهي أن يكونوا شهودًا وخدّامًا للكلمة، فإنّ وجودهم في أورشليم قد مكّن الجماعة الأولى (كنيسة أورشليم) من أن تكون مركزًا منظّمًا، فالرسل هم الذين أقاموا الشمامسة[3]

---

١ ـ **الهَرْطَقَة**: عند المسيحيّين: البدعة في الدين، وهي من أصل يونانيّ، النسبة إليها هرطوقيّ، ويبنون منها فعلاً فيقولون "هرطقه فهَرطَقَ وتهَرطَقَ" أي صار هرطوقيًا.

٢ ـ **الكَنيسة**: معرّبة عن كْنُوشتا الآراميّة ومعناها الآراميّ الحرفيّ "المجمع والجماعة"، صارت تعني عند المسيحيّين "محلّ العبادة" وتُطلق أيضًا على "جماعة المؤمنين"، وقد تعدّدت الكنائس بحسب المذاهب في ما بعد، فأصبح لكلّ مذهب كنيسته من حيث الإكليروس والطقس وجماعة المؤمنين...

٣ ـ **الشَمّاس**: جمعها شمامسة، رتبة إكليروسيّة هي دون القسّيس، والكلمة من السريانيّة ومعناها الأصليّ الخادم، ومنه الشمّاس الإنجيليّ، وفي القرون الوسطى أصبح بعض الكنائس الشرقيّة يمنح لقب شمّاس إلى بعض العلمانيّين شرفًا.

السبعة، بعد أن طغت عليهم الأعباء، فأرادوا أن يحفظوا أهمّها. ومن جهة أخرى، فـإنّ يسوع نفسه قد عهد إلى بولس برسالة، إنْ لم تكن على قدر رسالة الرسل، فقد كـانت مع ذلك أساسيّة، فجعلت منه مؤسّسًا ومسؤولاً عن كنائس.

أمّا الأنبياء فشأنهم يختلـف كـلّ الاختـلاف عـن الرسـل، إذ ليس النـاس هـم الذيـن "يقيمونهم" إنّما الروح هو الذي يلهمهم، ويقومون بعمل مهمّ في حياة الكنائس.

أمّا الشيوخ الذين يرد ذكرهـم فـي مدوّنـات تلـك الحقبـة، خاصـّة فـي سفر أعمـال الرسل، فهم الذين أقامهم بولس للاضطّلاع بأعباء الكنائس في غيابه[1]، وهكذا يُفترض بشيوخ أورشليم الذين كانوا حول يعقوب[2].

بذلك يتّضح أنّه كان للكنيسة (والكنائس) في القرن الأوّل شـبه بنيـة، أصبحت فـي كنيسة أنطاكية تشمل، إضافة إلى الرسل، الأنبياء والمعلّمين، والأساقفة[3]، والشيوخ، ثـمّ الشمامسـة، ولا يعنـي هـذا أنّ "الأخـوة" العـاديّين لـم يكـن لهـم أيّ عمـل، سـواء كـانوا أصحاب رتب أم لا، فقد كانوا يشاركون في اختيارات هامّة، ونرى على سـبيل المثـال مجمع أورشليم يُختتم بقرار من الروح القدس، بإجماع من الكنيسة كلّها[4].

---

١ ـ راجع: الكتاب المقدّس، العهد الجديد، طبعة دار المشرق (بيروت،١٩٩١) ص ٣٧٠؛ وراجع: أعمال الرسـل، ١:٢؛ ١:٣١؛ ٢:١٤؛ ٣:٥؛ ٥:٢٩؛ ٩:٣٢؛ ٧:١٥؛ ٤: ٣٣ ـ ٣٧؛ ٥: ١٢؛ ٥: ١٨؛ ٥: ٤٠؛ ٩: ٢٧؛ ٨: ١٤؛ ٩: ٣٢؛ ١١: ١٠؛ ١١: ٢٧ ـ ٣٠؛ ١٥: ٢؛ ١٣: ٣٦؛ ٢٠: ٣١؛ ١٨: ١١؛ ٣٠: ٢١؛ ١٨: ١٢؛ ١٧: ١٥؛ ١٣.

٢ ـ المقصود يعقوب الرسول إبن حلفا المعروف بيعقوب الصغير، رئيس كنيسة أورشليم، تُعزى إليه رسالة يعقوب، استُشهد رجمًا ٦٢.

٣ ـ الأسقف، لفظ يونانيّ مركّب EPISCOPOS معناه الرقيب أو الناظر، وهو مركّب من EPI أي على، وSKOPEIN أي لاحظ وراقـب. ويتّضح من بعض النصوص أنّ الأسقف إن هو إلاّ الشيخ، أي أنّ الأسقف والشيخ كانا اسمَين لمسمّى واحـد علـى الصـعيد الكنسـيّ في ذلك العهد.

٤ ـ أعمال الرسل، ١٥: ٢٢ ـ ٢٣ و ٢٨.

إِنْتِشَارُ المَسِيحِيَّة

يبقى سفر أعمال الرسل، المرجع الأوثق لتطوّر الانتشار المسيحيّ في بداية عهد المسيحيّة، رغم أنّ هذا السفر "من جهة كونه وثيقة تاريخيّة، قد أغفل بعض الأمور، فهو لا يقول شيئًا، على سبيل المثال، في إنشاء كنائس كثيرة"[1]. بيد أنّ مراجعة هذا السفر، بالإضافة إلى رسائل بولس، إن حصلت بدقّة، من شأنها أن تكوّن تصوّرًا عامًّا عن ذلك الانتشار الذي اتّسع على يد بولس وغيره من الدعاة الأوائل للدين المسيحيّ، الذين كانوا ينطلقون من أنطاكية في أعمالهم التبشيريّة ثمّ يعودون إليها لرفع التقارير عن أعمالهم. وسبق أن ذكرنا أنّ أنطاكية، بعد أن دمّر الرومان منافستها أورشليم في ٧٠م.، أصبحت العاصمة الوحيدة للعالم المسيحيّ، وتمتّعت لبعض الوقت بمقدار معيّن من السلطة على الأبرشيّات[2]، المجاورة على الأقلّ[3].

يفيدنا سفر أعمال الرسل أنّ بولس وبرنابا انطلقا أوّلاً إلى سلوقية[4]، ثمّ أبحرا منها إلى قبرص حيث أخذا يبشّران في مجامع اليهود، ويبدو أنّ عددًا لا بأس به قد اعتنق

---

١ ـ الكتاب المقدّس، العهد الجديد، مرجع سابق، ص ٣٦٧.

٢ ـ الأبرشيّة والأبروشيّة: جمعها الأبرشيّات والأبروشيّات، كلمة من أصل يونانيّ، تعني عند المسيحيّين ما كان من أماكن وأشخاص تحت ولاية أسقف معيّن.

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

٤ ـ سلوقية: إسم أطلقه السلوقيّون على عدّة مدن أسّسوها أو استبدلوه بأسمائها القديمة، والغالب أنّ المقصود هنا هو سلوقية بيريا أو السويديّة في تركيا التي عُرفت أيضًا بسلوقية تراخيا أو سلفاكا؛ أعمال الرسل، ١٣: ٤ ـ ٤٧؛ ٣.

المسيحيّة، ومنهم "الحاكم سرجيوس بولس، الرجل العاقل الذي آمن وقد أُعجب بتعليم الربّ". وفي مرحلة لاحقة تمكّن الرسولان من النجاح أيضًا في إيقونية رغم المصاعب التي لاقياها من قِبَل اليهود، وكذلك نجحا في مدينة دربة، "فعيّنا شيوخًا في كلّ كنيسة أسّساها وصلّيا وصاما، ثمّ استودعوهم الربّ الذي آمنوا به"[١].

وفي الحقبة نفسها نشأت كنائس عديدة على أيدي بولس وبرنابا إضافة إلى تلك التي نشأت على أيدي بطرس الرسول وسيلا في سورية وقيليقية[٢]. وكانت "الكنائس ترسخ في الإيمان ويزداد عددها يومًا بعد يوم"[٣]. في فيليبّي[٤]، وتسالونيقي[٥] وبيرية[٦] وأثينة[٧] التي كانت ميدان اللقاء الأول بين الإنجيل والفكر الوثنيّ، إضافة إلى كنيسة قورنتس[٨] التي كانت شهيرة بعبادة أفروديت[٩]، وكانت سمعة أهاليها سيّئة بسبب تلك العبادة. ومع ذلك فقد تأصّلت فيها المسيحيّة من خلال البيئات الشعبيّة[١٠].

---

١ ـ أعمال الرسل، ١٤: ٢٠ ـ ٢٣.

٢ ـ أعمال الرسل، ١٥: ٤٠ ـ ٤١؛ وراجع أيضًا: ١٤: ٢٤ ـ ٢٥.

٣ ـ أعمال الرسل، ١٦: ٥.

٤ ـ فيليبّي: مستعمرة رومانيّة، كانت عظمى المدن في ولاية مقدونية، وكان قسم من سكّانها جنودًا قدماء للأمبراطور أنطونيوس وفلاّحين إيطاليّين، وكانت إدارة شؤونها رومانيّة؛ راجع: أعمال الرسل، ١٦: ١١ ـ ٢١؛ ١٦: ٣٣ ـ ٤٠.

٥ ـ تسالونيقي: هي "سلانيك" مرفأ في شمالي اليونان (مقدونية)؛ راجع: أعمال الرسل، ١٧: ٢٤.

٦ ـ بيرية: في شمالي اليونان (مقدونية)؛ راجع: أعمال الرسل، ١٧: ١٠ ـ ١٢.

٧ ـ أعمال الرسل، ١٧: ١٦ ـ ٣٤.

٨ ـ قورنتس: مستعمرة رومانيّة أنشأها يوليوس قيصر، كانت عاصمة إقليم أخائية، ومركزًا تجاريًا هامًا، له مرفآن، وكان سكّانها من أجناس مختلفة، إلى جانب عنصر أساسيّ لاتينيّ؛ راجع أعمال الرسل، ١٨: ١ ـ ١٧.

٩ ـ أفروديت APHRODITE: إلهة الجمال والحبّ عند الإغريق، أم إيروس، اشتهرت عبادتها في قورنتس، تقابلها فينوس عند الرومان وعشتروت عند الفينيقيّين.

١٠ ـ راجع: رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس، ١: ٢٦.

وكنيسة أفسس[١]. وكنيسة غلاطية[٢] التي خصّها بولس برسالته الشهيرة، وكذلك كنيسة قولسي[٣] التي أنشأها أبفراس تلميذ بولس، وهو الذي أنشأ أيضًا كنيستَي هيرابولِس[٤] واللاذقيّة[٥] التي ذُكرت "بين الكنائس السبع" من آسية الوارد ذكرها في سفر الرؤيا،[٦] وارتأى بعضهم أنّه لربّما كانت هي التي وُجّهت إليها الرسالة التي يُقال لها الرسالة إلى أهل أفسس[٧].

أمّا في لبنان، فكان "المسيح ذاته أتى... إلى نواحي صور وصيدا[٨]. وبينما كان يتجوّل هناك، أتته امرأة كنعانيّة تضرّعت إليه أن يشفي ابنتها المُصابة بالجنون فشفاها... وهناك على بُعد ميلَين أو أكثر جنوبيّ صيدا كهف قديم، ربّما كان معبدًا

---

١ ـ كانت أفسس من أكبر مراكز العالم اليونانيّ الرومانيّ التجاريّة والدينيّة كما سبق وذكرنا في حاشية سابقة، وفي أفسس أقام بولس سنتَين (الرسل، ١٩: ١٠ وما يليها) وفيها كتب الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس، ويرجّح أنّه كتب فيها أيضًا الرسالة إلى أهل غلاطية، وربّما الرسالة إلى أهل فيليبّي؛ راجع أعمال الرسل، ٢٠: ١؛ ٢٠: ١٨ ـ ٣٥؛ راجع أيضًا: الرسالة إلى أهل أفسس؛ راجع أيضًا: الرؤيا ٢: ١ ـ ٧.

٢ ـ غلاطية: جئنا على ذكرها في حاشية سابقة، وهي إقليم رومانيّ كان يقع بين قبدوقية والبحر الأسود، ويمتدّ إلى جوار أنقرة، وكان سكّانه من أصل كلتي؛ راجع أعمال الرسل، ١٣: ١٤؛ ١٤: ٢٥؛ ١٦: ٦؛ ١٨: ٢٣؛ راجع أيضًا: رسالة بولس إلى أهل غلاطية.

٣ ـ قولسي: بلدة من "فريجية" في آسية الصغرى على بعد ٢٠٠ كلم من أفسس إلى الشرق. راجع: رسالة بولس إلى أهل قولسي.

٤ ـ هيرابولِس: إسم لمدينة يونانيّة يعني مدينة مقدّسة، وهي مدينة قديمة من "فريجية" في آسية الصغرى على مسافة ١٩٣ كلم شمال شرق أزمير، كانت مركزًا لعبادة الآلهة الإغريقيّة ليتو، بسط الرومان رقعتها وأقاموا فيها مسرحًا كبيرًا وحمّامات حول ينابيع المياه الساخنة التي اشتهرت بها والتي لا تزال تنسكب عبر شلالات رائعة تفوق شلالات نياغرا في عرضها وارتفاعها، لا زالت تحتفظ بآثار المباني الرومانيّة.

٥ ـ رسالة بولس إلى أهل قولسي، ٤: ١٣؛ أمّا الكنائس السبع فكانت: أفسس، أزمير، برغامس، تياطيرة، سرديس، اللاذقيّة، وفيلادلفيا

٦ ـ سفر الرؤيا، ١: ١١؛ ٣: ١٤.

٧ ـ راجع: الرسالة إلى أهل قولسي، ٤: ١٦؛ وراجع: العهد الجديد، مرجع سابق، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦.

٨ ـ متّى، ١٥: ٢١ ـ ٢٨؛ مرقس، ٧: ٢٤ ـ ٣١.

لعشتروت، تقوم على أنقاضه كنيسة شُيّدت على اسم سيّدة المنطرة، يصرّ التقليد على أنّ مريم أمّ يسوع أقامت هناك تنتظر قدوم ابنها إلى صيدا. وعلى هذا التقليد سُمّيت الكنيسة بسيّدة المنطرة. وعلى أثر استشهاد إسطفانوس، أوّل شهيد مسيحيّ، تشتّت تلاميذ المسيح للكرازة، وقد اجتازوا فينيقية[١]. هذه الإشارات الواردة في الأناجيل، وفي التقليد، تدلّ على أنّ المسيحيّة دخلت لبنان في عهد الرسل، ووجدت تربة صالحة لها. وكانت صور أوّل مدينة فينيقيّة قامت فيها جالية مسيحيّة. يقول لنا سفر أعمال الرسل إنّ بولس الرسول عندما رجع من بلاد اليونان لزيارة أورشليم، وكانت آخر زيارة له، عرّج على صور فوجد فيها كنيسة تضمّ أعضاء من رجال ونساء وأولاد، وقد أقام بينهم سبعة أيّام، وقد حذّره مسيحيّو صور من الذهاب إلى أورشليم لأنّهم كانوا يوجسون خيفة عليه، فتضرّعوا إليه ليظلّ عندهم. وعندما شيّعوه إلى الشاطئ ليستقلّ السفينة، ركعوا على الرمال وصلّوا من أجله[٢]. ثمّ إنّ بولس الرسول عرّج وهو في طريقه جنوبًا على مدينة عكّة، حيث استقبلته الجالية المسيحيّة[٣]. وعندما قفل راجعًا إلى رومة، عرّج على صيدا، حيث كان هنالك كنيسة وجالية مسيحيّة "ليحصل على عناية منهم" وقد كان ذلك عند منتصف القرن الأوّل ميلاديّ"[٤].

أمّا في مصر، فليس لدينا ما يشير إلى أكثر من نشوء كنيسة في الإسكندريّة، وقد ذكر بعض المراجع "أنّ رئيس الإسكندريّة كان، بادئ الأمر، الأوّل بين أقرانه الشيوخ والأساقفة PRIMUS INTER PARES وكان هؤلاء يقيمون رئيسًا بوضع الأيدي... ولعلّ

---

١ ـ أعمال الرسل، ١١: ١٩.

٢ ـ أعمال الرسل، ٢١: ٤ ـ ٦.

٣ ـ أعمال الرسل، ٢٢: ٢١: ٧.

٤ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

السبب في ذلك أنّ أسقف الإسكندريّة ظلّ الأسقف الأوحد في مصر حتّى أوائل القرن الثالث. فالأسقف ديميتريوس الثالث (١٨٩ ـ ٢٣٢) كان أول مَن سام أساقفة في مصر خارج الإسكندريّة[١].

ويتّضح من الرسائل التي وجّهها خليفة بطرس الثاني إغناطيوس ثيوفوروس[٢] إلى الكنائس ومن جولاته الرعائيّة، أنّ هذه الكنائس كانت قد انتشرت قبل نهاية القرن الأوّل في آسية الصغرى والبلقان[٣] وإيطالية. وقد شملت هذه الرسائل، علاوة على كنائس أفسس ومغنيسية[٤] وترلّة[٥] وروما وفيلدلفيا[٦] وأزمير، كلاً من أنطاكية وطرسوس وفيليبّي وهيرون.

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ٤٤ ـ ٤٥؛ PATROLOGIA GRACCA, VOL. 61, P. 982

٢ ـ اغناطيوس ثيوفوروس أو اغناطيوس الأنطاكي (٦٤ ـ حوالى ١٠٧): قدّيس، تلميذ يوحنّا الرسول وأسقف أنطاكية بعد بطرس، من آباء الكنيسة الرسوليّين، مات شهيدًا في روما، من مؤلّفاته "الرسائل السبع".

٣ ـ البَلقان: منطقة جبليّة في جنوب أوروبا، يحدّها من الشمال جبال البلقان ٢,٣٨٥م. وتضيق في الجنوب بين الأدرياتيك وبحر إيجه ومرمرة، ويحدّها من الشرق البحر الأسود، أهمّ دولها: رومانيا، ألبانيا، بلغاريا، اليونان، يوغوسلافيا، صربيا، الجبل الأسود، بوسنيا، الهرساك، تركية الأوروبيّة، سكّانها مزيج من الشعوب، خضعت للسيطرة التركيّة في نهاية القرن الرابع عشر، ثمّ للسيطرة الروسيّة والنمساويّة في القرن الثامن عشر، حصلت دولها على الاستقلال التام خلال القرنَين التاسع عشر والعشرين.

٤ ـ مغنيسية MAGNÉSIA : مدينة في ليديا (آسية الصغرى) على الهرموس غربي تركيا الأسيويّة، وهي اليوم مدينة مانيسا.

٥ ـ لعلّها ترالس: مدينة قديمة في كاريا غرب آسية الصغرى، يسمّيها الترك إيدين.

٦ ـ فيلَدِلفيَا: الإسم اليونانيّ لعمّان، كانت كنيستها تُعدّ من الكنائس السبع التي شملت: أفسس، أزمير، برغامس، تياطيرة، سرديس، اللاذقيّة، إضافة إلى فيلادلفيا؛ راجع: رؤيا القديس يوحنّا، ١: ١١؛ ٣: ٧؛ CODEX MEDICEUS LAUTENLIANUS. P. 57

الحَياةُ المَسيحِيَّة فِي القَرنِ الأَوَّل

عاش مسيحيّو القرن الأوّل الذين اتّبعوا الرسل وآباء الكنيسة حياة مسيحيّة حقيقيّة، فكانوا "جماعة واحدة، يجعلون كلّ شيء مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلّ منهم، يلازمون الهيكل كلّ يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، يسبّحون اللّه وينالون حظوة، عند الشعب كلّه..."[1]. وقد اهتمّ سفر أعمال الرسل بالإشارة إلى الملامح التي كانت تميّز الجماعة الأولى، من وحدة[2]، وإجماع[3]، ومشاركة[4] ومقاسمة الأملاك والأموال[5].

مارس المسيحيّون في القرن الأوّل سرّ الأفخارستيّا[6]، إذ كانوا ينهضون في يوم الربّ باكرًا في الساعة نفسها التي تغلّب فيها السيّد المسيح على الموت، ويؤمّون الكنيسة للصلاة والتبرّك والشكر والاعتراف بالخطايا وتقديم القرابين. وكانوا يتناولون

---

١ ـ أعمال الرسل، ٢: ٤٤ ـ ٤٧؛ ٤: ٣٢ ـ ٣٥.

٢ ـ أعمال الرسل، ٢: ١.

٣ ـ أعمال الرسل، ٢: ٤٦؛ ٤: ٢٤؛ ٥: ١٢؛ ١٥: ٢٥.

٤ ـ أعمال الرسل، ٢: ٤٢.

٥ ـ أعمال الرسل، ٤: ٣٢ وما بعدها، ٩: ٣٦ وما بعدها.

٦ ـ الأفخارستيّا: هو عند المسيحيّين سرّ القربان المقدّس، والكلمة من اليونانيّة.

في عشيّة الأحد عشاء "الأغبة"[1] مجتمعين حول مائدة واحدة ناظرين في أمورهم المشتركة، ولا سيّما في حاجة المعوزين منهم. فيبدأون حفلتهم بالشكر وينهونها بالشكر وبقبلة المحبّة. والعقيدة تفرض عليهم القول "بإله واحد في أقانيم ثلاثة: الآب والإبن والروح القدس. واللّه هو الآب السماويّ الخالق ذو القدرة والجلال. به كلّ شيء وبدونه لم يكن شيء. له المجد إلى الأبد باسم ربّنا يسوع المسيح. ويسوع المسيح ابن اللّه وربّنا ومخلّصنا. وهو حيّ في كنيسته وسيجيء في يوم الدينونة. والروح القدس هو اللّه مع الآب والإبن وقد نطق بالأنبياء وكنيسة اللّه جامعة مقدّسة"[2].

رغم مسالمة المسيحيّة ومناداتها بالمحبّة التي هي أساس هذه الرسالة الجديدة، ورغمّ أنّ المسيحيّة قد جعلت بالمحبّة الإنسانيّة عائلة واحدة تحت أبوّة واحدة، فإنّ ما تعرّض له المسيحيّون من اضطهاد في القرن الميلاديّ الأوّل، كان من أبشع ما سجّله تاريخ الأمبرطوريّة الرومانيّة بحقّها. وقد "حصل أوّل اضطهاد عنيف في عهد نيرون[3]، بمناسبة حدوث حريق دمّر قلب مدينة روما سنة ٦٤ م. وفسّر الجمهور الناقم هذا الحريق بأنّه حادث آخر من حوادث لهو الأمبراطور الجنونيّ. وعندما ارتاع نيرون من ذلك، حاول أن يلقي التهمة على المسيحيّين في العاصمة. فأمر بإبادتهم

---

١ ـ من اليونانيّة AGAGNÉ: أي المحبّة.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ص ٤٧ ـ ٤٨.

٣ ـ نَيرون كلاوديوس قيصر NERON (٣٧ ـ ٦٨): إبن القنصل دوميتيوس أهنوباربوس وأغريبينا الثانية، بعد زواج أغريبينا من الأمبراطور كلاوديوس الأوّل أقنعته بتبنّي ابنها نيرون، خلف أباه بالتبنّي فأصبح أمبراطور روما ٥٤ ـ ٦٤، اتّبع في البدء نصائح معلّمه الفيلسوف سينيكا ثمّ طغى، قتل أغريبينا أمّه وأوكتافيا امرأته، عليه تُلقى تبعة حريق روما الكبير ٦٤ لكنّه اتّهم المسيحيّين بهذا الحريق وبذلك بدأ اضطهاد الرومان للمسيحيّين، أعاد بناء روما على نمط فخم جميل، اشتهر بفظاظته وبارتكابه سلسلة من أعمال القتل الوحشيّة كان من ضحاياها معلّمه سينيكا إضافة إلى بوبايا، قضى انتحارًا بعد انضمام الحرس الأمبراطوري إلى الثوّار على حكمه، كان يعتقد أنّه شاعر وفنان كبير حتّى قال وهو يحتضر: ما أعظم الفنّان الذي سيخسره العالم بموتي.

جميعًا"[1]. وقد تلت هذا الاضطهاد أعمال عنف متفرّقة ضدّ المسيحيّين في الولايات الرومانيّة[2]. وبعد استشهاد بولس بالسيف في روما حوالى سنة ٦٧ وفق القانون الذي أصدره نيرون[3]، إستُشهد بطرس بالصلب في روما أيضًا في حوالى الوقت نفسه، كما قُتل عدد كبير من المسيحيّين.

لقد كان لامتناع مسيحيّي القرن الأوّل عن الاشتراك في الاحتفالات الدينيّة والرسميّة الرومانيّة، ولجهدهم المستمر في كسب الأتباع عن طريق التبشير، ردّة فعل عنيفة عند السلطة الرومانيّة التي أثارت الشكوك حول عزلة المسيحيّين عن بقيّة الجماعات، وهكذا أصبحوا " كبشًا مناسبًا للفداء بالنسبة للرعاع كلّما حلّ بالمدينة أو بالسكّان حادث مشؤوم. وكثيرًا ما كان الحكّام المحليّون يفرضون العقوبات على رعاياهم المسيحيّين لعضويّتهم في ما اعتبروه جمعيّات سريّة"[4]، فاستمرّ الاضطهاد.

بعد استشهاد بطرس، خلفه "أفوذيوس" الذي لم تحفظ المدوّنات عنه الشيء الكثير. إلاّ أنّ التقليد يفيد بأنّ الخليفة الأول لبطرس قد استُشهد هو الآخر في عهد نيرون. ثمّ خلف بطرس بعد أفوذيوس إغناطيوس ثيفوريوس (٦٤ ـ ١٠٧) الذي في عهده قضى تيطس[5] على ثورة اليهود في فلسطين، مدمّرًا الهيكل في أورشليم في السنة ٧٠، وقد خُيّل للرومان أنّهم بذلك قضوا على اليهود والمسيحيّين معًا، وكان الرومان، حتّى

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧؛ TACITUS, *ANNALES*, BK. XV, CH. 44.

٢ ـ راجع: رسالة بطرس الأولى، ٤: ١٣ ـ ١٩.

٣ ـ رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس، ٤: ٦ ـ ٨.

٤ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٧.

٥ ـ **تيطُس** TITUS (٣٩ ـ ٨١): أمبراطور رومانيّ ٧٩ ـ ٨١، حاصر أورشليم بعهد والده فسبيانس ودمّرها ٧٠، اشتهر بحلمه وإحسانه، على أيّامه ثار بركان الفيزوف ٧٩ فدفن في ليلة واحدة مدينتَي هرقولانم وبومباي.

ذلك الحين، لا يزالون يخلطون بين الديانتَين في كثير من الأحيان. وحدث الاضطهاد العنيف سنة ٩٥، في عهد الأمبراطور دوميتيانس أخي تيطس وخليفته (٨١ ـ ٩٦)، فقد جاء ليجبي ضريبة الهيكل من اليهود، ما أدّى إلى التفتيش الدقيق عن المسيحيّين وتدوين أسمائهم وإكراههم على دفع ضريبة الهيكل وإرسالها إلى صندوق جوبيتير في روما. وفي سنة ٩٩ طبّق الأمبرطور الرومانيّ ترايانس القانون الذي كان قد أصدره سلفه نيرون، والذي اعتبر أنّ التديّن بالدين المسيحيّ هو خروج على القانون، وأنّه ليس على السلطات أن تفتش عن المسيحيّين فإنّ مَن يُعلن من هؤلاء أنّه ليس مسيحيًّا يُعتبر بريئًا ومَن يصرّ على مسيحيّته يُدان ويُعدم[١]. فاستُشهد في السنة ١٠٠ في روما أسقفها الثالث بعد بطرس: إقليموس[٢]. وفي بعلبك، استُشهدت أفذوكية البتول بقطع رأسها بعدما امتُحنت بأنواع كثيرة من العذاب، وقد تقبّلت حكم الإعدام بفرح عظيم[٣]. وذكر مؤرّخون كنسيّون أن من بين شهداء القرن الأوّل كاهن الأصنام السابق في منطقة الفرات الوسطى الذي كان قد اعتنق المسيحيّة على يد أسقف الرها[٤]، برصوم[٥]، هو وأخته ببية، فقد استُشهد منشورًا بالمنشار بأمر من الحاكم الرومانيّ لوكيانوس، الذي قتل ببية أيضًا بسبب مسيحيّتها[٦].

---

١ ـ راجع: CALLEWAERT C. DANS REVUE HISTORIQUE ECCLESIASTIQUE, 1901, PP. 771- 797; 1902, PP. 5- 15 , 324 - 348, 607 - 615.

٢ ـ إقليموس أو كليمَنس أو كليمنضُس الأوّل، أسقف روما أو البابا الرابع ٩٠ ـ ١٠٠ بعد بطرس ولينُس وأناكليتُس.

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، ١: ٥٥، عن أخبار القديسين: أوّل آذار.

٤ ـ الرُها: مدينة قديمة من مدن ما بين النهرين، اشتهرت بمدرستها المسيحيّة، سيأتي الكلام عليها مفصّلاً.

٥ ـ برصوم: من أوائل أساقفة الرها قبل سقوطها بأيدي النساطرة، وهو غير الكاتب السريانيّ بَرصَوم أو بَرصَوما (نحو ٤٢٠ ـ ٤٩٥) الذي اتّبع النسطوريّة وصار أسقف نصيبين ٤٥٠ فنقل إليها مدرسة الرها، وعمل على إقرار الكنيسة النسطوريّة في بلاد فارس.

٦ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، ١: ٥٥، عن LE QUIEN, O.C. III. 32.

وهكذا، فعند نهاية القرن الميلاديّ الأول، كان المسيحيّون في منطقة الشرق مهد المسيحيّة، كما في روما، عرضة للاضطهادات المريرة. وكانت كنيسة أنطاكية بقيادة إغناطيوس ثيوفوروس، الذي استُشهد هو الآخر بعد أعوام قليلة في روما مثلما استُشهد قبله بطرس وبولس، ومثلما صُلب قبلهما السيّد المسيح، لتكمل المسيحيّة طريقها منتصرة على الموت. وعندما أطلّ القرن الثاني لولادة يسوع، كانت الكنيسة في عزّ انشارها واضطهادها في الوقت نفسه.

الفَصْلُ الثَّالِث

صِرَاعٌ بَينَ المَسيحِيَّة والوَثَنِيَّة

مِنْ كَنِيسَةِ الرُّسُلِ إلى رُسُلِ الكَنِيسَة

ذرْوَةَ الاضطِّهادات في القَرنَين الثَّالِثِ والرَّابِع

إعتِرافُ الأمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّة بالدِّين المَسِيحيّ

صِراعٌ بَينَ المَسيحِيَّةِ والوَثَنِيَّة .

مِنْ كَنِيسَةِ الرُّسُل

إلى رُسُلِ الكَنِيسَة

كانت بداية القرن الثاني بالنسبة للمسيحيّين حقبة صعبة وقد غاب عنهم أولئك المباركون الذين عاصروا المسيح، والذين أسّسوا الكنيسة، ليخلفهم تلامذة لهم، كان عليهم أن يسيروا على دروب الشهادة كأسلافهم. قبل ذلك التاريخ بقليل، كان المؤمنون ينضوون تحت لواء الكنيسة التي أسّسها الرسل، أمّا الآن، فقد صار للكنيسة رسل، وكان عليهم أن يسيروا بها جامعة واحدة وسط أهوال الاضطّهادات وزلازل الانقسامات والبدع والهرطقات والتشرذم.

لم يمضِ سبع سنوات على بداية القرن الثاني حتّى استُشهد خليفة بطرس على كرسيّ أنطاكية: إغناطيوس ثيوفوروس[1]. وكان استشهاده في روما، كما بطرس وبولس. وقد ذكر بعض المدوّنات[2] أنّ إغناطيوس هذا، كان ذلك الطفل الذي أشار إليه متّى في إنجيله: "فدعا يسوع ولدًا وأقامه في وسطهم وقال: الحقّ أقول لكم إنْ لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات، فمَن وضع نفسه مثل هذا

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٥ - ٥٦.

٢ - Anastase Le Bibliotécaire, *Vindiciae in Gnatianae*, II. CXII, P.G. Vol. 5, Col. 404.

الطفل، فذاك هو الأكبر في ملكوت السماوات، ومَن قبل طفلاً مثله إكرامًا لإسمي، فقد قبلني أنا"[1]. إلاّ أنّ آخرين من مؤرّخي الكنيسة لم يحاولوا التأكيد على أنّ إغناطيوس قد رأى المسيح[2]، ومن بين هؤلاء يوحنّا فم الذهب. ويذكر مؤرّخو الكنيسة أنّ إغناطيوس هو من أصل سوريّ هلّيني، وُلد في حوالى السنة ٣٥، واعتنق الدين المسيحيّ في أنطاكية على أيدي الرسل أو التلامذة أو المعلّمين، فاتّخذ لنفسه لقب ثيوفوروس، أي حامل الإله، تبرّكًا[3].

على أيّ حال، فإنْ كان إغناطيوس لم يعرف المسيح، فهو قد تتلمذ من قرب، دونما أيّ شك، على أيدي بطرس وبولس وبرنابا، ما جعله متمتّعًا بتلك الروح المتحمّسة للسيّد الذي تجسّد على الأرض. لذلك لم يكن أقلّ حماسة من أسلافه في المحافظة على الكنيسة وفي السير على خطى مَن سبقوه على دروب التبشير، من خلال التجوال على الكنائس وبعث الرسائل لها، واعظًا مرشدًا في الحالتَين. ويظهر من بعض كتاباته ذلك الاهتمام الواضح بوحدة الكنيسة وحرصه الشديد على إفهام المؤمنين أنّ خلفاء الرسل جديرون بالطاعة والاحترام، وقد جاء في رسالة له إلى أهل أزمير: "إتبعوا جميعكم الأسقف كما تبع يسوع المسيح اللّه الآب. وسيروا في أثر الشيوخ سيركم في أثر الرسل. واحترموا الشمامسة كما تحترمون وصايا اللّه. ولا تأتوا بعمل يمتّ إلى الكنيسة بصلة منفردين عن الأسقف. والذبيحة الإلهيّة لا تصبح شرعيّة محلّلة إلاّ برئاسة الأسقف أو مَن يفوّضه بها. وكونوا حيث يكون الأسقف

---

١ ـ متّى، ١٨: ٣ ـ ٥.

٢ ـ راجع: KLEIS, J.A. ST. IGNATIUS, 54

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٠ استنادًا إلى: BAREILLE, G., *IGNACE D'ANTIOCHE*, DICT. THÉOL. CHRÉTIEN.

فحيث يكون يسوع المسيح هناك أيضًا تكون الكنيسة الجامعة"[1]. وفي رسالته إلى أهل مغنيسية قال: "لا تتّخذوا من حداثة أسقفكم حجّة للإفراط في الدالّة عليه بل احترموه لأنّه يحمل سلطة اللّه الآب... وكونوا مسيحيّين لا بالإسم وحسب بل بالفعل، فإنّ هناك قومًا يدعون الواحد أسقفًا ولكنّهم لا يعبأون به في تصرّفاتهم. ويلوح لي أنّ ضمير هؤلاء ليس مستقيمًا لأنّهم لا يؤمّون الصلاة في الأوقات التي يعيّنها أسقفهم"[2].

لم تكن محاربة أولئك "النصارى" من أصل يهوديّ للكنيسة الجامعة قد هدأت في بداية القرن الثاني، وبذلك كانت الكنيسة تشقّ طريقها المستقيمة وسط نارَين: نار اليهوديّة بشقّيها المتنصّر والباقي على تهوّده، ونار الوثنيّة المضطهِدة، حتّى أنّ بعض المؤرّخين يعتقد بوجود صلة بين الفئتَين من خلال التحريضات التي كان يقوم بها اليهود مع السلطات الرومانيّة ضد المسيحيّين[3].

وعندما أثار اليهود الشغب على المسيحيّين في مدن فلسطين سنة ١٠٧، وشى بعضهم بأسقف أورشليم الثاني بعد يعقوب، وكان اسمه سمعان، فقالوا "إنّه مسيحيّ من سلالة داود" فأمر حاكم فلسطين الرومانيّ بتعذيب سمعان، وكان طاعنًا في السنّ، وأمر بعد ذلك بصلبه[4].. ويعتقد بعض الباحثين بإمكانيّة وجود ظروف مماثلة قد تكون وراء استجواب إغناطيوس أمام حاكم سوريا المحلّي، ما أدّى إلى استشهاده في رومة إثر ذلك. وتذكر المدوّنات تفاصيل ذلك الاستجواب الذي اتّخذ فيه إغناطيوس موقفًا بطوليًّا رائعًا، أكّد فيه للحاكم على أنّه لن يتخلّى عن مسيحيّته مهما كان الثمن. وكان الثمن أن

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ٥٣.

٢ - المرجع السابق، ص ٥٣.

٣ - Duchesne Mgr. Louis, *Early History Of christian church*, PP. 71 - 79.

٤ - Euschius, Hist.Ecc., IV, 22.

أُرسِل إغناطيوس إلى رومة حيث طُرح للوحوش الضارية في مدرّج فلافيانوس في الثامن عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٠٧، فمزّقت الوحوش جسده الطاهر مثلما مزّقت أجساد سواه من الشهداء المسيحيّين.

في هذه الأثناء، تابع الرومان التنكيل بالمسيحيّين في الشرق. وكما جاء في كتاب بعثه حاكم فلسطين إلى الأمبراطور الرومانيّ ترايانُس، فإنّ "التنكيل لم يأت بالنتيجة التي توخّاها لأنّ المسيحيّين لم يتوقّفوا عن التوافد إلى قاعة المحاكمة مقدّمين ذواتهم للموت"[1]. وفي عام ١١٢ أصدر ترايانُس[2] مرسومًا ينصّ على أنّ المسيحيّين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللأمبراطور حين يُطلب منهم ذلك في المحكمة، فإنّهم سيعاقَبون كخونَة. وكانت عبادة الأمبراطور أكثر عبادات الدولة قوّة وانتشارًا، وقد أنشأها أوغسطس كما سبق وذكرنا وأصبحت تعبيرًا ماديًّا عن الولاء للعرش. وجعل مرسوم ترايانُس المسيحيّين في الشرق والغرب خارجين حقيقيّين عن القانون على مدى قرنَين من الزمن، فكانوا يلاحَقون ويعاقَبون بشكل منظّم في مناسبات متعدّدة وكثيرة[3].

وهكذا، فقد كان على الذين ترأسوا كنيسة الرسل وساسوها بعد الرسل أن يكونوا مبشّرين وفلاسفة لاهوتيّين من جهة، وأن يكونوا مستعدّين للشهادة في أيّ وقت من جهة أخرى. فقد كان عليهم أن يحافظوا على طهارة العقيدة المسيحيّة واستقامتها

---

١ - ALALAS, CHRONO., P.G., VOL. 47, COL. 414.

٢ - ترايانُس TRAJAN (٥٣ - ١١٧): أمبراطور رومانيّ من السلالة الأنطونيّة ٩٧ - ١١٧، خلف نرفا، نظّم الإدارة وعزّز الجيش والاقتصاد، وسّع الأمبراطوريّة على الرين والدانوب، وفي الشرق توغّل في أرمينيا والجزيرة العربيّة وما بين النهرَين فبلغت الأمبراطوريّة في عهده أقصى حدود اتّساعها.

٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٧.

فيصدّوا البدع والهرطقات، وأن يشدّدوا العزيمة والإيمان في قلوب المؤمنين وسط الاضطّهادات والتضييق. وبديهيّ القول إنّه لولا هؤلاء، لما تمكّنت الكنيسة المسيحيّة المسالمة من التغلّب على أعظم أمبرطوريّة في التاريخ. ولم يكن رسل الكنيسة بالضرورة من الذين خلفوا بطرس على كرسيّ أنطاكية، بل كان بعضهم فلاسفة وموظّفين وأساقفة ومترسّلين. ومن هؤلاء كاتب أصبح قدّيسًا، اسمه يوستينُس JUSTINUS، وُلد في أوائل القرن الثاني في مدينة نابلس، ويُقال إنّ أبويه لم يكونا سامريّين، وإنّه كان طالبًا متحمّسًا للفلسفة الأفلاطونيّة ثمّ اعتنق المسيحيّة نتيجة محاورة جرت له مع شيخ متواضع وقور لقيه على الشاطئ، وأوصاه بدراسة الأنبياء العبرانيّين والمسيح. وكان يوستينُس قد درس المذاهب الفلسفيّة طلبًا للحقيقة، فلم يقتنع. ولمّا اهتدى إلى المسيحيّة، أصبح المقتنع المؤمن بها، والمدافع الأوّل عنها، حتّى أنّه أسّس مدرسة لاهوتيّة فلسفيّة في رومة نفسها، ووضع دفاعَين شهيرَين عن الدين المسيحيّ. ولم يشذّ هذا القدّيس عن كبار آباء الكنيسة الأوّلين، إذ استُشهد في رومة على خطاهم، بعد أن تجرّأ حين خاطب الأمبراطور أنطونينوس بيوس[1] وقال: "... أمّا نحن فإنّنا مقتنعون بأنّنا لن نسمح لأيٍّ كان بأن يُلحق بنا الأذى، ما لم يثبُت علينا فعل الأذى، أو يقوم البرهان على أنّنا رجال سافلون. أمّا بالنسبة إليك فاقتلنا لأنّك تستطيع ذلك، ولكنّك لا تستطيع أن تؤذينا". وعندما رفض هذا البارّ أن يقدّم الذبائح للآلهة الرومانيّة، جُلد، وقُطع رأسه في رومة، وأضحى من شهداء المسيحيّة وقدّيسيها وآباء كنيستها الأبرار[2].

---

١ ـ أنطونينُس الأمين أو أنطونينُس بيوس ANTONINUS PIUS: أمبراطور رومانيّ ١٣٨ ـ ١٦١، من السلالة الأنطونيّة التي أخذت اسمها عنه، إبن هادريانس بالتبنّي، حكم بالاعتدال واحترام الشرائع الرومانيّة ولكنّه اضطهد المسيحيّين، عرفت الأمبراطوريّة في أيّامه آخر عهدها الذهبيّ.

٢ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص٣٧٢؛ JUSTIN, APOLOGIA, I, CH. 2

في هذه الحقبة، كانت الغنوسيّة[١] قد انتشرت بشكل واسع، بعد أن تسرّبت تعاليم مدرستها من السامرة إلى مصر حيث تمركزت بشكل لافت، ويذكر بعض المرويّات أنّ مدرسة الإسكندريّة[٢] كانت قد أضحت مركزًا لتعليم الغنوسيّة وقد اشتهر فيها أساتذة كبار، أمثال فالنتيونس، وفاسيليذس، وكربوكراتس، وكان على آباء الكنيسة أن يتصدّوا لهولاء، ومن الذين أفلحوا في ذلك، إيريناوس IRAENEUS الذي أصبح قدّيسًا. وكان إيريناوس قد تتلمذ على يدي بوليكاربُس POLYCARPE الذي أصبح هو الآخر قدّيسًا، والإثنان من مواليد آسية الصغرى.

أمّا بوليكاربُس، فكان أسقفًا على إزمير، بعد أن كان تتلمذ على يدي القدّيس يوحنّا الرسول، ومات شهيدًا سنة ١٥٦ إذ أُحرق حيًّا في مدينته.

أمّا إيريناوس فتصدّى للغنوسيّة عبر كتاب شهير وضعه تحت عنوان: "ضدّ البدع". وكان لكتابه هذا تأثير فعّال في إظهار ضلال الغنوسيّة. أمّا نهاية حياة إيريناوس، فكانت شهادة أيضًا في مدينة ليون الفرنسيّة التي كان أسقفًا عليها، ويُعتقَد أنّه استُشهد سنة ٢٠٢.

---

١ - الغنوسيّة أو الغنوصيّة: كما ذكرنا في حاشية سابقة، اتّخذت اسمها من اليونانيّة: GNOSIS أي المعرفة والحكمة، وهي حركة فلسفيّة ودينيّة نشأت في العصر الهلّينستي، أسُسها أنّ الخلاص يتمّ بالمعرفة أكثر ممّا يتمّ بالإيمان والأعمال الخيريّة، وقالت الغنوسيّة بالثنائيّة أي بالتمييز بين الخير والشر المعتبرَين عنصرَين أساسيّين للوجود، وأدمجوا في تعاليمهم شيئًا من السحر والشعوذة، وتأثّر بالغنوسيّين بعض الفرق اليهوديّة مثل الأسينيّين الذين رفضوا فكرة العهد القديم عن الإله العادل واستبدلوا بها الحكمة الإلهيّة، ونبذت الغنوسيّة الأولى الأسس اليهوديّة للمسيحيّة وكذلك العهد القديم، ونادت في القرن الثاني بأنّ الخلاص يتمّ عن طريق الحكمة (صوفيًا) وقسّمت الناس إلى ثلاث طبقات: الغنوسيّين وخلاصهم مضمون، والمسيحيّين غير الغنوسيّين ويمكنهم أن يخلّصوا أنفسهم بالإيمان، ومن عدا هؤلاء وأولئك هالكون، وانتهى الأمر بالغنوسيّة إلى إدماجها في المانويّة* . كان للغنوسيّة أثرها في المسيحيّة إذ حملتها على تحديد العقيدة ومحاربة الهرطقة والإلحاد، وأكثر المعلومات عن الغنوسيّة مستمدّة من نصوص قبطيّة وُجدت في "نجع حمادى" بصعيد مصر ومن بعض كتب الحكمة.

٢ - مدرسة الإسكندريّة: مدرسة لاهوتيّة كبرى اشتهر من ملافنتها كليمنضوس وأرجينُس وأثناسيوس، تحولت إلى مدرسة فلسفيّة بين أوائل القرن الثالث والعام ٥٢٩ من أساتذتها أفلوطينُس.

بيد أنّ الغنوسيّة تابعت نشاطها بعناد، حتّى أنّ أحد أبناء الأساقفة المستقيمي الرأي، راح يقول بغنوسيّة مسيحيّة طائفًا في آسية الصغرى مبشّرًا بهذا المذهب. هذا المبشّر الغنوسيّ، هو مرقيون[١] بن أسقف سينوبه[٢]. وقد أضاف أتباعه في ما بعد إلى إنجيل لوقا ورسائل بولس العشر، رسالة مرقيون في التناقض بين التوراة والإنجيل. فصار لهم كتابهم المقدّس الخاصّ الذي راحوا يستعملونه في كنائسهم[٣]. وكان على القدّيس بوليكاربُس الذي لقّب مرقيون بأنّه "أوّل خلق الشيطان" أن ينظّف الكنيسة من الضلال الذي بثّه فيها هذا الأخير، بعد أن وصل مرقيون إلى رومة وراح ينشر عقيدته. ويذكر بعض المدوّنات أنّ مرقيون الغنوسيّ قد "ندم وارتضى بما اشترطته عليه الكنيسة قبل أن تحصل وفاته في حوالى سنة ١٦٠"[٤]، غير أنّ الغنوسيّة، رغم ارتداد مرقيون ودفاع الآباء، بقيت شائعة حتّى أواخر القرن الرابع في أنطاكية ومصر وفلسطين والجزيرة العربيّة وسورية وفارس وغيرها من البلدان[٥]. ذلك أنّ المذهب الغنوسيّ بقي يستقطب إليه بعض الدعاة، منهم مرديصان الرهاوي (١٥٤ ـ ٢٢٢) الذي كتب مقالات كثيرة في الفلك والقدر والشرائع[٦].

---

١ ـ مرقيون MARCION (ت حوالى ١٥٥): كاتب مسيحيّ، وُلد في سينوبه (بلاد بنطس)، نشر كتاب "المتناقضات" الذي أظهر فيه الفرق بين العهدَين القديم والجديد، لم يعترف إلاّ بإله العهد الجديد، أحدث بدعة شكّلت أولى الكنائس المنفصلة.

٢ ـ سينوبه أو سينوب أو بلاد بنطس PONT: بلاد في شمال شرق آسية الصغرى على شواطئ البحر الأسود، أسّس فيها ميتريدات مملكة مستقلّة نحو ٣٠١ حتّى ٦٣ ق.م.، دخلتها المسيحيّة باكرًا، وفي شمال تركيا الأسيويّة على البحر الأسود لا يزال مرفأ يحمل اسم سينوب، عنده انتصر الأسطول الروسيّ على السفن التركيّة ١٨٥٣ وسبّب نشوب حرب القرم.

٣ ـ DUCHESNE MGR. LOUIS, *EARLY HISTORY OF CHRISTIAN CHURCH*, P126; LEBERTON J., *LA CRISE GNOSTIQUE*, II, PP. 30 -33; HARNACK A., *MARICON*, PP. 41- 48, 165

٤ ـ HARNACK, A. OP. CIT., 25

٥ ـ EPIPHANIUS, *HAERESES*, XLII, ١; HARNACK. A., 153 - 160

٦ ـ راجع: البطريرك إغناطيوس افرام، الدرر النفيسة، ص ٢٤٩.

إلى جانب تلك البدع، تعرّضت المسيحيّة في تلك الحقبة الصعبة من تاريخها للتشنيع الخبيث من قِبَل الرومان الذين راحوا يشيعون بين العامّة أنّ المسيحيّة ليست سوى إحدى الديانات السريّة الشاذّة، وأنّ أتباعها "يجتمعون في كلّ أسبوع ليقوموا بضروب العربدة والخلاعة والسكر وسط طقوس من السحر الأسود وسفك الدماء". ولم يتورّع فلاسفة الإغريق والرومان عن تحقير الدين الجديد واعتبار أتباعه "برابرة يكنّون العداء للناس وللشرائع وللعادات والتقاليد ولثقافة المجتمع اللاتيني"[١].

تصدّى آباء الكنيسة لجميع هذه الجبهات الشرسة ضدّ المسيحيّة بالفكر والكلمة والإيمان والشهادة. وقد اشتهر من بين هؤلاء القدّيس كوادراتوس في عهد أدريانوس، والقدّيس اثيني أريستيدس في عهد أنطونيوس بيوس، وأريستون البلاويّ. وقد يكون أشهر هؤلاء القدّيس يوستينوس (حوالى ١١٠ ـ ١٦٣) الذي استُشهد في روما. وتاتيانوس السوريّ (١١٠ ـ ١٨٠) الذي وُلد في الجزيرة السفلى من أبوَين وثنيَّين وتنصّر في رومة على يد القديس يوستينوس بعدما كان قد درس الفلسفات اليونانيّة، ولم يقتنع بالأديان التي كانت سائدة، بل كان من ألدّ أعدائها[٢]. إلاّ أنّ تاتيانوس قد انحرف في النهاية نحو الغنوسيّة.

كذلك برز من المدافعين عن المسيحيّة في نهاية القرن الثاني ثيوفيلوس الأنطاكيّ الذي ترأّس أسقفيّة أنطاكية بين ١٦٩ و١٨٥، فكان الأسقف السادس بعد بطرس، وترك مؤلّفات عدّة في عقيدتَي التوحيد والتثليث. وقد أصبح ثيوفيلوس قدّيسًا ويُعدّ من

---

١ - راجع: MARC - AURÈLE, *PENSÉES*, XI, 3; LABRIOLLE P., *LA RÉACTION PAIENNE*, PP. 117- 118.

٢ - راجع: LEBRETON, J., APOLOGÉTIQUE CHRÉTIEN, FLICHE ET MARTIN, HISTOIRE DE L'EGLISE, I, 424, N. 2; EUSÈBE, HISTOIRE ECCLÉSIAL, IV, 6 - 18; ORIGÈNE, CONTRA CELSUM, IV, 52; BARDY G., LA CONVERSION DANS LES PREMIERS SIÈCLES, (ANNÉE THÉOL., 1941) PP. 89 - 106, 206 - 232.

آباء الكنيسة. كذلك اشتهر في هذا المجال أسقف أنطاكية التاسع بعد بطرس (١٨٥ ـ ١٩١) وهو سيرابيون الذي انكبّ على تصويب الانحرافات العقديّة. ومن الذين تجنّدوا لمحاربة الغنوسيّة قبل نهاية القرن الثاني، هيغيسيبوس الباحث (١١٠ ـ ١٨٠) صاحب كتاب "الذكريات" الذي أخذ عنه أفسابيوس المؤرّخ بعض الفصول المتعلّقة بأخبار أساقفة أورشليم وبعض الذين عاصروا السيّد المسيح[1].

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ٧٨ ـ ١٧٩، ٢٢. EUSÈBE, *HISTOIRE ECCLÉSIAL*, IV, ٢٢

ذُرْوَةُ الاِضطِّهادَات

فِي القَرنَيْنِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ

لم يُثن دفاع آباء الكنيسة واستشهادهم، ولا دفاع الفلاسفة والمفكّرين الذين اعتنقوا المسيحيّة، الدولة الرومانيّة عن إصرارها على اضطهاد المسيحيّين، وكانت الاضطهادات تخبو حيناً وتتعاظم أحياناً، بحسب ميول الأمبراطور ومعاونيه، وبحسب الظروف السياسيّة والأحوال السائدة. وقد مرّت المسيحيّة في أقسى ظروفها، قبل أن تنتصر على الأديان الوثنيّة إذ أصبحت الأمبراطوريّة ميّالة إلى الاعتراف بدين المسيح تمهيدًا لجعله الدين الرسميّ للدولة، وبدأ هذا الاتّجاه الأمبراطور قسطنطين الكبير، بعد أن قضى على منافسه في الحكم ماكسانس على أبواب رومة سنة ٣١٢، وتخلّص من ليقينيوس سنة ٣١٣.

يبدو أنّ المسيحيّة قد نعمت بشيء من الهدوء في بداية عهد الأمبراطور الرومانيّ سبتيمُس ساويرُس (١٩٣ - ٢١١) الذي يقال إنّه من أصل فينيقيّ. إلاّ أنّه، في السنة العاشرة من حكمه، أمر بتحريم التبشير بالدينَين اليهوديّ والمسيحيّ، ثمّ اتّخذ إجراءات عديدة لمنع انتشار المسيحيّة وتوسّعها، خاصّة بعد أن أفزعه إقبال الوجهاء والأعيان في الإسكندريّة على الدين المسيحيّ. ومن شهداء اضطّهادات سويروس، ليونيذاس والد أوريجانوس الشهير، والقدّيسة الشهيدة بوثميانة، إضافة إلى عدد كبير من المبشّرين

والواعظين والمؤمنين في أنحاء مصر. وكان المبشّرون يومذاك قد انتشروا في نواحي قيصريّة فلسطين وعكّة وصور وبيروت إضافة إلى الجبال اللبنانيّة. فعند "منصرم القرن الثاني، كانت الجالية المسيحيّة في صور قد أصبحت من الكثرة والقوّة بحيث أنّه أُنشئ في المدينة كرسيّ لمطران. وأصبح لهذه المطرانيّة بعد قليل أربع عشرة أسقفيّة. وفي كنيسة صور دُفن أحد آباء الكنيسة المشهورين: أوريغون، الذي كان يرأس مدرسة الإسكندريّة التي تُعنى بتعليم العقيدة المسيحيّة قبل أن تنتقل هذه المدرسة إلى قيساريّة"[1]. وكانت قد نشأت في صيدا، جارة صور، كنيسة أيضًا. وفي ما بين النهرَين، اعتنق المسيحيّة ملك مدينة الرها[2] أبجر التاسع (١٧٩ ـ ٢١٦) فانتشرت بسرعة بين رعاياه.

خفّ الاضطهاد الرومانيّ للمسيحيّين في عهد كركلاّ (٢١١ ـ ٢١٧) خليفة سويروس دون أن ينقطع تمامًا. واستمرّ الوضع على هذه النسبة من الأمان في عهود الأباطرة الذين خلفوا كركلاّ من الأسرة الشرقيّة. وسط هذه المهادنة، استعادت كنيسة أورشليم بعض نشاطها. وأنشأ فيها أسقف قيصريّة قبدوقية[3] ألكسندروس مكتبة جمعت أهمّ ما صُنّف في الدين المسيحيّ، وما جُمع من وثائق ورسائل في هذا المضمار. وأضحت مكتبة أورشليم المرجع الأساسيّ للتاريخ الكنسيّ لتلك الحقبة. وكان ألكسندروس هذا قد ساس كنيسة أورشليم بين سنة ٢١٢ وسنة ٢٥١ نيابة عن أسقفها الأصيل القديس زقيسوس بعد أن شاخ وعجز عن القيام بأعباء الرسالة. وفي زمن

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٥.

٢ ـ الرُها، وهي التي عُرفت بـ "أورفا" و"إديسّا" UIRFA - EDESSE

٣ ـ قيصريّة قبدوقية: قاعدة قَبدوقية أو كبدوقية، وكبدوقية إسم أُطلق على البلاد الواقعة غربي تركيا الأسيويّة (الأناضول).

سياسة ألكسندروس لكنيسة أورشليم، ازدهر حجّ المسيحيّين إلى الأماكن المقدّسة بشكل علنيّ، ما يفيد عن نسبة جيّدة من الأمان الذي شهده المسيحيّون لبعض الوقت. ومن دلائل هذا الاستقرار النسبيّ نشوء مدرسة قيصريّة فلسطين التي أسّسها أوريجانوس حوالى سنة ٢٣١، وكان لتلك المدرسة أثر فعّال في انتشار المسيحيّة في فلسطين وجوارها[١].

هذا الهدوء لم يدم طويلاً. ففي حوالى سنة ٢٣٤، وقع انقلاب عسكريّ ضدّ الأمبراطور ألكسندروس ساويرُس[٢] تُوّج بنتيجته مدرّب الجند يوليوس مكسيمينوس أمبراطورًا، بعد أن قتل الجندُ الثائرُ الأمبراطور ألكسندروس ساويرُس ووالدته. وكان أوّل ما أقدم عليه الأمبراطور العسكريّ الجديد أن اضطّهد حاشية ساويرُس الذي كان متعاطفًا مع المسيحيّين. هذا التعاطف جلب عودة الاضطهاد من قِبَل الأمبراطور الجديد الذي راح ينفي ويعتقل رجال الدين المسيحيّين، وقد استُشهد في عهده عدد من الأساقفة والمبشّرين في سورية وفلسطين. إلاّ أنّ قِصر عهد مكسيمينوس أدّى إلى محدوديّة نتائج هذه الموجة من الاضطهاد. وعندما تسنّم الأمبراطوريّة فيليبُّس المعروف بالعربيّ (٢٤٤ ـ ٢٤٩) عاد الهدوء إلى أفضل ممّا كان عليه قبل مكسيمينوس بالنسبة للمسيحيّين. حتّى أنّ فيليبُّس جعل من بعض أساقفة أفريقية ولاة أمبراطوريّين، إضافة إلى مَن أدخلهم من نصارى في خدمة الدولة، وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ فيليبّس كان مسيحيًّا[٣].

---

١ - راجع: EUSÈBE, HIST. ECC., IV, 19, 27; PATROLOGIA GRAECA, VOL. 10, COL. 1049 - 1105.

٢ - ألكسندروس ساويرُس ALEXANDRE SÉVÈRE (ت٢٣٥): وُلد في عرقة من بلاد عكّار لبنان، خلف إيلاغابال أمبراطورًا رومانيًا، حارب أردشير الأوّل مؤسّس سلالة ساسان وأبعد خطّ الفرس، حارب الجرمانيّين على نهر الرين ٢٣٤، شجّع الآداب والفنون واتّخذ أولبيانُس الفقيه مستشارًا له، قضى اغتيالاً.

٣ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ٩٧ - ٩٩.

يتّضح من مسار الأحداث أنّ الأسرة الأمبراطوريّة الشرقيّة كانت على شيء من التعايش مع الدين المسيحيّ، يختلف كلّيًا عن العداء الذي أظهرته الأسر الغربيّة ضدّ المسيحيّين. وتتّضح هذه المعادلة أكثر نتيجة انتقال السلطة سنة ٢٤٩ إلى أمبراطور غربيّ: داقيوس، الذي انتزع الأمبراطوريّة حربًا من يد فيليبّس إثر معركة حاسمة وقعت قرب ثيرونة الإيطاليّة قضى بخلالها فيليبّس مقاتلاً. فما أن انتقل الحكم إلى يد داقيوس حتّى جعل السلطة المركزيّة في الدولة تضع على رأس اهتماماتها القضاء على المسيحيّة والمسيحيّين. وكأنّ في ذلك نوعًا من الانتقام من الأسرة الأمبراطوريّة الشرقيّة، التي يبدو أنّ الغربيّين قد نظروا إليها وكأنّها تمتّ بصلة في شرقيّتها إلى الأصول التي جاءت منها الديانة المسيحيّة.

حرّم داقيوس المسيحيّة تمامًا. حتّى أنّ كبار مؤرّخي الكنيسة يقولون بأنّ داقيوس "حاول محو اسم يسوع"[١]. ذلك أنّ الحكم الأمبراطوريّ ألّف لجانًا لتنفيذ إرادة الأمبراطور القاضية بإرغام المسيحيّين على عبادة الآلهة وتقديم البخور والخمر لها وتناول اللحم المقدّس. وفي منتصف القرن الثالث، بدأت اللجان تنفّذ مهمّتها. وكان من الطبيعيّ أن يمتنع المؤمنون المسيحيّون عن السجود للآلهة الوثنيّة الرومانيّة، فكان الاضطّهاد المروّع الذي استمرّ سنة كاملة. وكان من جملة مَن استُشهدوا في تلك السنة، أسقف أنطاكية، بابولاّ، ومعه ثلاثة من معاونيه، وأسقف أورشليم ألكسندروس. وتعرّض أوريجانوس لأقسى ضروب التعذيب في السجون الرومانيّة، إلاّ أنّه نجا من الموت بأعجوبة. ومن شهداء ذلك الاضطّهاد القدّيس خريستوفوروس الذي اعتُقل في إقليم ليقية جنوب آسية الصغرى، "فجُلد بقضبان الحديد حتّى تناثر لحمه واستحمّ بدمه،

١ - ORIGÈNE, *HOMEL*, IX, IN, JOSUAM.

ثمّ طُرح في لهيب النيران، ولمّا نجا منها عُرّض للسهام فلم يمت، "فجُزّ رأسه جزًّا"[١]. وفي سجلّ الأمبراطور داقيوس[٢] "مآثر" كبرى في الاضطهاد شملت الجلد والإحراق والذبح وتقطيع الأوصال. وعندما انتشر وباء الطاعون في نواحي الأمبراطوريّة في عهد الأمبراطور غالوس (٢٥١ - ٢٥٣) رأى الوثنيّون أنّ سبب انتشار الوباء إنّما هو غضب الآلهة لانتشار المسيحيّة، وراحوا يصخبون مطالبين بإبادة المسيحيّين، فكانت جولة جديدة أدّت إلى استشهادٍ واسعٍ للمسيحيّين في الغرب والشرق[٣].

هدأ الاضطهاد قليلاً في بداية عهد خليفة غالوس: فاليريانُس (٢٥٣ - ٢٦٠). غير أنّ سبب عودة الاضطهادات هذه المرّة كان تعرّض الأمبراطوريّة للخطر بسبب هجومات الإفرنج والألمان على حدودها الغربيّة، وتحرّك القوط[٤] في وادي الدانوب

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج ١، ص ١٠٢ - ١٠٣.

٢ - داقيوس DECIUS (٢٠١ - ٢٥١): قائد رومانيّ، نادى به جنوده أمبراطورًا بعد انتصاره على القوط، حكم ٢٤٨ - ٢٥١.

٣ - راجع: ALLARD, LES DERNIÈRES PERSÉCUTIONS DU IIIÈME SIÈCLE, CH. I.

٤ - القُوط أو الغوط: شعب رئيسيّ من الشعوب الجرمانيّة القديمة، المقول إنّهم يتحدّرون من الغوتار في جنوب السويد، وما إن وافى القرن الثالث حتّى كانوا استقرّوا في شمال البحر الأسود، وانقسموا في القرن الرابع إلى قسمَين: فتحرّك القوط الغربيّون بضغط من شعب الهون إلى الغرب، أمّا القوط الشرقيّون فأذعنوا للهون الذين جاؤوا من سيبيريا أو من أواسط منغوليا، فيما أخذ القوط الغربيّون يتغلغلون في ولايات الدانوب التابعة للأمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة حيث راحوا يتبعون مذهب الآريوسيّة، وفي ٣٧٦ دخلوا الأراضي الرومانيّة هاربين من الهون فنشأ نزاع بينهم وبين الموظّفين الرومان ما أدّى إلى قيام الأمبراطور فالنز بحملة تأديبيّة ضدهم ولكنّ القوط هزموه هزيمة ساحقة في أدرنة ٣٧٨، ونزلت روما عن بعض الولايات كي يقيموا فيها، على أنّ إريك الأوّل الذي نادى القوط الغربيّون به ملكًا عليهم ٣٩٥ قد بدأ فتوحات دفعتهم إلى ما وراء إيطاليا، ونهب إريك روما ٤١٠، ثمّ دفعهم أدولف خليفة إريك إلى جنوب الغال وشمال إسبانيا ٤١٢، ووسّعوا ممتلكاتهم الإسبانيّة على حساب الوندال، واندفعوا شمالاً إلى اللوار، وبلغت قوّة القوط الغربيّين أوجها في عهد ملكهم يوريك، ولكنّ الإفرنج هزموا إريك الثاني ٥٠٧ وانتزعوا منه جميع أراضيه تقريبًا في شمال البرنس، ومن ثمّ أصبح تاريخ القوط الغربيّين في صميم تاريخ إسبانيا واعتنقوا الكاثوليكيّة واندمجوا بالسكّان الإسبان والرومانيّين، وبعد وفاة ريكيسونت ٦٧٣ غرقت أحوال إسبانيا القوطيّة الغربيّة في فوضى تامّة، وكان آخر ملوكهم رودريك الذي هزمه طارق بن زياد ٧١١.

وحوض البحر الأسود، وثورة البربر[1] في أفريقية، وعبور شابور[2] الفرات وخرق حرمة الأمبراطوريّة ... ذلك أنّ الوثنيّين قد رأوا، هذه المرّة أيضًا، أنّ سبب كلّ هذه الشدائد إنّما هو امتناع المسيحيّين عن إرضاء الآلهة، فكانت جولة جديدة من الاضطهادات ابتداء من سنة ٢٥٨، وكان من أشهر شهداء هذه الجولة أسقف روما البابا سكستوس الثاني (٢٥٧ ـ ٢٥٨). وقد استمرّ هذا الاضطهاد حتّى بداية عهد غاليانُس[3] الذي تجاوب مع طلب الأساقفة بردّ كنائسهم ومدافنهم المصادرة إليهم. إلاّ أنّ بعض الحوادث التي جرت في عهد غاليانُس، تفيد بأنّ الاضطهاد لم يتوقّف يومذاك تمامًا وإنْ كانت قد خفّت وطأته.

---

١ ـ البَربَر BERBÈRES: إسم أطلق على سكّان أفريقية الشماليّة من برقة إلى المحيط الذين كانوا يتكلّمون لهجات أعجميّة قبل استعرابهم، يرجع أصلهم إلى فئات عرقيّة مختلفة استقرّت في تلك البلاد قبل الميلاد وعرفت بعض الازدهار (مملكة نوميديا، مملكة موريتانيا)، اختلط بهم الفينيقيّون واليونان اختلاطًا عابرًا، لم يرتاحوا تمامًا إلى حكم رومة ولا إلى الدين المسيحيّ فمالوا إلى التمرّد مع الأوّل وإلى البدع مع الثاني فاتبعوا "الدوناتيّة*"، سهّلوا غزو الفاندال لأفريقية ولم يسالموا البيزنط، دخل أكثرهم الإسلام مع عقبة بن نافع ورافقوا الجيش العربيّ في فتوحاته إلى إسبانيا بقيادة طارق بن زياد، اتّبعوا الخوارج وأعلنوا العصيان على العبّاسيّين، توزّعوا ممالك وسلالات فكان منهم الأغالبة والرستميون والمرابطون والموحّدون ثمّ زالت دولهم أواخر القرن الثالث عشر، فاختلط أهل المدن منهم بالعرب واعتصم الآخرون في جبال الأوراس والأطلس وفي الريف وبلاد القبائل والصحراء حيث لا يزالون حتّى اليوم وقد حافظوا على عاداتهم ولهجاتهم.

٢ ـ شابور أو شاهبور أو سابور: إسم ثلاثة ملوك ساسانيّين: الأوّل، وهذا هو المقصود، ملك فارس ٢٤١ ـ ٢٧٢ إبن ارتشير الأوّل، غلبه الأمبراطور الرومانيّ كورديانُس الثالث، أسر فاليريَنُس ٢٦٠ ونهب أنطاكية ومدن سورية الشماليّة وآسية الصغرى، شيّد "طاق كسرى" قرب المدائن في العراق؛ والثاني ملك فارس ٣١٠ ـ ٣٧٩، وهو ابن هرمزد الثاني، لقّب بـ"ذي الأكتاف"، قرّر نصّ الأفستا (AVESTA وهي مجموعة الكتب المقدسة في الديانة المزديّة وتنسب إلى زرادشت) ٣٢٥، اضطهد المسيحيّين وحارب البيزنط؛ الثالث ملك فارس ٣٨٣ ـ ٣٨٨، اعترف باستقلال أرمينيا ووقّع معاهدة صلح مع الأمبراطور البيزنطي تيثودوسيوس الأوّل.

٣ ـ غاليانُس GALLIENUS (٢١٨ ـ ٢٦٨): أمبراطور ٢٦٠ ـ ٢٦٨، مال إلى الأدب وأنعم على أذينة ملك تدمر بلقب أمبراطور الشرق، أوقف زحف القوط في البلقان ٢٦٧.

جاء الاضطّهاد الأعظم الذي شهدته المسيحيّة في العهود الرومانيّة كافّة، نتيجة أمر الأمبراطور ديوقليتيانس[1].

نصّ مرسوم هذا الأمبراطور الذي "صدر في الثالث والعشرين من شباط (فبراير) سنة ٣٠٣ على محو كنائس المسيحيّين وحرق كتبهم وطرد كلّ مَن يشغل منهم وظيفة مدنيّة وعسكريّة من منصبه. وأمر بفرض جميع أنواع العقوبات باستثناء الإعدام. ولكن حتّى الإعدام طُبّق على مقياس واسع"[2].

قبل ذلك التاريخ، كانت المسيحيّة قد انتشرت بشكل واسع في الشرق وأقدمت الكنيسة على تشييد المعابد الفخمة، منها كنيسة في عمواس* فلسطين التي كشفت عن آثارها الدراسات الحديثة، ومثلها في الصالحيّة[3] عند الفرات، وأخرى في نيقوميدية[4] على تلّة تقابل التلّة التي كان يقوم عليها قصر الأمبراطور ديوقليتيانُس نفسه. وفيما راح المؤمنون يملأون الكنائس وباحاتها في المناسبات، خفّ الإقبال بشكل ملحوظ على الهياكل الوثنيّة.

---

١ ـ **ديوقليتيانُس** DIOCLÉTIEN (٢٤٥ ـ ٣١٣): من كبار أباطرة الرومان المتأخّرين، حكم ٢٨٤ ـ ٣٠٥، أعاد تنظيم الأمبراطوريّة إداريًا واقتصاديًا، أنشأ النظام الرباعيّ ٢٩٣ تسهيلاً للدفاع عنها فعيّن أمبراطورًا للغرب مع قيصر يساعده واحتفظ لنفسه بالشرق يساعده قيصر هو غاليريُس، بدأ أعنف اضطهاد للمسيحيّن ٣٠٣، استقال ٣٠٥ غير أنّ الاضطهاد استمرّ حتّى نهاية حياته ٣١٣.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٨.

٣ ـ **الصالِحيّة**: موقع في سورية على الفرات بالقرب من الميادين في محافظة دير الزور كانت تقوم عليه قديمًا مدينة دورا أوروبّوس DOURA EUROPOS، وهي مستعمرة يونانيّة قديمة بناها أحد قوّاد سلوقس الأوّل الظافر ٣١٢ ـ ٢٨٠ ق.م. ودعاها باسم مسقط رأس الملك، احتلها الفرثيّون، أثبتت الحفريّات وجود حامية تدمريّة كانت ترابط فيها خلال القرن الميلادي الثاني، احتلّها تريانس ١١٦، خرّبها الساسانيّون ٢٥٦، اكتُشفت فيها أقدم كنيسة مسيحيّة تعود إلى منتصف القرن الثالث ومعابد أخرى زُيّنت جدرانها بصور ذات قيمة لدرس أصول الفنّ الكنسيّ.

٤ ـ **نيقوميدِية**: مدينة قديمة شمال غربي آسية الصغرى، مكانها اليوم مدينة إزميت التركيّة، أعاد تأسيسها نيقوميدُس الأوّل ٢٦٤ ق.م.، دمّرها القوط ٢٥٨ م.، اختارها ديوقليتيانُس عاصمة شرقيّة، احتلّت القسطنطينيّة مكانها الإداريّ والسياسيّ.

هذان الازدهار والتوسّع، أثارا حسد كبار الموظّفين والكهنة الوثنيّين والفلاسفة الرومان المحافظين، فراح جميع هؤلاء "يملأون رأس الأمبراطور بتقارير عن مؤامرات مزعومة وعن أعمال شغب لا وجود لها. ويبدو أنّ هذا الأمبراطور، الذي حكم تسعة عشر عامًا ساكتًا عن المسيحيّة، كان يكره سفك الدماء والعنف، لذلك بقي طويلاً يحاول إبعاد كأس اضطّهاد المسيحيّين عن شفتَيه، متجاهلاً نصائح العرّافين والوزراء والأعوان والكهنة والفلاسفة الرومان الوثنيّين. إلاّ أنّ إجماع تلك الهيئات الوثنيّة على وجوب اللجوء إلى العنف للتخلّص من الدين المسيحيّ وأتباعه، وإصرارها على موقفها، جعل الأمبراطور يصدر مرسومه الذي أثار دهشة أهل الكنيسة، لأنّهم كانوا يعتبرون أنّ ديوقليتيانس يميل إلى المسيحيّة، حتّى أنّ زوجة الأمبراطور وابنته كانتا، على أغلب الظن، قدّ اعتنقتا الدين المسيحيّ"[1].

ما أن صدر الأمر الأمبرطوريّ حتّى هاجمت الشرطة كنيسة نيقوميديية المواجهة لقصر الأمبراطور، وقامت عناصر القوّة المهاجمة بتخريب الكنيسة وإحراق ما كان فيها من كتب. حدث ذلك لحظة صدور القرار الأمبراطوريّ. وفي صباح اليوم التالي، ألصق رجال الأمبرطوريّة منشور الإدارة العليا على جدران الشوارع في نيقوميدية، "فنزع مسيحيّ واحدًا منها، فأُلقي القبض عليه وأُحرق"[2] ، فكان هذا أوّل غيث الاضطهاد الفظيع. إذ بعد ذلك الحادث، اتّهم أهل البلاط المسيحيّين بمحاول إحراق القصر الأمبراطوريّ ما ألهب الغيظ في قلب الأمبراطور الذي، منذ تلك اللحظة، اعتبر أنّ جميع المسيحيّين في بلاطه وعاصمته أعداؤه، وخيّر زوجته بريسكة وابنته

---

١ - LACTANIUS, BK., XV.

٢ - LACTANIUS, BK., XIII.

فاليريا بين الموت والرجوع عن المسيحيّة... فاختارتا الحياة الدنيا. إلاّ أنّ كبير أمناء البلاط: دوروثاوس، ورئيس الحجّاب: بطرس، فضّلا الشهادة. وبعدهما دُقّ عنق أسقف نيقودية: أنثيموس، وأُعدم جميع كهنته، وعدد كبير من أعضاء رعيّته بمَن فيهم الأطفال والنساء[١].

وإذا شبّت ثورة في ملاطية وسورية وسلفكيّة، نسب المقرّبون من البلاط هذا التمرّد إلى المسيحيّين، ممّا زاد في غضب الأمبراطور الذي ألحق بمرسومه الأوّل مرسومًا جديدًا قضى باعتقال رجال الإكليروس، ألحقه بمرسوم آخر ينصّ على "إطلاق سراح مَن يكرّم الآلهة، وعلى تشديد العذاب على مَن يرفض ذلك"[٢].

ما من مراجع بوسعها أن تفيد بدقّة عن نسبة الذين خضعوا لتدابير الإغراء والتهويل من المسيحيّين في الأمبراطوريّة الرومانيّة عصرذاك، ولكن من الثابت أنّ عددًا كبيرًا من قادة الكنيسة استُشهد بخلال الشهور الأولى للاضطهاد، وأُلقي القبض على بعضهم الآخر، وسيقوا للقيام بالأشغال الشاقّة في المناجم، ومن بين هؤلاء أسقف أنطاكية: كيرلّس، الذي خلفه في رئاسة الكنيسة تيرانوس (٣٠٤ ـ ٣١٤). وقد استُشهد في قيليقية عدد كبير من النساء والرجال، إضافة إلى ما تعرّض له المؤمنون من فنون التعذيب، كإدخال أسنان القصب تحت أظافرهم وصبّ الرصاص المذوّب عليها[٣].

في مقابل ذلك، كان يبدو أنّ عددًا كبيرًا من المؤمنين هاله العذاب، فارتدّ. يؤكّد على هذا ما ذكره المؤرّخون عن "رومانوس شمّاس قيصريّة فلسطين الذي كان مقيمًا

---

١ - LACTANIUS, BK., XIV; EUSÉBIUS, BK. VIII, CH. 6.

٢ - EUSÉBIUS, BK. VIII, CH. 6.

٣ - EUSÉBIUS, BK. VIII, CH. 12

في أنطاكية يومذاك، فهاله تدمير الكنائس وارتداد بعض المؤمنين والمؤمنات، فهبّ لساعته يقوّي النفوس ويحذّر من السجود للأصنام، فقُطع لسانه وزُجّ في السجن. وإذ هُيِّئت نار لإحراقه، أمطرت السماء بشدّة وأطفأتها، فلجأ الجلاّدون إلى شنقه في الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ٣٠٣. وقُبض على أسقف صور تيرانيوس، وعلى كاهن صيدا الطبيب: زينوبيوس، وإذ أعرضت عنهما الوحوش الضارية لمّا أُلقيا إليها في مدرّج أنطاكية، حُزّ رأسهما حزًا"[١]. ومن الذين نالوا إكليل الشهادة في ذلك الحين، الضابطان سرجيوس وباخوس[٢] في مقاطعة الفرات حيث أنشئ في ما بعد هيكل لتكريمهما حُوّل لاحقًا إلى صرح روحيّ كبير، وقد حملت المدينة الواقعة هناك اسم سرجيوس، فعُرفت بسرجيوبوليس، وهي التي حوّل العرب اسمها إلى الرصافة.

ومن شهداء السنة الأولى للاضطهاد ما يذكره التقليد عن استشهاد بربارة في بعلبك[٣]، وجاورجيوس، الذي تقول الأسطورة إنّه قتل التنّين في خليج بيروت المعروف

---

١ - EUSÉBIUS, BK. VIII, CH 7.

٢ - سرجيوس أو سَركيس وباخوس: من أشهر شهداء المسيحيّين في تلك الحقبة وهما من أمراء جيش مكسيميانُس، أنكرا عليه عبادة الأوثان فعذّبهما، بُنيت على اسمهما إضافة لكنيسة الرصافة كنيسة أخرى في تكريت العراق على يد المفريان بريشوع (ت٦٨٤) اعتبرها ابن العبري أجمل كنائس زمانه، تكثر كنائس هذَين القدّيسَين في لبنان بشكل خاص.

٣ - القدّيسة بَربارة: عذراء شهيدة كرّمها المسيحيّون منذ القرن الرابع، هي ابنة شريف وثنيّ قيل إنّها من مدينة نيقوميديا في آسية الصغرى وقيل بإصرار بل إنّها من بعلبك، توافرت لها أسباب العلم والرفاهية، اعتنقت المسيحيّة سرًّا وكرّست حياتها للصلاة والتأمّل، حاول والدها عبثًا أن يزوّجها لأحد الأشراف الوثنيّين فأعلنت عقيدتها ما أدّى إلى اضطهادها وهروبها متخفّية ومن ثمّ اعتقالها ومحاكمتها محاكمة صارمة واستشهادها، لها صيت كبير لدى المسيحيّين الشرقيّين واللبنانيّين خاصّة الذين يحتفلون بعيدها في ٤ كانون الأوّل (ديسمبر) ليس بمظاهر التقوى والشعائر الدينيّة فحسب، بل وبإقامة المهرجانات الشعبيّة وصناعة الحلوى ولبس الأقنعة في احتفالات تقليديّة يشترك فيها الأولاد وذلك إحياء لذكرى فرار بربارة وتخفّيها قبل استشهادها، وفي رأس بعلبك بالقرب من مدينة بعلبك بقايا كنيستَين أثريّتَين يقال إنّ إحديهما كانت للقدّيسة بربارة إبنة البلدة بإصرار الأهالي. وعندما انتقلت أسرة مفرّج من رأس بعلبك إلى شمال ميفوق في ساحل بلاد جبيل في القرن السادس عشر نقل أبناؤها معهم صورة القديسة بربارة وبنوا لها في المكان الذي نزلو به كنيسة على اسمها لا تزال قائمة إلى اليوم فعُرفت المنطقة باسمها وهي بلدة البرارة الواقعة شمال عمشيت.

بخليج القدّيس جاورجيوس أو مار جرجس. بيد أنّ المراجع التاريخيّة لا تؤكّد على شيء ممّا يذكره التقليد بشأن بربارة وجرجس[1]. ولكنّ الثابت أنّ أوّل شهداء فلسطين في اضطهاد ديوقليتيانوس كان بروكوبيوس القارئ الذي كان يقرأ الأسفار والصلوات في كنيسة بيسان[2]، وتبعه زكّا شمّاس كنيسة جدَرة[3] وألفيوس قارئ كنيسة قيصريّة[4].

---

١ - يفتخر سكّان بيروت بمار جرجس الذي كان من شهداء القرن الثالث للمسيح، على أنّه كان جنديًا في عسكر الأمبراطور ديوقليتيانُس DIOVLÉTIEN (٢٤٥ - ٣١٣) وقيل إنّه استشهد في بيروت وإنّه من أهاليها وقيل غير ذلك، وربّما سمّي خليج مار جرجس الواقع إلى الجهة الشرقية الشمالية من المدينة بهذا الإسم، اعتقادًا بقتل القديس للتنين في تلك البقعة، وقد أقيم هناك معبد على اسم القديس حيث يقوم جامع الخضر المعروف حتّى اليوم، والخضر هو الإسم الإسلاميّ لجرجس نفسه، وكان في جنوبي الخليج كنيسة قديمة للموارنة على اسم مار جرجس ضبطها مع وقوفاتها علي باشا الدفتردار أوّل باشا نصّب سنة ١٦٦٠ على مدينة صيدا التي كانت تابعة لأمير جبل لبنان وجعلها جامعًا سنة١٦٦١؛ وفي محلّة صربا من شاطئ جونيه كسروان مغارة طبيعيّة يبدو أنّها كانت مخصّصة لعبادة أدونيس، قد تحولت منذ زمن بعيد لعبادة القدّيس جرجس نفسه الذي يرى فيه أخصّائيّون نسخة مسيحيّة عن الإله أدونيس، وأنّ أعمال العبادة في تلك المغارة قد استمرّت دون انقطاع منذ آلاف السنين. ويعتبر كثيرون أنّ أسطورة القدّيس جرجس وقتله للتنّين إنّما نشأت هنا وليس في خليج بيروت، غير أنّ هذا لا يرتكز على أساس تاريخيّ ثابت إذ إنّ هناك أماكن أخرى تدّعي بأنّ مار جرجس هو قدّيسها ووليّها وأنّه عاش فيها. ولهذا القدّيس اعتبار عند كافّة الطوائف المسيحيّة والإسلاميّة في لبنان والشرق، ويزور الناس من مختلف الإنتماءات الدينيّة في لبنان مغارة مار جرجس هذه المعروفة بمغارة الباطيّة للتبرّك وإيفاء النذور وطلب الشفاء. أمّا اسم الباطيّة، فيؤكّد بما لا يقبل الشكّ على أنّ المعبد القديم الذي كان منشأ بداخلها إنّما كان مخصّصًا لعبادة تمّوز - أدونيس، ذلك أنّ الباطيّة تصحيف لمركّب ساميّ قديم: "بيت طوّاية" BET TAWWĀYÉ ومعناه: بيت المحزونين. ومعلوم أنّ شعائر الحزن كانت من أهمّ شعائر ديانة ذلك الإله الذي كان يبكيه عباده إلى حدّ النحيب في ذكرى موته. وكان هذا الهيكل مرتبطًا بهيكل أفقا عبر "درب أدونيس" الذي يعبر غزير صعودًا إلى الغينة للتبرّك بزيارة ضريح الإله هناك، ثمّ يتّصل بالنهر المقدّس صعودًا إلى أفقا. وقد بقيت عبادة تمّوز شائعة في فينيقيا حتّى العهد الروماني؛ للإطّلاع على أسطورة مار جرجس راجع: المشرق، س٦، ع٩، ١٩٠٣، ص١٣٨٥؛ أو: الخازن ويو لحدو، جونيه، ص٨١.

٢ - بيسان: بلدة في فلسطين جنوبي طبريّة، احتلّها الفراعنة بعد معركة مجدّو، أصبحت إحدى "المدن العشر" وعُرفت باسم سفيتوبوليس، كانت كرسيًا أسقفيًا، هاجمها خالد ابن الوليد ٦٣٤ واحتلّها العرب نهائيًا ٦٣٦.

٣ - جدَرة أو غدّارة: بلدة يونانيّة رومانيّة في المملكة الأردنيّة، تُسمّى حاليًا "أم قيس"، مسقط رأس منيبس الفيلسوف (القرن الثالث ق.م.) وملياغرس الشاعر اليونانيّ.

٤ - EUSÉBIUS, *MARTYR. PALEST.*, I, II.

أمّا أشهر شهداء السنة التالية: ٣٠٤، فكان تيموتاوس وأغابيوس وتقلا في غزّة، وديونيسيون الطرابلسيّ الفينيقيّ، ورميلوس أبوذياكون في اللدّ، والكسندروس الغزاوي، وهم أشهر الشهداء الثمانية الذين نالوا الإكليل في تلك السنة، وبوليانوس الطرسوسيّ، ويوليته وطفلها كرياكوس اللذَين استُشهدا في طرسوس، والفاضلة فيرونية في نصّيبين. وتحدّث المؤرّخون "عن مسيحيّين في الجزيرة العربيّة ذُبحوا بالفأس، وعن آخرين في أنطاكية شُويَت أجسامهم على المشواة. كما تحدّثوا عن نساء كنّ يرمين أنفسهنّ في نهر العاصي للخلاص من الاغتصاب. وبلغ من كثرة الذين أُفنوا في الأمبراطوريّة بهذه الطريقة أن أقام الجلّادون الأمبراطوريّون أخيرًا عمود نصر يحمل كتابة أثريّة تفتخر بأنّهم "أبادوا اسم المسيحيّين وخرافتهم وأعادوا عبادة الآلهة إلى سابق صفائها وزهوها". بيد أنّ المسيحيّة أصبحت بعد سنوات قليلة الديانة الرسميّة للدولة[١].

كان ديوقليتيانوس عندما استلم الحكم إثر مناداة الجند الرومانيّ به أمبراطورًا سنة ٢٨٤، قد جعل للدولة الرومانيّة أمبراطورَين، وجعل لكلّ منهما قيصرًا يعاونه في الحكم ويحلّ محلّه عند الوفاة أو اعتزال الوظيفة، وطبّق هذا النظام الجديد، فجعل مكسيميانوس أمبراطورًا يشاطره الحكم، وحكَم ديوقليتيانوس الشرق، وسلّم حكم الغرب لمكسيميانوس. وكان من الطبيعيّ أن يطبّق مكسيميانوس في الغرب ما طبّقه ديوقليتيانوس في الشرق، لا بل إنّ مكسيميانوس قد ذهب في أعمال اضطهاد المسيحيّين إلى ما هو أبعد وأشدّ فظاعة وهولاً، فقد كان يأمر كلّ مسيحيّ أن يختار بين تقديم الذبائح إلى الآلهة المعترف بها في الأمبراطوريّة أو الموت المحتّم. "وإنّه ليصعب على المؤرّخ أن يحصي عدد الذين بُترت أعضاؤهم أو صُلبوا أو أُغرقوا أو

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٦٨؛ EUSÉBIUS, BK. VIII, CH. 12, COL. 1, 2.

رُمي بهم إلى الوحوش الكاسرة في هذه المنطقة"[1]. ورغم استقالة ديوقليتيانوس وزميله مكسيميانوس من المنصبَين الأمبراطوريَّين سنة ٣٠٥، فقد استمرّ الاضطّهاد ضدّ المسيحيّين في عهد الأمبراطورَين اللذَين خلفاهما: قسطنديوس في الغرب وغلاريوس في الشرق، وكان القيصر المعاون لقسطنديوس: فلافيوس سويروس، ولغلاريوس: مكسيمينوس دايا.

كان أبرز شهداء تلك الحقبة التي استمرّت حتّى سنة ٣١٠ إيفيانوس الذي كان قد تلقّن الفقه في بيروت، وتعمّق في اللاهوت على يدَي بمفليس. وفي صور، "زُجّ أوليانوس في جلد ثور مع كلب وأفعى ضخمة وأُلقي في البحر. وفي أنطاكية بسط الشيخ الفلاح برلاها يده إلى لهيب النار حتّى فنيت ونُكّل به تنكيلاً فظيعًا"... وفيها أيضًا باغت الجند بلاجيّة الفتاة بمفردها في بيتها، فاستأذنتهم لترتدي أجمل ما لديها وصعدت إلى السطح ورمت بنفسها إلى أسفل... واستُشهدت دومينية الأنطاكيّة وابنتاها برنيقية وبروسذوكي برمي أنفسهنّ معًا في الفرات وقد فضّلن الموت على الخضوع لرغبات مكسيمينوس الفاسق. كما نالت ثيودوسية الصوريّة إكليل الشهادة في قيصريّة فلسطين بعد أن مشّط الجند جسدها بأمشاط حديديّة. وعَذّب لوكيوس الحاكم الطبيبَين العربيَّين قوزما ودميانوس وضرب عنقَيهما بالسيف، فطُرح دومنينوس في النار وأُدخل بامفيلوس السجن بعد عذاب أليم. واستُشهد بولس الغزّاوي. إضافة إلى أنطونيوس وزبينا وجرمانوس والفتاة البيسانيّة أوناثا. ثمّ استُشهد بامفيلوس مع أحد عشر شهيدًا بينهم فالانسيوس الشيخ شمّاس إيليه وبورفيروس الخطّاط[2].

---

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٨.

٢ - EUSÉBIUS, *MARTYR. PALEST.*, IV - VII.

إعتِرافُ الأمبَراطُورِيَّة الرُّومَانيَّة بالدِّين المَسِيحيّ

عصفت، في نهاية العقد الأوّل من القرن الرابع بالأمبراطوريّة الرومانيّة موجة عنيفة من الصراع على الحكم، أصبح بنتيجتها للدولة الرومانيّة ثلاثة أباطرة وثلاثة قياصرة. وشاعت اغتيالات القياصرة تحت ستار الانقلابات المتواصلة. وعمّ الاضطّراب الأوساط العسكريّة والسياسيّة. وقد اتّضح لأتباع الديانات الوثنيّة "ولأولئك الذين كانوا يرون في استمرارها نفعًا ماديًّا، بأنّ المسيحيّة آخذة في الانتشار، ولن تعتم حتّى تحتلّ المقام الأوّل في الحقل الروحيّ. وكذلك اتّضح للدولة وموظّفيها أنّه كلّما تدهورت الأمور السياسيّة وتردّت أحوال الأمبراطوريّة تحسّنت أحوال المسيحيّة واتّسع نطاقها"[1].

أمام هذا الواقع، أصدرت الأمبراطوريّة الرومانيّة بهيئتها العليا مجتمعة في نيسان (إبريل) ٣١١ تلك البراءة الشهيرة التي اعترفت بوجود المسيحيّة وسمحت للمسيحيّين بصلاة الجماعة شرط عدم الإخلال بالنظام[2].

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

٢ ـ ZEILLER J., *DERNIÈRE PERSÉCUTION*, FLICHE ET MARTIN, II, 475.

ما أن صدرت هذه البراءة حتّى أضحت المسيحيّة "ديانة مشروعة" لأول مرّة في تاريخ الأمبراطوريّة الرومانيّة. وبدأت إعادة الكنائس إلى أصحابها في الشرق باستثناء سورية ومصر حيث حاول مكسيمينُس[1] يائسًا استئناف الاضطّهاد بين ٣١١و٣١٢، مؤسّسًا منظّمة وثنيّة على غرار الكنيسة لمحاربة المسيحيّة متوسّلاً من أجل ذلك أحقر الأساليب[2] ما جعل ألوف المسيحيّين يفرّون من صور وغيرها من المدائن ليتشرّدوا في الأماكن النائية. في هذه الحقبة استُشهد أسقف حمص: سلوانس، إضافة إلى شمّاسه لوقا، وقارئ الكنيسة موكيوس، ويوليانوس الطبيب، ولوقيانوس المعلّم الأنطاكي الذي قرّظه يوحنّا فم الذهب، وقد دُفن في مدينة ذريبانة حيث شُيّد هيكل فخم فوق ضريحه بأمر من القدّيسة هيلانة، وذريبانة هي التي أصبحت تحمل في ما بعد اسم هيلانة: إيلينوبوليس. ومن كبار شهداء هذه الحقبة الأسقف الشهير ميتوذيوس الأوليمبي[3].

كان قسطنطين الكبير[4] (٢٧٤ ـ ٣٣٧) قد اعتلى عرش الأمبراطوريّة سنة ٣٠٦، إلاّ أنّه لم يسيطر على كامل الأمبراطوريّة قبل سنة ٣١٢ لمّا هزم خصمه مكسنتيُس[5] في معركة جسر ميلفيو على أبواب رومة سنة ٣١٢. وكان أوّل ما فعله قسطنطين بعد هذا الانتصار أن أطلق الحريّة للدين المسيحيّ بل شجّعه آمرًا بإعادة أملاك الكنائس

---

١ ـ مكسيمينُس الثاني دايا MAXIMINUS DAIA: أمبراطور روماني على الشرق ٣٠٥ ـ ٣١٨، غلبه مناوؤه ليقينيُس فانتحر.

٢ ـ EUSÉBIUS, BK. IX, COL. 5

٣ ـ VAILLANT A., *DE AUTEXUSIO DE MÉTHODE D'OLYMPE*, PATROL. ORIENTALIS, XXII, 5, 636 N.1.

٤ ـ **قسطنطين الكبير** (٢٧٤ ـ ٣٣٧): إبن قسطنطين كلورس، أمبراطور رومانيّ ٣٠٦، هزم خصمه مكسنتيوس على أبواب روما ٣١٢ وأطلق الحريّة للدين المسيحيّ وشجّعه ٣١٣، تخلّص من ليقينيوس ٣٢٤ فوحّد الأمبراطوريّة واضعًا حدًّا للنظام الرباعيّ، أسّس عاصمة جديدة سمّاها القسطنطينيّة ودشّنها ٣٣٠.

٥ ـ **مكسنتيُس** AAXENTIUS MAXENCE: أمبراطور رومانيّ ٣٠٦ ـ ٣١٢، حاول توحيد الأمبراطوريّة تحت سلطته، تغلّب عليه قسطنطين الكبير في معركة جسر ميلفيو حيث قُتل.

المصادَرة إلى المسيحيّين، موجبًا على موظّفي الماليّة أن يقدّموا إلــى الكنــائس الجامعـة دون سواها، ما تحتاجه من الأموال، وكتب إلى مكسيمينُس زميلـه فـي الشـرق موجبًـا إنهاء الاضطّهاد. وفي ٣١٣ صـدر نـصّ رسـميّ عـن جنـاحَي الأمبراطوريّـة يتضمّـن التالي:

نحن قسطنطين أوغُسـطُس وليقينيُـس [١] أوغُسطُس بعد تبادل الـرأي فـي ميـلان، تبيّـن لنـا أنّ مصلحة الدولة تقضي بتنظيم أمور التعبّد ومنح المسيحيّين وجميع الرومانيّين حقّ اتّباع الديـن الذيـن يؤثرون وذلك ليرضى الإله، أيًّا كان، عنّا وعن جميع الخاضعين لنا. وبعـد التبصّـر فـي هـذا الأمـر قرّرنا عدم التعرّض لحريّة المعتقد. وهكذا فإنّنا لا نمنع أحدًا من الناس عن اتّباع دين المسـيحيّين أو أيّ دين آخر يختاره المرء لنفسه آملين أن ننال بذلك رضى الإله الأعلى وبركته[٢].

***

بهـذا انتهـى عصـر الاضطّهـاد، وأصبحـت الديانـة المسيحيّة متسـاوية مـن حيـث الحقوق بالديانات الوثنيّة القديمة. وكان من الطبيعـيّ، وسـط هـذه المسـاواة، أن تسـجّل المسيحيّة انتصـارًا كاسحًا على الديانات الوثنيّة وألاّ يطول الزمـن ليصبـح ديـن المسيح دين الأمبراطوريّة.

---

١ ـ ليقينيُس LICINIUS: أمبراطور رومانيّ في الشرق ٣٠٧ ـ ٣٢٤، اتّفق مع قسطنطين على سياسة التسامح مع المسيحيّين ثـمّ تراجـع عنها فحاربه قسطنطين وقتله.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ١٨١.

صِراعٌ بَينَ المَسيحِيَّةِ وَالوَثنِيَّة

عندما أصبحت المسيحيّة، كدين، متساوية، من حيث القانون، مع الوثنيّة، انتقل الصراع بين الديانتَين من مرحلة اضطّهاد السلطة الأمبراطوريّة للمسيحيّة إلى مرحلة الصراع بين المسيحيّة والوثنيّة.

تمثّل هذا الصراع سياسيًّا بين ليقينيُس أمبراطور الشرق، وقسطنطين أمبراطور الغرب. وكان ليقينيُس لا يزال وثنيًّا، ولم تكن خطوته المشتركة مع قسطنطين في إعطاء الحريّة الدينيّة للمسيحيّين سوى مجاراة لزميله قسطنطين ساعيًا لخطب ودّه ولكسب تأييد المسيحيّين الذين كانوا قد أصبحوا عنصرًا مهمًّا جدًّا في الشرق، ولا سيّما في آسية الصغرى. وبينما راح قسطنطين يهتمّ بشؤون الكنيسة الداخليّة في الغرب، بقي ليقينيُس ممتنعًا عن مساعدة أساقفة الشرق لإعادة بناء كنائسه. وهكذا فعندما بدأت طلائع التنافر بين قسطنطين وليقينيُس سنة ٣٢٠، بدأ هذا الأخير يضيّق على رجال الكنيسة وكبار الموظّفين المسيحيّين. ويذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ الأسباب الحقيقيّة التي كانت كامنة وراء إجراءات ليقينيُس هذه، إنّما هي محاولته كسب تأييد وثنيّي الغرب من جهة، وتخوّفه من تعاون مسيحيّي الشرق مع قسطنطين ضدّه من جهة ثانية.

تفنّن ليقينيُس في تضييقه على المسيحيّين في تلك السنة، فراح يدعو إلى المجامع الكنسيّة، ليحرّم اجتماع الجنسَين من المسيحيّين في مكان مقفل، موجبًا اجتماعهما

للصلاة في الهواء الطلق وخارج المدينة، مصدرًا أمره في وجوب تدريب كهنة من النساء لإرشاد بنات جنسهنّ. وكثر عدد الإكليريكيّين في السجون. ثمّ لجأ ليقينيُس إلى تطهير البلاط من المسيحيّين. وعاد إلى سياسة أسلافه فأمر بوجوب التضحية للآلهة. وكان من الطبيعيّ أن يمتنع الأساقفة والإكليريكيّون وعدد كبير من المؤمنين عن طاعة هذه الأوامر. فتجدّدت المطاردات والتضييقات ومصادرة الأوقاف، وتجدّد تدمير الكنائس وسَوق المؤمنين للعمل في المناجم والحكم على بعضهم بالإعدام. وهنا استُشهد باسيليوس متروبوليت نيوسبونطه التابعة لأنطاكية، وكثر عدد الشهداء في شرق آسية الصغرى، ومن هؤلاء الأربعون شهيدًا[1] في سبسطية[2] في أرمينية الصغرى.

هذه الأعمال أثارت قسطنطين الذي نهى في الخامس والعشرين من أيّار (مايو) ٣٢٣ جميع الموظّفين عن المطالبة بالتضحية للآلهة. ثمّ رفع الصليب عاليًا معلنًا حربه ضدّ ليقينيُس والوثنيّة. وردّ ليقينيُس بدوره مسترضيًا الآلهة سائرًا إلى الحرب.

بانتصار قسطنطين على ليقينيُس في صيف ٣٢٤، استتبّ الأمر لحامل لواء المسيحيّة الذي أصبح الأمبراطور الأوحد.

يختلف المؤرّخون في أمر مسيحيّة قسطنطين. فبينما يعتبر البعض أنّه كان مسيحيًّا مؤمنًا وأنّ دفاعه عن المسيحيّة ومعتنقيها كان نتيجة هذا التديّن، يقول آخرون بأنّ قسطنطين إنّما اتّبع هذه السياسة طمعًا بتأييد المسيحيّة الظافرة له. على أيّة حال فإنّ قسطنطين كان ابن الأمبراطورة هيلانة التي اشتهرت بدفاعها عن المسيحيّين

١ـ الشهداء الأربعون: هم جنود مسيحيّون في الجيش الرومانيّ استُشهدوا في عهد الأمبراطور ليقينيُس لأنّهم أبوا السجود للأصنام فطُرحوا ليلاً في بحيرة جليد سبسطية.

٢ ـ سبَسطية أو سبَطيّة أو سيواس SIVAS: مدينة تقع اليوم في أواسط تركيا الأسيويّة، وتعدّ حوالى ١٥٠,٠٠٠ نسمة.

وبحماسها للمسيحيّة[1]. ومن الثابت أيضًا أنّ قسطنطين قد جعل شارة الصليب شعارًا لعلمه الأمبراطوريّ. وتُروى حكاية عن ظروف اعتناق قسطنطين للمسيحيّة مفادها أنّه شاهد في السماء، في أثناء زحفه على رومة سنة ٣١٢، صليبًا متألّقًا عليه كتابة يونانيّة تقول: "بهذا ستغلب"[2]. والثابت هو أنّ المسيحيّة قد أصبحت في عهد قسطنطين الديانة الرسميّة للأمبراطوريّة. ويُروى أنّ هيلانة والدة قسطنطين المسيحيّة التقيّة قد قامت بزيارة إلى أورشليم سنة ٣٢٦ حيث قيل إنّها وجدت الصليب الحقيقيّ في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة، إذ في ذلك المكان شيّد قسطنطين الكنيسة الأولى للقيامة. كما أنّه أنشأ على نفقة الدولة كنائس قسطنطينيّة ونيقوميذية وأنطاكية وبيت لحم والخليل[3]. واللافت أنّ قسطنطين الذي أصرّ على إعادة الأوقاف المصادَرة إلى المسيحيّين وعلى إعتاق الموقوفين منهم والتعويض على مَن صودرت أملاكهم وعلى ورثة مَن استُشهدوا، لام في الوقت نفسه أولئك الذين اضطّهدوا المسيحيّين، وأبان في خطبه السياسيّة نقائص الوثنيّة، وذمّ العرّافين الوثنيّين، ونادى بسيّد الكون، وأخذ على عاتقه

---

١ - هيلانة (٢٤٧ - ٣٢٧): والدة الأمبراطور قسطنطين، المقول إنّها رهاويّة الأصل إبنة أحد الكهنة المسيحيّين السريان، وإنّه كان لها تأثير فعّال في ميل الأمبراطور إلى المسيحيّة، وتروى عنها حكايات مفادها أنّه عندما قصدت الأراضي المقدّسة للبحث عن خشبة الصليب سنة ٣٢٤، مرّت في جونيه، حيث استقبلها أهلها المسيحيّون بحماس وإكرام، وبعد أن وُفّقت في العثور على الأثر المقدّس في ١٤ أيلول (سبتمبر) من تلك السنة، أوصت إبنها قسطنطين بزيارة القدس تبرّكا. وتنفيذاً لرغبة والدته، قام الأمبراطور بعد موتها سنة ٣٢٧ بتنفيذ الوصيّة، فانطلق بموكب ملكيّ حاشد من مركز حكمه متّجها جنوبًا نحو القدس، سالكًا الطريق الذي سلكته أمّه، فمرّ بأنطاكية حيث أمر بإقامة نصب تذكاريّ لوالدته في بلدة دفنة هناك، ومنها تابع سيره نحو جبيل، واتّجه جنوبًا حتّى بلغ خليج جونيه، حيث توقّف الموكب للإستراحة في الربوع المحيطة، فهرعت الوفود المسيحيّة لاستقباله وتكريمه مثلما كُرّمت أمّه هيلانة من قبل. وتقول الحكاية أنّ الأمبراطور أمر إذذاك ببناء برج في المكان تخليداً لذكرى هيلانة، ولتمكين سكّان المدينة المسيحيّين من الإحتماء فيه ولاستعماله في صدّ الغزوات. ومن هناك أكمل قسطنطين طريقه إلى القدس مرورًا بصيدا حيث أمر ببناء برج آخر للغايات نفسها بجوار سيّدة المنطرة في مغدوشة.

٢ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٨٧.

٣ - EUSÉBIUS, BK. VII, 25 - 53

أمر الدفاع عن المسيحيّة. على أنّه بإعلانه المساواة في الدين منع على المسيحيّين الانتقام من الوثنيّين.

عادت الكنائس لتنتشر من جديد في كافّة أنحاء الشرق ومن بينها كنيسة صور التي أعاد المطران بولينُس بناءها وجعلها على مستوى أكبر ممّا كانت عليه، حتّى أضحت أكبر وأجمل كنيسة في جميع أنحاء فينيقية، وعندما دُشّنت ألقى مؤرّخ الكنيسة الكبير: يوسيبيوس مطران قيصريّة، خطبة قدّم لها بقوله: إنّه عاجز وليس أهلاً لهذا الإكرام. وفي مدينة صور عُقد مجمع كنسيّ سنة ٣٣٥ حكم بالهرطقة على مطران الإسكندريّة أثناسيوس[١].

وقُدّر "لفيلوغونُس"، أسقف أنطاكية الثاني والعشرين بعد بطرس، أن يرى كنيسته البالية القديمة المتهدّمة تعود إلى سابق رونقها ومجدها. وتوفّي هذا الأسقف سنة ٣٢٤ فنعم خلفه أفستاثيُس بسخاء قسطنطين وبالشروع في بناء الكاتدرائيّة الكبرى قرب القصر سنة ٣٢٧. ولم يتمّ بناؤها قبل سنة ٣٤١ وذلك في عهد فلاكيلُس السابع والعشرين بعد بطرس. وجاء في مصنّف أفسابيُس عن حياة قسطنطين وأعماله أنّ "الفضل في المكان الذي صُلب فيه السيّد المخلّص والمكان الذي دُفن فيه جسده الطاهر يعود إلى مكاريُس أسقف أورشليم آنئذ"[٢].

تتّضح مسيحيّة قسطنطين بشكل لا يقبل الشكّ من خلال تشريعاته المستمدّة من التعاليم المسيحيّة، وهي التي شملت عقوبات قاسية تطبّق على كلّ مَن يرتكب جرم الاغتصاب، بمَن فيهم المرأة نفسها إذا ثبتت موافقتها على ذلك! وحرّم اعتداء المربّي

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٢٥٥.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

على عفاف تلميذته، ومضاجعة السيّدة رقيقها، والعهر بخادمات الفنادق والخانات، وأوجب ملاحقة التسرّر وصعّب الطلاق. وعُني قسطنطين في الوقت نفسه بحماية الضعفاء والمساكين والأبرياء، فارضًا العقوبات الشديدة على الوشايات والطعون الكاذبة، واضعًا حدًّا لقساوة السجّانين، مانعًا الأسياد عن الإساءة إلى أرقّائهم، والآباء عن الغلاظة في معاملة أبنائهم، وشجّع الأمبراطور على الاعتناء بالأرامل واليتامى[1].

وكان قسطنطين قد منح الأساقفة شيئًا من السلطة القضائيّة، ومع الأيّام راح يزيدهم سلطة واحترامًا إلى أن منحهم سلطة إعتاق الرقيق بمجرّد إعلان ذلك في الكنيسة بحضور الكهنة، ثمّ اعتبرهم قضاة فأجاز للمدّعي أو المدّعى عليه أن يترافع بدعوى في محكمة مدنيّة أمام الأسقف. واعتبر حكم الأسقف مبرمًا غير قابل للاستئناف. ومن أقواله لرجال الكنيسة: "أنتم أساقفة على مَن هم داخل الكنيسة، وأنا أسقف بمشيئة اللّه على مَن هم في الخارج"[2].

* * *

لقد كان قسطنطين الأمبراطور حبر الدولة الأعظم ورأسها في آن. وسجّل بتدخّله في شؤون الكنيسة، من خلال هذا الموقع، سابقة خطرة سوف تؤدّي في ما بعد إلى مشاكل جدّيّة بين الكنيسة والدولة، سوف ينجم عنها ذلك الانشقاق العظيم الذي شطر الكنيسة الجامعة في القرن الحادي عشر إلى كنيستَين، لا بل إلى كنائس.

١ ـ المرجع السابق، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

٢ - EUSÉBIUS, BK. IV, COL. 24.

الفَصلُ الرّابِع

عَصْرُ الإنقِسام

أنطاكية عاصِمَة المَسِيحيّة

بِدايَة الإنقِسامات: مَسألة عِيدِ الفِصْح . مَسألة "العائدين التائبين" و"الهراطقة" و"الجاحِدين" . مَسألة آريُوس . مَسألة الدُستور المؤرّخ . مَسألة أبولينارُس وَسائر البدع . مَسألة نَسطورُس . مَسألة أوطِيخة .

أنطاكية

عاصمة المسيحيّة

كان انتصار قسطنطين على منافسيه إيذانًا بحدثَين أساسيَّين سوف يطبعان المرحلة المقبلة من التاريخ في الشرق والغرب.

الحدث الأوّل هو انتقال العاصمة الرومانيّة إلى الشرق: إلى القسطنطينيّة؛ والحدث الثاني هو تحوّل أنطاكية إلى عاصمة أساسيّة للمسيحيّين.

أسّس قسطنطين عاصمته في موقع بيزنطية[1] التي كان قد أسّسها الإغريق الأقدمون في القرن السابع قبل الميلاد، على ضفّتَي البوسفور حيث تلتقي أوروبّة بآسية. وفي ١١ أيّار (مايو) سنة ٣٣٠ دشّن قسطنطين عاصمته الجديدة: القسطنطينيّة. "وقد منحها موقعها الاستراتيجيّ الجغرافيّ فوائد عسكريّة واقتصاديّة، واتّحدت كلّ هذه العوامل لتجعل من المدينة الجديدة المركز الطبيعيّ الذي يستطيع العالم الشرقيّ أن يتجمّع حوله بسهولة. وسرعان ما فاقت "رومة الجديدة"، أي القسطنطينيّة، على

---

١ ـ بيزَنْطِيَة أو بِيزَنْطَة: مدينة قديمة مكانها اليوم اسطنبول، أسّسها الإغريق ٦٦٧ ق.م. وغدت سريعًا مركزًا تجاريًا هامًا بسبب موقعها على البوسفور، استولى الرومان عليها ١٩٦ م. قبل أن يختارها قسطنطين موقعًا للمدينة التي حملت اسمه: القسطنطينيّة، التي غدت عاصمة الأمبراطوريّة التي حملت إسم المدينة الأوّل: البيزنطيّة.

البوسفور، رومة القديمة على نهر التيبر. ويدلّ هذا التحوّل ذاته على الاعتراف بالأهميّة الفائقة للقسم الشرقيّ من الأمبراطوريّة. وكانت تقع في الشرق الدولة المتحضّرة الرئيسيّة: فارس، التي كانت رومة في نزاع مستمرّ معها. وكان مركز الثقل في شؤون العالم يتحوّل إلى الشرق من جديد"[1]. وسوف تستمرّ المدينة التي حملت اسم قسطنطين عاصمة للأمبراطوريّة الرومانيّة ثمّ البيزنطيّة[2] طيلة أحد عشر قرنًا تنتهي مع فتح الأتراك العثمانيّين لها في العام ١٤٥٣ ليجعلوها مستقرًّا للسلاطين حتّى نهاية عهدهم.

أمّا أنطاكية التي كانت قد اشتهرت قبل ذلك التاريخ هي وضاحيتها دفنة[3] بحياة الترف والخلاعة، حتّى أنّه لم يُعرف مكان في سورية الرومانيّة ظهر فيه التمتّع بالحياة كهدف رئيسيّ للسكّان، يأتي بعد هدف الواجب، مثلما كان عليه الوضع في أنطاكية من شمال سورية، فقد غدت في نهاية القرن الأوّل، ثالث مدينة في الأمبراطوريّة بعد رومة والإسكندريّة[4].. وفي بداية القرن الرابع كانت بيوت أنطاكية مجهّزة بشبكات

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

٢ ـ الأمبراطوريّة البيزنطيّة: أسّسها في القسم الشرقي من الأمبراطوريّة الأمبراطور أركاديوس ٣٩٥ واستمرّت حتّى الاحتلال العثماني ١٤٥٣ عند سقوط القسطنطينيّة عاصمتها كما سيأتي. نشأت أوّلاً لمجابهة الفرس وتوطّدت بعد تجزئة الأمبراطوريّة الرومانيّة مرّة ثانية إلى دولتين لا سيّما بعد سقوط الأمبراطوريّة الغربيّة إذ أصبحت وريثة الأمبراطوريّة الرومانيّة بأسرها ٤٧٦، لعبت دورًا هامًّا في الخلافات الدينيّة المسيحيّة، عجزت عن صدّ الفاتحين العرب ٦٣٢ فانتزعوا منها سورية ومصر وأفريقية الشماليّة وبلغوا حدود القسطنطينيّة مرارًا، بلغت أوجها في عهد السلالة المقدونيّة ٨٦٧ ـ ١٠٥٧ التي اشتهر من ملوكها: باسيليُس الأوّل (٨٦٧ ـ ٨٨٦) ونيقفورس الثاني فوكاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩) ويوحنّا الأوّل تزيميسكيس (٩٦٩ ـ ٩٧٦).

٣ ـ دفنة أو بيت الماء DAPHNE: ضاحية لأنطاكية هي اليوم حربية، حملت اسم دافنة التي هي في الميثولوجيا اليونانيّة حوريّة حوّلها الإله زفس إلى شجرة غار هربًا من الإله أبولون، غنيّة بالينابيع، أصبحت في عهد السلوقيّين مركز لهوٍ وتهتّك شُيّد عليه هيكل للإله أبولون أقيمت له أعياد سنويّة حافلة.

٤ ـ HADDAD GEORGES, *ASPECTS OF SOCIAL LIFE IN ANTIOCH IN THE ROMAN - HELLENISTIC PERIOD* (CHICAGO, 1949) PP. 70 - 73.

المياه وشوارعها مضاءة بالمصابيح، ما جعل مؤرّخي تلك الحقبة يصفونها بملكة العرائس[1].

أنطاكية هذه، كانت من الناحية الإداريّة تشكّل قاعدة لإقليم ينتسب إليها ويتضمّن خمس عشرة مقاطعة هي: فلسطين الأولى، فينيقية البحريّة، فلسطين الداخليّة SALUTAIRE، فينيقية اللبنانيّة، سورية الثانية أو الداخليّة، سورية الثالثة أو الفراتيّة، منطقة الوهى OSROHÈNE، ما بين النهرَين، قيليقية الأولى ISAURIE، قيليقية الثانية EUPHRATÈSIE، شبه الجزيرة العربيّة[2].

بانتقال عاصمة الأمبراطوريّة إلى القسطنطينيّة أصبحت أنطاكية العاصمة الكبرى للمسيحيّين في العالم. وإنّ كونها قاعدة لذلك الإقليم الشرقيّ الكبير الذي يضمّ ما ورد من مقاطعات، هو الذي سيجعل بطاركتها في ما بعد يلقّبون ببطريرك أنطاكية "كمدينة أو منطقة" وسائر المشرق. ومن هنا نرى اليوم أنّ أكثر الكنائس المسيحيّة في الشرق، سواء كانت تابعة للكنيسة الغربيّة أو الشرقيّة، يحمل بطاركتها لقب بطريرك أنطاكية وسائر المشرق. ذلك أنّ هؤلاء جميعًا هم بطاركة على كنائس ذوات جذور أنطاكيّة. غير أنّ خلف هذا التعدّد في الكنائس والانتماءات سببًا واضحًا ألا وهو الانقسامات.

---

١ - راجع: AMNANIUS MARCELLINUS, *RERUM GESTARUM*, BK. XIV, CH. 1 COL. 9

٢ - CLAUDE SÉLIS, *LES SYRIENS ORTHODOXES ET CATHOLIQUES*, (EDITION BREPOLS, 1948) P. 210.

بدَايَة الانقِسَامات

بدأت الانقسامات في روما يوم كانت كنيستها متقدّمة على سواها من كنائس الأمبراطوريّة، فلقد كان أسقفها هو أسقف عاصمة الدولة، وممثّل الكنيسة الجامعة أمام السلطة المدنيّة العليا، يدافع عن حقوق هذه الكنيسة الجامعة ويتحمّل مسؤوليّة أقوال المسيحيّين وأفعالهم في جميع أنحاء الأمبراطوريّة الرومانيّة[1]. أمّا وقد غدت أنطاكية متقدّمة على رومة بعد قسطنطين، فقد انتقل مركز الصراع إليها.

في رومة بدأ الخلاف على كيفيّة ممارسة عيد الفصح إذ حاول البابا فيكتوريُس الأوّل (١٨٩ ـ ١٩٩) أن يفرض رأي رومة في كيفيّة هذه الممارسة على أساقفة آسية الصغرى. وقام بعده البابا إسطفانُس الأوّل (٢٥٤ ـ ٢٥٧) ليوجب الاعتراف بمعموديّة التائبين العائدين إلى حضن الكنيسة والاكتفاء بفرض الندامة والتوبة مهدّدًا أساقفة أفريقية وآسية الصغرى وأنطاكية بالقطع[2] إن هم خالفوا العرف والتقليد الرومانيّين. فقد كان موضوع الخلاف في الكنيسة قبل أنطاكية منحصرًا في هاتَين المسألتَين: مسألة عيد الفصح ومسألة العائدين التائبين.

---

١ ـ IRENAEUS, *ADVERSUS HAERESES*, I, P. 27, III, P. 3.

٢ ـ القطع: بالمفهوم الكنسيّ في ذلك الوقت كان يعني الفصل عن الكنيسة.

مَسألةُ عِيدِ الفِصْحِ[1]

كان المسيحيّون الأوّلون يؤمّون الكنيسة صباح الأحد في مثل الساعة التي قام فيها السيّد المسيح من الموت، وذلك إحياءً لمناسبة القيامة المجيدة. وكانوا في الرابع عشر من نيسان العبريّ يعيّدون تذكار الآلام والقيامة ثلاثة أيّام متتالية تنتهي في السادس عشر من ذلك الشهر. إلاّ أنّهم، قبل نهاية القرن الأوّل، اختلفوا في تعيين ذكرى الآلام والصلب وفي تعيين اليوم الذي يحيون فيه ذكرى القيامة. ذلك أنّ كنائس آسية الصغرى وقيليقية وسورية الشماليّة وما بين النهرَين بقيت على التقليد القديم مكتفية بإحياء مناسبة الآلام والقيامة في الأيّام الثلاثة الواقعة بين الرابع عشر والسادس عشر من نيسان العبريّ، بينما كنائس بلاد اليونان وإيطالية وأفريقية ومصر وفلسطين والبونط[2] خصّت يوم الجمعة وحده بالآلام ويوم الأحد بالقيامة، "وكانت، في السنين التي لا يوافق فيها الرابع عشر من نيسان العبريّ يوم جمعة، تذكر الآلام في أوّل يوم جمعة بعده، ومثله يوم الأحد للقيامة"[3].

١ ـ الفِصح: هو عند المسيحيّين عيد تذكار قيامة السيّد المسيح الفادي من الموت. أمّا فصح اليهود، فعيد تذكار خروجهم من مصر، والكلمة تعريب فِسح العبرانيّة التي تعني: اجتياز وعبور أو نجاة، تدليلاً على عبور موسى واليهود من مصر بحسب التقليد اليهودي.

٢ ـ البونط أو البُنط أو بُنطُس PONT: بلاد في شمال شرقي آسية الصغرى على شواطئ البحر الأسود، نُسبت إلى "بونتوس أوكسينُس PONT - EUXIM" أي "البحر الأسود"، أسّس فيها أحد ملوك آسية الصغرى كتيستس ميتريدات مملكة مستقلّة نحو ٣٠٢ ق.م. واحتلّ كبدوقية وحرّر شعب البنطس من النفوذ السلوقي، وفي عهد أوباتور ميتريدات السادس ١١١ ـ ٦٣ ق.م. توسّعت ممتلكات البونط إلى أن اصطدم أوباتور بالرومان ٨٨ ق.م. فحاربهم في آسية واليونان والجزر، غلبه القائد الروماني بومبيُس نهائيًا على الفرات ٦٦ ق.م. فطلب الموت من يد أحد جنوده، وأضحت بلاد البونط تحت الحكم الرومانيّ.

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٨١.

هذا لناحية التاريخ، أمّا لناحية مفهوم المناسبة، فقد اختلفت تلك الكنائس حول اعتبار يوم الآلام يوم فرح أو حزن. إذ بينما اعتبرت كنائس آسية الصغرى يوم الآلام يوم فرح بحجّة أنّه يوم تحرير من العبوديّة، جاعلة منه نهاية للحزن والصوم، كان سائر الكنائس يعتبر يوم الصلب يوم حزن فلا يسمح بحلّ الصوم قبل تذكار القيامة. ويبدو أنّ الاعتبار الأوّل كان مستمدًّا من يوحنّا الحبيب وفيليبّس، بينما الثاني من تعاليم بطرس وبولس[١].

هذا الخلاف، وإن كان قد أوجد فتوى غير مستحبّة في مسألة عيد الفصح، فإنّه لم يؤدّ إلى انقسام خطير في الكنيسة، إذ أصبح المؤمنون، بحسب الانتماء الإقليميّ، يعيّدون كلّ على طريقة إقليمه، حتّى جاء البابا فيكتوريُس[٢] محاولاً فرض رأي رومة في كيفيّة ممارسة عيد الفصح. قبل ذلك التاريخ كان أساقفة الشرق قد عقدوا مجامع محليّة في قيصريّة فلسطين وبين النهرَين وغلاطية والبونط وكورنتس، بحثوا فيها مسألة الفصح وأقرّوا رأيًا واحدًا يقضي بمراعاة عادة ذكر القيامة في يوم الأحد وأن لا يُحلّ الصوم إلاّ فيه.[٣]

بيد أنّ هذه المسألة قد تفاقمت في نهاية القرن الثاني إذ في العام ١٩٨ تداعى أساقفة قيصريّة وأورشليم وصور وعكّة وعقدوا مجمعًا في قيصريّة برئاسة أسقفها ثيوفيلُس[٤]، وأقرّوا "أنّ يوم الربّ هو أوّل أيّام الخلق والسبت آخرها". ثمّ بيّنوا "أنّ

---

١ - USÈBE, *HIST.* ECC. V, PP. 23 - 25.

٢ - البابا فيكتوريُس الأوّل (١٨٩ - ١٩٨): وُلد في أفريقية، قدّيس.

٣ - BATIFFOL, *L'EGLISE NAISSANTE,* P. 271; HEFELE - LECLERQ, *HISTOIRE DES CONCILS,* I.P. 150.

٤ - **ثيوفيلُس القيصري**: أسقف قيصريّة فلسطين أواخر القرن الثاني، وهو غير القديس ثيوفيلُس الأنطاكيّ الذي كان أسقفًا لأنطاكية في الحقبة نفسها ويُعدّ من آباء الكنيسة وله مؤلّفات في عقيدتَي التوحيد والتثليث، وغير ثيوفيلُس أسقف الإسكندريّة ٣٨٥ - ٤١٢.

الربيع هو أوّل فصول السنة". وأنّ "العالم وُجد في الخامس والعشرين من آذار[١]! حينما كانت الشمس في وسط المشرق والقمر بدرًا". ثمّ شرعوا بتعيين عيد الفصح، فأجمعوا على أن "يقع في يوم الربّ (الأحد[٢]) لأنّ الظلام انقشع في هذا اليوم، وأشرق النور، ولأنّ الشعب تحرّر فيه من أرض مصر كما من ظلام الخطيئة، ولأنّ الشعب، مُنح فيه طعامًا سماويًّا، ولأنّ موسى أوجب تكريمه، ولأنّ المرتّل قال عنه أنّه اليوم الذي نبتهج ونفرح فيه، ولأنّه اليوم الذي قام فيه الربّ"[٣].

إثر هذا المجمع الإقليميّ راسل الأساقفة المجتمعون الكنائس الأخرى داعينها إلى إقرار رأي المجمع، وذكروا في رسائلهم تلك أنّ كنيسة الإسكندريّة قد وافقتهم الرأي[٤]. غير أنّ أساقفة آسية الصغرى أصرّوا على المحافظة على التقليد القديم، وواجهوا مجمع قيصريّة فلسطين بمجمع عقدوه في أفسس اشترك فيه خمسون أسقفًا. وبعد التداول كتب أسقف أفسس بوليكراتس بلسان مجمعه إلى روما وسواها يؤكّد على أنّهم "لا يزيدون على التسلّم الرسوليّ ولا ينقصون منه وأنّه رقد في بلادهم يوحنّا الذي اتّكأ على صدر الربّ، وفيليبُّس أحد الإثنَي عشر، وبوليكاربُس الشهيد، وأنّ هؤلاء جميعهم حافظوا على اليوم الرابع عشر للفصح وفقًا للإنجيل". وممّا قاله بوليكراتس موجّهًا كلامه إلى كنيسة روما: "أنا أصغركم جميعًا. وما دام لي خمس وستّون سنة في خدمة

---

١ - كما يلاحظ فإنّ هذه الاعتبارات مستقاة من العهد القديم.

٢ - أصل كلمة أحد "وَحَد"، وأبدلت الواو همزة، ومعناها الأصلي "الذي لا نظير له"، سُمّي يوم الربّ الأحد ليس فقط لأنّه أوّل أيّام الأسبوع، بل لأنّ الكلمة أيضًا مرادف لواحد في وصف الباري تعالى فيقال "هو الواحد وهو الأحد" ولا ينعت به في هذا المعنى سوى الله.

٣ - المطران ساويرُس يعقوب، الكنيسة السريانيّة الأنطاكيّة، ج١، ص ١٢١ - ١٢٢.

٤ - USÈBE, *HIST.* ECC., V, COL. 26

الرب، وقد اجتمعت بالإخوة الذين من المسكونة وقرأت كلّ كتاب مقدّس، لا أجزع ولا أخاف لأنّ الذين هم أعظم منّي قالوا إنّه يجب الخضوع للّه أكثر من البشر. وكنت أستطيع أن أذكر الأساقفة الحاضرين معي الذين رُمتم أنتم أن أجمعهم، وقد جمعتهم ووافقوا على الرسالة لعلمهم أنّي لم أحمل هذه الشيبة عبثًا بل سلكت بالربّ دائمًا"[١].

أحدثت هذه الرسالة ضجّة في روما، ويبدو أنّ البابا فيكتوريُس كان يتّجه إلى قطع كنائس آسية واعتبارها خارجة عن الدين القويم، إلاّ أنّ القدّيس إيريناوُس[٢]، الذي كان أسقفًا لليون[٣]، وعددًا أخر من الأساقفة قد اعترضوا على هذا الموقف وآثروا عدم انقسام الكنيسة مقنعين البابا بوجهة نظرهم، ما وفّر على الكنيسة، حتّى ذلك التاريخ، مرارة الانشقاق، ولكنّ مشكلة الفصح بقيت معلّقة.

---

١ - المرجع السابق V COL. 24؛ وراجع: رستم، كنيسة مدينة الله، ج١، ص ٨٥.

٢ - إيريناوُس IRAENEUS: من آباء الكنيسة، قدّيس، وُلد في آسية الصغرى وتتلمذ على بوليكاربُس، صار أسقف ليون في فرنسا ويقال إنّه مات فيها شهيدًا ٢٠٢، له كتاب "ضدّ البدع".

٣ - ليُون LYON: مدينة كبرى في جنوب شرقي فرنسا على ملتقى نهري الرون والسون، اتّخذت اسمها من خليج ليون أي خليج الأسد LION من متفرّعات البحر الأبيض المتوسّط عند شاطئ الجنوب الفرنسي، من أهمّ موانئه مرسيليا.

مَسألةُ "العَائدِينَ التَّائبِين" و"الهَراطِقَة" و"الجَاحِدِين"

أدّت شدّة الاضطّهادات التي حصلت في نهاية القرن الثالث، قبل قسطنطين، إلى أن ارتدّ عن المسيحيّة ظاهريًا مَن لم يتحمّلوا العذاب. وعندما استتبّ الأمن للكنيسة أظهر بعض هؤلاء توبتهم ورغبتهم في العودة إلى المسيحيّة، فكان هذا سببًا آخر للخلاف داخل الكنيسة.

رأى بعض رؤساء الكنيسة وجوب التشدّد مع هؤلاء "العائدين"، خاصّة رجال الإكليروس منهم، وبشكل أخصّ أصحاب المراتب العليا، بينما رأى فريق آخر وجوب التساهل. ومن الغلاة من أصحاب الرأي الأوّل مَن اعتبر أنّ الذين تحمّلوا العذاب باسم يسوع دون أن يرتدّوا عن إيمانهم أو أن يتظاهروا بالارتداد هم الذين يجب أن يبتّوا أمر عودة الذين ضعفوا.

هذه المسألة كان لها سابقة في منتصف القرن الثالث، ما أدّى إلى انعقاد مجمع محليّ في قرطاجة اتّخذ قرارًا بفصل بعض المتشدّدين المعاندين المستمرّين في تقبيح "العائدين". وقد حصلت ضجّة في الكنيسة إثر ذلك المجمع الذي عُقد مجمع محليّ آخر بعده بسنة في رومة، أيّد موقف مجمع قرطاجة. وكان يومها كورنيليُس[١] رئيسًا لأساقفة رومة، فتجمّع معارضوه وساموا أسقفًا منهم على رومة، هو نوفاتيانُس، فأصبح بذلك على رومة باباوان[٢].

---

١ ـ جلس كورنيليُس على كرسيّ رومة ٢٥١ ـ ٢٥٣، وجلس نوفاتيانُس المعارض على الكرسيّ الموازي ٢٥١ ٢٥٨، فيما خلف كورنيليُس على الكرسيّ الأوّل لوقيّس الأوّل ٢٥٣ ـ ٢٥٤، وإسطفانُس الأوّل ٢٥٤ ـ ٢٥٧، وسيكستُس الثاني ٢٥٧ ـ ٢٥٨، ثمّ جاء ديونيسيُس ٢٥٩ ـ ٢٦٨ ليجلس وحده دون معارض.

٢ ـ USÈBE, *HIST.* ECC. VI, 43.

إنتقل الانقسام من رومة إلى الشرق بواسطة الرسائل التي حرّرها كلّ من الطرفَين إلى كنائسه. فبينما رأى أسقف الإسكندريّة رأي كورنيليُس، آثر أسقف أنطاكية رأي الفريق الآخر، كلّ ذلك في مسألة "العائدين التائبين". ولم تُجدِ محاولات ديونيسيُس[1] نفعًا في دعوة الطرفَين إلى الاعتدال اتّقاءً لانقسام الكنيسة[2]، فظهرت بوادر الانشقاق في كنيسة أنطاكية[3]، ما جعل أسقفها فابيُس يدعو إلى مجمع محليّ للبحث في هذه المسألة. فكان المجمع الأنطاكيّ الأوّل الذي عُقد سنة ٢٥٢ بعد أن تُوفّي الداعي إليه. وقد أيّد هذا المجمع بابا رومة كورنيليُس (٢٥١ ــ ٢٥٣) بعد أن انتُخب: ديميتريانُس (٢٥٢ ـ ٢٦٠)[4] خلفًا لفابيُس.

لم يكن الخلاف الذي عصف بالكنيسة مقتصرًا على مسألة "التائبين العائدين"، بل كان يتناول أيضًا قضيّةً مشابهةً هي مسألة معموديّة "الهراطقة*" و"الجاحدين"، وكان الفريق المتشدّد بالنسبة "للعائدين" متشدّدًا في الوقت نفسه بالنسبة لمعموديّة "الهراطقة والجاحدين"، فيما أبدى الفريق الآخر لينًا تجاه هؤلاء.

هذه المسألة كانت قد بدأت تشكّل موضوع خلاف داخل الكنيسة منذ العام ٢١٧.[5] وبعد هدوئها لبعض الوقت، عادت لتتفاقم مع بروز الخلاف حول مسألة "العائدين التائبين"، فدخلت الكنيسة الجامعة في أزمة خطيرة.

---

١ - ديونيسيُس Denys: هو الذي أصبح في ما بعد بابا رومة (٢٥٩ ـ ٢٦٨) وقد طوّبته الكنيسة قدّيسًا.

٢ - Usèbe, *Hist.* Ecc. VI, 44.

٣ - Bardy G., *Paul De Samosate*, P. 214.

٤ - Usèbe, *Hist.* Ecc. VIII, 5

٥ - Lebreton J., *St. Cyprien*, Fliche et Martin, II, pp. 199 - 200.

كان المتشدّدون يطالبون بإعادة معموديّة المرتدّين عن "الهرطقة" و"الجحد"، بينما كان المتساهلون ينهون عن وجوب إعادة معموديّة هؤلاء. وقد انعقد لكلّ من الفريقين مجامع محليّة في الغرب والشرق ظهر فيها الخلاف على أشدّه. وتبودلت رسائل بين الكنائس المختلفة، لا يزال بعضها محفوظًا، يدلّ مضمونها على مدى التباعد في اختلاف وجهتي النظر، وعلى مدى عمق الخلافات. وكان على رأس القائلين بالتساهل كبريانُس[1] أسقف كرسيّ قرطاجة[2] الذي دعا إلى مجمع حضره سبعة وثمانون أسقفًا وعدد كبير من القساوسة والشمامسة صدر عنه: "إنّ اختلاف الآراء لا يضرّ ولا ينافي الاتّحاد في الإيمان ولا يفكّ الربط بين الكنائس"[3].

وكان على رأس الفريق الآخر البابا إسطفانُس (٢٥٤ ـ ٢٥٧) الذي كتب إلى كنائس الشرق رسائل توضح وجهة نظره بشأن العماد المعطى على يد "الهراطقة"، فأرسل إنذارات شديدة اللهجة إلى أساقفة أفريقية وإلى كنائس الشرق: قيليقية، وقبدوقية، وغلاطية، موجّبًا عبرها المحافظة على تقاليد رومة الموروثة مهدّدًا بقطع العلاقات.

---

١ ـ كبريانُس CYPRIEN (حوالى ٢١٠ ـ ٢٥٨): من آباء الكنيسة، أسقف قرطاجة، قُطع رأسه في عهد فاليريانُس الأمبراطور الرومانيّ ٢٥٣ ـ ٢٦٠، له مؤلفات في الكنيسة وحياتها.

٢ ـ قرطاجة CARTAGE: مدينة فينيقيّة أنشأتها ديدون ـ أليسار الصوريّة أخت بغماليون ملك صور في تونس في القرن التاسع قبل المسيح، صارت عاصمة أمبراطوريّة جبّارة قاومت رومة مدّة الحروب الفونيّة PUNIQUES الثلاثة التي نشأت من النزاع بينها وبين رومة على السيطرة في المتوسّط الغربي في ٢٤٦ ـ ٢٤١ ق.م. و٢١٨ ـ ٢٠١ ق.م. التي كان بطلها هنيبعل القرطاجي و١٤٩ ـ ١٤٦ ق.م. يوم تمكّن الرومان من تدمير المدينة، أنشئ فيها أسقفيّة مسيحيّة.

٣ ـ CYPRIEN, *EPIST.* LXXII.

كان يومها على قيصريّة قبدوقية التابعة لكنيسة أنطاكية أسقف اشتهر بعلمه وتمسّكه بسلامة العقيدة هو القدّيس الأنطاكيّ فرميليانُس. كان فرميليانُس لا يتّفق مع رومة، وقد ورث هذا الموقف عن أستاذه أوريجينِس الإسكندريّ[1]. وكان عاتبًا على البابا إسطفانُس نفسه "لقلّة اهتمامه ببعض الأساقفة الشرقيّين الذين أوفدوا إليه"[2].

لكلّ هذه الأسباب وقفت أنطاكية، من خلال موقف فرميليانُس، موقفًا مناهضًا لرومة في هذه المسألة. وعندما هدّد إسطفانُس رومة بقطع العلاقات أجابه فرميليانُس قبدوقية برسالة لا سابقة لمضمونها من حيث قوّة اللهجة إذ جاء فيها: "إنّك قد بذرت خصومات لا تُعدّ ولا تُحصى في كلّ كنائس المسكونة، ويا ليتك تعلم تحت أيّة خطيئة وضعت نفسك إذ انفصلت عن هؤلاء الناس جميعًا. وإنّك بعملك هذا لا تفصل عن شركة الاتّحاد الكنائسيّ سوى نفسك فتصبح أنت العاصي"[3].

من شأن هذا الكلام أن يدلّ بوضوح على مدى شراسة المعركة التي قادها رؤساء الكنيسة في مواجهة بعضهم البعض قبل نهاية القرن الثالث الميلاديّ، والتي كانت إيذانًا بتشتّت كنيسة المسيح وتشرذمها. وكان المؤمنون، دونما أيّ شك، يتأثّرون بمواقف رؤسائهم الروحيّين وينقادون كالقطعان لرعيانها. وهذا ما سيؤدّي في ما بعد إلى تدخّل الأباطرة في شؤون الكنيسة: في مملكة الذي مملكته ليست من هذا العالم، فأصبحت كنيسته بسبب بعض رؤسائها تحت وصاية الذين ممالكهم من هذا العالم.

---

١ - أوريجينِس ORIGÈNES (١٨٥ - ٢٥٣): وُلد في الإسكندريّة وأصبح من أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتيّة ومن نوابغ الفكر البشري، ترك آثارًا واسعة في اللاهوت وشرح الأسفار المقدّسة، تطرّف في بعض تعاليمه.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ١١٦ عن: LEBRETON J., ST. CYPRIEN, FLICHE ET MARTIN, II. P. 203

٣ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ١١٧.

مات البابا إسطفانُس قبل أن ينفّذ شيئًا من تهديداته وخلفه البابا سيكستُس الثاني (٢٥٧ ـ ٢٥٨) ذو الطبع المسالم، فتجاوب مع دعوات التقارب وإعادة اللحمة بين الكنائس التي كان على رأسها ديونيسيُس أسقف الإسكندريّة، فترطّبت الأجواء وتوقّف التراشق، إلاّ أنّ الخلاف في الرأي بقي قائمًا رغم تزايد عدد المسيحيّين بشكل كبير، ما أعطى الرؤساء الروحيّين مكانة في الدولة[١]. ويمكن الجزم بأنّ هذا الواقع قد جعل أصحاب الطموحات في السياسة والثروة والسلطة يتهافتون على الكهنوت بدرجاته العالية ليؤمّنوا لأنفسهم المناصب والثروات. يؤكّد على ذلك قول المؤرّخ الكنسيّ أفسابيُس: "... إنّ هؤلاء الذين يتظاهرون أنّهم رعاتنا قد استخفّوا بقواعد الدين وتلهّبوا حسدًا ولم يتقدّموا في شيء سوى المجادلة والمنازعة والمناظرة والمشاغبة والمباغضة"[٢]. حتّى أنّ كبريانُس القرطاجيّ قد اتّهم أساقفته "باحتقار السماويّات وإهمالها ليتفرّغوا للأمور البشريّة، فتركوا الوعظ والإرشاد ليجرُوا وراء المال وجني الربا بالطرق المعوجّة"[٣].

في هذه الأجواء، أصبح بولس السميساطيّ أسقف أنطاكية (٢٦٠ ـ ٢٦٨) موظّفًا مدنيًّا عاليًا ذا مهام ماليّة ومشرفًا على الجباية في مملكة زينب[٤] التدمريّة التي منحته لقب ذوقيناريُس. وقد تمتّع هذا الأسقف بصلاحيّات ملكيّة هائلة، حتّى أنّ الأساقفة

---

١ ـ BARDY, G., PAUL DE SAMOSATE, P. 260 - 261

٢ ـ USÈBE, *HIST.* ECC., VIII, 1

٣ ـ CYPRIANUS, *DE LAPSIS*, 6.

٤ ـ زَيْنَب أو زَنوبيا أو الزَّبَّاء: ملكة تدمر العربيّة ٢٦٦ ـ ٢٧٢، خلفت زوجها أذينة بالوصاية على ابنها وهب اللات فتابعت سياسته التحريريّة من الرومان وفتحت مصر وآسية الصغرى وأعطت ابنها لقب أغسطس وضربت النقود باسمها فعرفت تدمر في عهدها أوج عزّها، حمل عليها أورليانس بجيش كبير فغلبها أمام أنطاكية وحمص ٢٧٢ واقتادها أسيرة إلى رومة حيث ماتت.

الذين نظروا بأمره في ما بعد قالوا إنّه لم يكن أحد يجرؤ أن يشكو جوره[1]. "وتاه بولس بجوره وتكبّر. وسار في الشوارع بأبّهة الحكّام وفخفختهم. وصنع لنفسه عرشًا عاليًا في الكنيسة، وأذن لمريديه بتقريظه فيها. ومنع تسبيح السيّد المخلّص في الكنيسة مدّعيًا أنّ تلك التسابيح إنّما أحدثها رجال متأخّرون، واستعاض عنها بمزامير داوود وبتسابيح خصوصيّة أُعدّت لتمجيده هو وأنشدتها النساء له في الكنيسة نفسها. وأطلق بولس لسانه في انتقاد الآباء الأوّلين"[2].

لقد جعلت تصرّفات بولس بعض المؤرّخين يفترضون أنّه كان قد عرف أشياء عن اليهود ودينهم وعن التوراة قبل وصوله إلى الكرسيّ الأنطاكيّ، وأنّ زينب التي اشتهرت بعطفها على اليهود اختارت بولس من هذا المنطلق[3].

شقّ بولس كنيسة أنطاكية نفسها. ذلك أنّ أساقفتها رأوا في بولس، الذي نشأ فقيرًا فاغتنى بطرق غير شرعيّة وساكَنَ النساء واستصحب بعضهنّ على الرغم من حداثتهنّ ومظهرهنّ المغري، ليس أهلاً لقيادة الكنيسة، بينما انقاد له بعض أساقفة الريف وكهنته وشمامسته. ويرى المدقّقون أنّ كنيسة أنطاكية قد انقسمت في ذلك العهد إلى معسكرَين: "أبناء الريف وأمّهات القرى من جهة، وهؤلاء بأكثريّتهم شرقيّون سريان وعرب، ومن جهة أخرى أبناء المدن الكبيرة وهم يونانيّون ورومانيّون ومتهلّنون... وكان من الطبيعيّ أن يرى الشرقيّون العرب في زينب العربيّة زعيمة وطنيّة تحاول

---

١ - USÈBE, *HIST.* ECC., VII., 30.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ١٢٠ - ١٢١؛ عن: USÈBE, HIST. ECC., VII., 30

٣ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ١٢٠؛ عن: BARDY G., PP. 250 - 258; AUBÉ B., *L'EGLISE ET L'ETAT*, I, P. 453.

التحرّر من حكم رومة وكلّ ما يمتّ إلى الغرب بصلة، فساروا مع بولس ومشى معهم أولئك اليهود الذين عطفت عليهم زينب"[1]..

بلغت الخطورة التي شهدتها كنيسة أنطاكية في عهد بولس السميساطيّ حدّ الضلالة، إذ طلع هذا الأسقف الزمنيّ ببدعة تقول بأنّ "المسيح مخلوق صالح حمل في أحشائه روح الله"[2]، فنشأت مقاومة أسقفيّة روحيّة أنطاكيّة عنيدة لبولس الضالّ، ما أدّى إلى اتّساع الانشقاق وإلى حصول اضطرابات كبرى داخل الكنيسة الأنطاكيّة وإلى تدخّل رومة بحسب بعض الباحثين، ما جعل أسقف طرطوس إلينُس يدعو الأساقفة الأنطاكيّين إلى اجتماع للنظر في قضيّة بولس. كان ذلك المجمع الأنطاكيّ الثاني الذي انعقد سنة ٢٦٤ وحضره عدد كبير من الأساقفة والكهنة والشمامسة من مختلف الاتّجاهات. ويبدو أنّ ما نوقش في المجمع الأنطاكيّ الثاني هو مدى صوابيّة إيمان بولس والتزامه بالخطّ المسيحيّ القويم، إذ كان ظهر أنّ بولس قد شارك المونارخيّين رأيهم في البدعة القائلة بأنّ اللّه أقنوم واحد، كما شارك الأراطمة رأيهم في البدعة القائلة بأنّ اللّه قد تبنّى المسيح[3] .

تمكّن أتباع بولس من ستر هرطقتهم، وجاهد الأساقفة الآخرون لكشف حقيقة ضلال أولئك ففشلوا، كما أنّ زينب كانت داعمة لبولس بكلّ ما لها من مقدرة. كلّ هذه العوامل، إضافة إلى الموقف الذي اتّخذه بولس في هذا المجمع، وهو موقف

---

١ - HARNACK A., *LEHRBUCH DER DOGMENGESCHI CHTE*, I, P. 722; HARNACK, *MONARCHIANISMUS*, XII, P. 320

٢ - AUGUSTINUS, DE CIVIT. DEI. XIX, P. 23.

٣ - BARDY G., PP. 324 - 351; RIEDMATTEN H., *ACTES DU PROCÈS DE PAUL DE SAMOSATE* (1952) PARADOSIS 6; USÈBE, *HIST. ECC.*, VII, 28.

سياسيّ مناور، اعترف من خلاله بأنّه "قال قولاً جديدًا" وقطع العهود على نفسه بالعودة إلى الاستقامة، أدّت إلى انتهاء المجمع دون أن يتّخذ قرارًا بشأن بولس.

ما أن انتهى المجمع الأنطاكيّ الثاني إلى ما انتهى إليه حتّى استأنف بولس مسيرته الخاصّة. ولم تنفع رسائل الأحبار التي بعثوها إليه واعظين مرشدين، فكانت دعوة أسقف طرطوس ثانية إلى مجمع في أنطاكية عُقد سنة ٢٦٢ وحضره حوالى الثمانين أسقفًا[١].

هذه المرّة استعان الأساقفة بـ "ملكيون"، وهو كاهن كان يدرّس المنطق في إحدى مدارس أنطاكية الهلّينيّة. كذلك استقدموا كتّابًا ماهرين لتدوين المناقشة. نتيجة ذلك تمكّن المجمع هذه المرّة من إدانة بولس بالهرطقة وبحبّ المال والجاه والفخفخة، وبإقدامه على مساكنة النساء والسماح لبعضهنّ بأن يرتّلن في الكنيسة، وخلع المجمع بولس عن كرسيّ أنطاكية وانتخب دومنوس مكانه. وصدر عن ذلك المجمع رسائل محبّة إلى رومة والإسكندريّة وسائر أساقفة الكنائس والكهنة والشمامسة طالبين عبرها اعتراف هؤلاء برئاسة دومنوس على كنيسة أنطاكية[٢].

رغم اعتراف رومة والإسكندريّة برئاسة دومنوس، بقي بولس ممتنعًا عن طاعة المجمع، وظلّ يعتبر نفسه رئيسًا على كنيسة أنطاكية[٣]، متمتّعًا، بفضل دعم زينب، بالسلطتَين الروحيّة والزمنيّة في المدينة، إلى أن زال عهد زينب على يد أوريليانُس[٤]،

١ - USÈBE, *HIST. ECC.*, VII, 29; ATHANASE DE SYNODE., P. 43; HILAIRE, DE SYNODE., P. 86.

٢ - USÈBE, *HIST. ECC.* , VII, 30; BARDY G., PP. 313 - 315.

٣ - USÈBE, *HIST. ECC.* , VII, 30; PIERRE IBN RAHIB, *CHRONICON ORIENTAL*, P. 117.

٤ - أوريليانُس AURELIANUS: وُلد ٢١٤، أمبراطور رومانيّ ٢٧٠ - ٢٧٥، انتصر على زنوبيا وجاء بها إلى رومة.

إذ فرّت أمام جيشه الظافر من أنطاكية إلى تدمر ومنها إلى الفرات حيث أدركها الرومان وأسروها. كان ذلك في أوائل سنة ٢٧١، وكان دومنوس قد توفّي وخلفه تيمايوس في رئاسة أنطاكية فقصد الأمبراطور الظافر عارضًا مسألة الكنيسة طالبًا إخراج بولس من كرسيّ الأسقفيّة وكفّ يده. ولقد كان من الطبيعيّ أن يتجاوب أورليانُس الرومانيّ الغربيّ مع طلب أساقفة أنطاكية المتعاونين الذين قاسوا الأمرّين في عهد زينب، فأمر بأن "تعطى كرسيّ الأسقفيّة إلى أولئك الذين كانوا على صلة بالمراسلة بأساقفة العقيدة المسيحيّة في إيطالية ومدينة رومة"[١]. وغاب بولس السميساطيّ عن أنطاكيّة وانقطعت أخباره، كما انزوى أتباعه منتظمين في شبه كنيسة مستقلّة في أنطاكية حتّى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ برئاسة أسقف كان يدعى لوقيانُس، وهو غير لوقيانُس المعلّم الشهير. وسيكون لنا عودة إلى هذا المجمع الشهير.

كان لوقيانُس هذا ابن بلدة بولس: سميساط. وقد استقدمه بولس إلى أنطاكية بعد أن أصبح رئيس كهنتها ورسمه كاهنًا ولقّنه تعاليمه[٢]. وكان مجمع أنطاكية الثالث قد قطع لوقيانُس هو الآخر الذي سيصبح في ما بعد من آباء الدعوة الآريوسيّة. وقد مات لوقيانُس شهيدًا سنة ٣١٢ في نيقوميديا.

هذه الخلافات التي عصفت بالكنيسة في نهاية القرن الثالث، همدت في بداية القرن الرابع، عندما عاد الاضطهاد للمسيحيّة ليشتدّ من جديد، فلجأ الأساقفة إلى التفاوض مجتمعين لتوحيد الرأي ومواجهة الأخطار الداهمة. وقد عُقدت لهذه الغاية سينودُسات[٣]

---

١ - USÈBE, *HIST. ECC.*, VII, 30.

٢ - BARDY G., P. 376.

٣ - جمع سينودُس: أصل الكلمة يونانيّ، وهي إسم يطلق عند المسيحيّين على كلّ مجلس أو اجتماع للأساقفة، كما يمكن أن يطلق على مجلس الأساقفة سواء كان في حالة اجتماع أم لم يكن، وهناك لكلّ كنيسة سينودسها، أمّا عند الكنيسة الأنغليكانيّة فيُدعى "كونغرس".

غربيّة برئاسة البابا، كما عُقدت مجامع أفريقيّة برئاسة أسقف قرطاجة، ومجامع أنطاكيّة برئاسة أسقف أنطاكية[1]. وكانت موافقة رومة على قرار المجمع الأنطاكيّ الثالث القاضي بخلع بولس السميساطيّ مفيدة جدًّا على صعيد اللحمة بينها وبين أنطاكية. بيد أنّه ما أن توقّف الاضطهاد واستتبّ الأمن للكنيسة بعد قسطنطين، حتّى عادت مسألة قبول "الجاحدين" لتشكّل عنصر صراع، من جديد، داخل الكنيسة. وكان مسرح الصراع هذه المرّة داخل كنيسة الإسكندريّة حيث ستولد البدعة الآريوسيّة التي ستشقّ الكنيسة مرّة أخرى.

مَسألةُ آريُوس

كان على رأس كنيسة الإسكندريّة في بداية القرن الرابع أسقف يدعى بطرس، وقد وضع حوالى العام ٣٠٦ رسالة حدّد فيها كيفيّة قبول "الجاحدين"، وهو الموضوع الذي طالما شكّل خلافًا في الرأي بين قادة الكنيسة. وقد جاءت معارضة رأي بطرس هذه المرّة من مصر نفسها، وتحديدًا من قِبَل أسقف أسيوط ملاتيُس الذي ردّ على بطرس بعنف وتسفيه. وعندما اشتدّت وطأة الاضطهاد لجأ بطرس إلى التخفّي، فتحيّن ملاتيُس الفرصة ليثير مسألتَي "العائدين التائبين" و"الجاحدين"، وليتفرّد بترؤّس الكنيسة المصريّة، إذ راح يرسم الكهنة ويعيّن الإكليروس ويتدخّل آمرًا ناهيًا في أبرشيّة مصر، بينما كان عدد كبير من أساقفتها معتقلاً يواجه الشهادة. وقد هبّ هؤلاء من معتقلهم لتعنيف ملاتيُس، وأقدم بطرس المتخفّي على إصدار الحرم بحقّه قبل استشهاده بوقت قصير.

---

١ - ZEILLER J., *ORG. ECC.* II. PP. 398 - 400.

حاول خلفاء بطرس معالجة مسألة ملاتيُس دون جدوى، وبقي هذا الأخير مع أتباعه غير معترفين بسلطة أساقفة الإسكندريّة حتّى حلّ الشقاق في الكنيسة المصريّة وسط تراشق أساقفتها بالحرمان، ما سوف يؤدّي إلى إحداث ذلك الشرخ العظيم في الكنيسة الشرقيّة.

وفي منتصف القرن الرابع كان على الإسكندريّة أسقف يُدعى ألكسندرُس. وكان من كهنة تلك الأسقفيّة رجل يُدعى آريوس، وهو ليبيّ المولد والمنشأ (حوالى ٢٥٦ ـ ٣٢٦)، كان ممّن شايعوا ملاتيُس لبعض الوقت إلى أن ارتدّ فسيم شمّاسًا. وعندما انتقد رئيسه في أمر "الجاحدين" قُطع، فعاد إلى جناح ملاتيُس حيث سيم كاهنًا. وبقي متنقّلاً بين جناح وآخر إلى أن وثق به ألكسندرُس، أسقف الإسكندريّة، وسلّمه بعض المهام، حتّى أصبح خادم كنيسة بافكاليس[١].

مهما كان موقف المرء من بدعة آريوس، فما لا شكّ فيه، بحسب المراجع التاريخيّة، أنّ آريوس كان عالمًا زاهدًا متقشّفًا. وقد تأثّر، على ما يبدو، بأفكار لوقيانُس المعلّم الأنطاكيّ الذي سبق وجاء الكلام عنه. وعلى الرغم من أنّ الآريوسيّة قد أضحت في ما بعد مذهبًا واسع الانتشار، فإنّه لم يبقَ من تعاليم آريوس ما من شأنه أن يدلّ بشكل واضح وموثوق على دقّتها. وتقتصر المعلومات في الواقع على تلك المستقاة من ردود أهل الكنيسة على تعاليم آريوس، من هنا يمكن القول بأنّ محور تلك التعاليم هو التأكيد على وحدانيّة الآب وتخفيض منزلة الإبن والروح القدس. وقد جاء في ملخّصات بعض الباحثين الأخصّائيّين أنّ: "الآب وحده في نظر آريوس استحقّ لقب الإله. أمّا الإبن فلم يكن سوى إله ثانويّ منخفض في الرتبة والمنزلة مخلوق من

١ - BARDY G., *ORIGINES DE L'ARIANISME*, FLICHE ET MARTIN, III, PP. 69 - 71.

العدم بإرادة الآب، متميّز عن سائر المخلوقات في كونه صورة اللّه الآب في جوهره وإرادته وقدرته ومجده". والثالوث في نظر آريوس "ثلاثة في الأقنوم، ولكنّهم ليسوا واحدًا باتّفاق المشيئات"[١].

كان أوّل مَن التفّ حول آريوس الذي يجيد الوعظ والإرشاد عذارى الإسكندريّة اللواتي اشتهرن بالعمل الصالح وبكونهنّ فخر كنيسة مصر في تلك الحقبة من التاريخ، إضافة إلى عدد من المؤمنين، وعدد كبير آخر من رجال الإكليروس الذين "آثروا الإصغاء إليه رغم اختلاف تعاليمه عن تعاليم الأسقف رئيس كنيسة الإسكندريّة"[٢]. إلاّ أنّه في الوقت نفسه برز معترضون من المؤمنين على تعاليم آريوس الجديدة، ما حدا بأسقف الإسكندريّة على دعوة الطرفَين لمناقشة علنيّة حول موضوع الخلاف.

كان هذا النقاش بمثابة بدء الانشقاق. فقد تمسّك آريوس برأيه في الآب والإبن والروح القدس، بينما تمسّك خصومه بولادة الإبن من الآب قبل كلّ الدهور، وبمساواة الإبن بالآب في الجوهر. وإذ أصغى ألكسندرُس، أسقف الإسكندريّة، إلى آراء الطرفَين، قال برأي خصوم آريوس آمرًا هذا الأخير بأن يقول هذا القول وبأن يمتنع عن أيّ تعليم مخالف. ولكنّ آريوس رفض أمر سيّده ممتنعًا عن الطاعة، فرأى الأسقف الإسكندريّ نفسه مضطرًّا إلى عقد مجمع محليّ بالإسكندريّة سنة ٣٢١ حضره مئة من أساقفة مصر، شجب ثمانية وتسعون منهم أقوال آريوس، ما أدّى إلى صدور قرار عن ذلك المجمع قضى بقطع آريوس والأسقفَين اللّذَين امتنعا عن شجب أقواله[٣] وبتجريدهم من رتبهم الكهنوتيّة وطردهم من الإسكندريّة. وكان، خارج نطاق

١ - Bardy G., Op. Cit. III, pp. 72 - 73.

٢ - Epiphane Haeres, LXIX, 3; Athanasius, *Contra Arian.*, I, 8.

٣ - Socrates, *Hist. Ecc.* I, 6.

هذا المجمع، عدد كبير من أساقفة الشرق، يؤيّد رأي آريوس، بين هؤلاء أساقفة كلّ من: نيقوميديا الأنطاكيّة، قيصريّة فلسطين، بيسان، اللدّ، صور، بيروت، اللاذقيّة، وعين زربة القيليقيّة[1].

وهكذا ظهرت في الشرق بوادر الانشقاق العظيم، وراح كلّ من الطرفَين يسعى لكسب تأييد قسطنطين لموقفه، وراح آريوس يجوب الأسقفيّات الشرقيّة مكتسبًا تأييد أساقفتها، كما راح هؤلاء الأساقفة بما لديهم من نفوذ وصلات مع الأمبراطوريّة، يدعمون آريوس ضدّ خصومه. وعُقدت مجامع محليّة في أنطاكية ومحيطها أيّدت آراء آريوس[2]. وقد واجه أسقف الإسكندريّة ألكسندرُس هذا النشاط الآريوسيّ بمراسلة الأساقفة خارج مصر داعيًا إلى وحدة الكنيسة الجامعة[3]. وقد طالت رسائله، إضافة إلى أساقفة الشرق، بابا رومة. ويمكن القول إنّ الربع الأوّل من القرن الرابع كان مسرح تراشق بالقطع والحرمان وبالنشرات والنشرات المضادّة بين رؤساء الكنيسة، ما أزاح المسيحيّة عمومًا في هذه المنطقة من العالم عن رسالتها الحقيقيّة إلى الصراعات الهدّامة في مختلف الأحوال. ذلك أنّ العامّة تحزّبت لكلّ من الطرفَين، ودرجت في ذلك الحين الأغاني والأهازيج الغوغائيّة في أوساط الطبقات كافّة حتّى الأوساط السفلى منها التي نقلت الصراع إلى الشارع[4]. ما أدّى إلى غضب الأمبراطور قسطنطين الذي لم يدرك، بسبب سطحيّة معلومات مستشاريه، أهميّة النزاع لناحية العقيدة المسيحيّة. فراح يرسل أتباعه إلى الإسكندريّة في محاولة لحلّ النزاع حبيًّا،

---

١ - BARDY G., *RECHERCHES SUR ST. LUCIEN D'ANTIOCHE*, PP. 224 - 228; EPIPHANE HAERES, LXIX, 6.

٢ - SOZOMÈNE, *HIST. ECC.* I, 15.

٣ - ALEXANDRE D'ALEXANDRIE, EPIST. ENCYCL; APUD, SOCRATES, *HIST. ECC.* I, 6.

٤ - PHILOSTORGE, *HIST. ECC.* II, 2; SOCRATES, *HIST. ECC.* I, 6; USEBE, *VIT. CON.*, I, 61..

داعيًا إلى إقرار السلم والتساهل. بيد أنّ المسألة كانت أخطر من أن تُحلّ حبّيًّا كما أراد قسطنطين.

وسط هذه الأجواء، عُقد المجمع الأنطاكيّ الرابع الذي حضره ستّة وخمسون أسقفًا، وقد صدر عنه قرار جاء فيه إنّهم يقولون بـ : "إله فائق القدرة، أزليّ، لا يتغيّر، خالق السماء والأرض وكلّ ما يوجد، وبربّ واحد يسوع المسيح ابن اللّه الوحيد المولود من الآب قبل كلّ الدهور"[1]. وقد قطع المجمع ثلاثة أساقفة يترأسون كلاًّ من قيصريّة فلسطين واللاذقيّة وبانياس لمدّة معيّنة بسبب اعتراضهم على قراره. وأقرّ رسالة سلاميّة وجّهها إلى بابا رومة وعدد من رؤساء الكنائس والأساقفة.

نتيجة استشراء الخلافات داخل الكنيسة، تدخّل الأمبراطور قسطنطين ودعا جميع الأساقفة في الأمبرطوريّة إلى الاجتماع في نيقية، حيث عُقد المجمع سنة ٣٢٥، وحضره حوالى ثلاثمئة أسقف من كافّة أنحاء المسكونة. لذلك عُرف بالمجمع المسكونيّ، وهو أوّل مجمع مسكونيّ في التاريخ.

بدأ المجمع المسكونيّ الأوّل أعماله في ٢٠ أيّار (مايو) ٣٢٥، وقد افتتحه الأمبراطور قسطنطين بقوله إنّه: "يشكر لملك الكون نعمه الكثيرة خاصّة تلك التي سنحت له أن يرى الأساقفة مجتمعين بفكر واحد وقلب واحد". وقال إنّه: "بقدرة الملك المخلّص تمكّن من القضاء على الطغاة الذين قاوموا اللّه". وإنّه: "يعتبر كلّ شغب داخل الكنيسة مساويًا في الخطر لحرب شاملة"[2].

---

١ - SCHWARTZ E., *GESCH D ATHANASIUS*, VI.

٢ - USÈBE, *VIT. CON.*, III, 12.

أسفر نقاش بدعة آريوس في المجمع المسكونيّ الأوّل في نيقية سنة ٣٢٥ عن صدور قانون الإيمان النيقاويّ الذي أيّدته الأكثريّة الساحقة من أساقفة المجمع، ووافق عليه قسطنطين من هذا المنطلق، بينما عارضه أساقفة شرقيّون كانوا يؤيّدون آريوس. وقد نصّ القانون النيقاويّ على صلاة الـ "نؤمن" التي لا يزال المسيحيّون، في الكنيستَين الشرقيّة والغربيّة، يتلونها صلاة بحرفيّتها حتّى اليوم. وحرّم الآباء آريوس وأتباعه وأيّدهم قسطنطين في ذلك حاكمًا على آريوس بالنفي.

رغم هذا بقيت بدعة آريوس تتفاعل، وتركّز الخلاف بين أتباعه والكنيسة الجامعة على "المساواة في الجوهر"، ما حدا قسطنطين نفسه على أن يُنذر أولئك الخارجين بسوء العاقبة. إلاّ أنّ بعض الأساقفة الآريوسيّين المستترين تمكّنوا من التغلغل في البلاط عن طريق قسطنديا أخت قسطنطين، ما أعطى الآريوسيّة، ليس فقط إمكانيّة البقاء في الكنائس الشرقيّة، لا بل إمكانيّة إعادة تنظيم نفسها واستعادة المبادرة لمهاجمة الكنيسة الجامعة، وراح هؤلاء يحيكون المؤامرات ضدّ أساقفة الكنيسة الجامعة وقد نجحوا في بعضها، حتّى عاد الشقاق ليعصف بالكنيسة كما من ذي قبل. فعاد الأمبراطور قسطنطين للتدخّل محاولاً التوحيد. لكنّ أساقفة أنطاكية توجّسوا خيفة من تدخّل السلطة في شؤون الكنيسة، فسارعوا إلى اتّخاذ قرارات لوضع حدّ لهذا التدخّل. ويبدو أنّ هذا الموقف أغاظ قسطنطين الذي أمر بعودة آريوس الذي مثّل بين يدي الأمبراطور "وأكّد أرثذوكسيّته، واعترف بأنّ الإبن مولود من الآب قبل كلّ الدهور، ولكنّه لم يقل شيئًا عن المساواة في الجوهر"[١]. فأحاله الأمبراطور على مجمع انعقد في صور سنة ٣٣٥.

---

١ - SOZOMÈNE, *HIST. ECC.* II, 27; SOCRATES, *HIST. ECC.*, I, PP. 25 - 26.

في هذه الأثناء بلغ الشغب في كنيسة مصر حدًّا لا يطاق. إذ راح أتباع آريوس يتّهمون أسقف الإسكندريّة أثناسيُس[1]، الذي أصبح قدّيسًا في ما بعد، بأنّه أمر بكسر كأس الأفخارستيّا لأحد الكهنة، وبأنّه فرض الضرائب على المؤمنين، حتّى أنّهم اتّهموه بقتل أرسانيُس أحد أساقفتهم. هذه الأحاديث أزعجت الأمبراطور قسطنطين إلى حدّ أنّه أرسل أخاه درماتيُس إلى الإسكندريّة للتحقيق شخصيًّا في هذه الاتّهامات. وإذا به يجد أرسانيُس حيًّا يُرزق في أحد الأديرة. وتأكّد في الوقت نفسه من براءة أسقف الإسكندريّة من كلّ التهم الموجّهة إليه، فاكتفى قسطنطين بتعنيف المشاغبين وبتوجيه اللوم إليهم[2].

في هذه الأثناء، عُقد مجمع كنسيّ في صور تآمر في خلاله خصوم أسقف الإسكندريّة حتّى استحصلوا على قرار من المجمع يقضي بإرسال لجنة إلى الإسكندريّة للتحقيق في الاتّهامات الموجّهة ضدّ أسقفها أثناسيُس الذي كان حاضرًا المجمع. وقد قبل أثناسيُس بذلك شرط أن يكون أعضاء اللجنة من غير خصومه. إلاّ أنّ المتآمرين تمكّنوا من جعل المجمع يوفد إلى مصر أساقفة آريوسيّين تألّفت منهم لجنة تحقيق مغرضة كان من الطبيعيّ أن تقدّم تقريرًا يدين أثناسيُس، الذي اشتدّت الدعاية في صور نفسها ضدّه نتيجة ذلك التحقيق المغرض، ما أثار المؤمنين العامّة، فتوافدوا إلى قاعات المجمع متّهمين أثناسيُس بالسحر والقساوة مطالبين بمعاقبته. وفيما كان مبعوثو الأمبراطور يحثّون أعضاء المجمع على الاتّزان والاعتدال، توجّس

---

١ ـ أثناسيُس الإسكندري ATHANASIOS (٢٩٥ ـ ٣٧٢): بطريرك الإسكندريّة، من آباء الكنيسة وقدّيسيها، أصرّ على محاربة الآريوسيّة بعد المجمع النيقاويّ فنُفي خمس مرّات بسبب صلابة رأيه، كتب حياة القدّيس أنطونيوس الكبير وله مؤلفات لاهوتيّة.

٢ - BARDY G., *POLITIQUE RELIGIEUSE DE CONSTANTIN APRÈS LE CONCIL DE NICÉE*, REV. SC. RELIG. (1928) NO. 2, P. 53; ST. ATHANASE, *APOLOG. CONTRA ARIAOS*, LET. 44, 47

أثناسيُس خيفة من نتائج المؤامرة، فانسلّ من صور خفية وانتقل إلى القسطنطينيّة، ما جعل المجمع يصدر بحقّه حكمًا غيابيًّا قضى بعزله من منصبه. وفي القسطنطينيّة، تمكّن أثناسيُس من مقابلة قسطنطين الذي أصغى إلى شكواه. وإذ استدعى الأمبراطور الأساقفة المجتمعين في صور لاستيضاحهم حقيقة الأمر، جاء بعض هؤلاء ولفقّ ضدّ أثناسيُس تهمة جديدة، كان من شأنها أن تُغضب الأمبراطور ضدّ اللاجئ إلى عدله، وكان فحوى التهمة أنّ أثناسيوس هدّد بمنع تصدير الحنطة من الإسكندريّة إلى القسطنطينيّة. فأمر قسطنطين بإبعاد أثناسيُس ونفيه إلى "تريف" في "غاليا"[٢].

بالنسبة لآريوس لم نجد في المراجع قرارًا واضحًا صدر عن مجمع صور بهذا الشأن، ولكنّ المدوّنات تذكر أنّ مصر لم ترضَ عن أعمال المجمع الصوريّ، وأنّ القدّيس أنطونيوس الكبير[٣] قد كتب إلى قسطنطين مرارًا يرجوه العفو عن تلميذه

---

١ - تريف TRÈVES - CUNAULT: على شاطئ نهر اللوار، فيها كنيسة رومانيّة جميلة من القرن الحادي عشر رمّمت في القرن الثالث عشر.

٢ - غاليا GAULE: إسم أطلق قديمًا على البلاد الشاملة فرنسا وبلجيكا وإيطاليا الشماليّة، فتحها القائد الروماني يوليُس قيصر بين ٥٨ و٥٠ ق.م.؛ راجع: SOZOMÈNE, *HIST. ECC.* II, 25; ATHANASE, *APOLOG. CONTRA ARIAOS*, PP. 86 - 87; SOCRATES, *HIST. ECC.*, I, 34.

٣ - القدّيس أنطونيوس الكبير (حوالى ٢٥٠ - ٣٥٥): وُلد في "كوم العروس" بصعيد مصر من أسرة كريمة، وفي سن العشرين أعرض عن الدنيا وكرّس حياته للزهد والصلاة والطاعة والتجرّد وكان قد تتلمذ على باولا أوّل الحبساء، وفي الخامسة والثلاثين هجر المدن وعاش على انفراد في جوف الصحراء، عانى كثيرًا من التجارب ووسائل الإغراء فصمد لها واجتذب إليه أشخاصًا شاؤوا أن يتعبّدوا على طريقته النسكيّة، بعد عشرين سنة سنّ لهم قانونًا رهبانيًّا عاشوا بموجبه على انفراد لا يجتمعون إلا للعبادة وتناول الطعام، وبعد سنوات أوغل في الصحراء وذهب إلى طيبة حيث أمضى آخر حياته الطويلة، لقّب بأبي الرهبان، يُعتبر منشئ الرهبانيّة في الكنيسة المسيحيّة وقد أصبحت جماعته قدوة للآخرين وأصبح قانونها منطلقًا لقوانين أكثر الرهبانيّات التي نشأت عبر الأزمنة وهو القانون المعروف بالقانون الأنطونيانيّ، يحظى أنطونيوس بنصيب وافر من التقديس والإجلال عند كافّة الكنائس المسيحيّة ولا تجد بقعة مسيحيّة ليس له فيها كنيسة أو أيقونة أو مزار، لا يزال ديره قائمًا في الصحراء الشرقيّة على ساحل البحر الأحمر، وضع القدّيس أثناسيُس الإسكندري سيرته العجيبة.

أثناسيُس وإعادته إلى أبرشيّته، غير أنّ قسطنطين كان يرى أنّه لا يعقل إجماع عدد كبير من الأساقفة المتنوّرين الحكماء على إدانة بريء، وأن كان أثناسيُس في نظره وقحًا متعجرفًا مشاغبًا[١].

على صعيد آخر رفض شعب الإسكندريّة تحمّل هذا الجور، فاشتعلت نار الفتنة في مصر ضدّ عودة آريوس إليها، بينما حاول الآريوسيّون إقناع أسقف القسطنطينيّة الجديد ألكسندرُس بأن يقبل آريوس في الشركة، ولكنّ هذا الحبر رفض قبول آريوس قطعًا، وعندما أمره قسطنطين بذلك دخل الكنيسة وجثا أمام المذبح باكيًا مبتهلاً. ويذكر بعض المدوّنات أنّه لمّا اجتمع أشياع آريوس ليُدخلوا زعيمهم إلى الكنيسة "اضطرب آريوس وتنحّى عن القوم لقضاء حاجته... فاندلقت منه أحشاؤه ومات فوقها"[٢].

كان ذلك سنة ٣٣٦، وبعد أن لفظ آريوس أنفاسه بعام واحد، توفّي قسطنطين الأوّل الذي خسرت برحيله الكنيسة المدافع القويّ عنها، وخلفه في حكم الأمبراطوريّة أولاده الثلاثة الذين تصارعوا في ما بينهم، فقُتل اثنان منهم وبقي قسطنديوس الصاني المالك وحيدًا.

أبرز ما فعله الأمبراطور الجديد بالنسبة لخلافات الكنيسة أنّه أذن لأثناسيُس بالعودة من منفاه إلى الإسكندريّة في السابع عشر من حزيران (يونيو) سنة ٣٣٧، كما شمل العفو سائر الأساقفة المنفيّين.

كان لوصول أثناسيُس إلى الإسكندريّة في الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) ٣٣٧ فعل الاضطراب في الوسط الآريوسي. فراح الآريوسيّون يسعون في الشرق والغرب

---

١ - SOZOMÈNE, *HIST. ECC.* II, 31.

٢ - ST. ATHANASE, EPIST. DE MORTE ARII. EPIST. AD. EPISCOPOS AEGYPTI ET LIBYAE.

لتنصيب أسقف منهم على الإسكندريّة. وبعثوا وفدًا إلى رومة لإقناعها بمناصرتهم. غير أنّ الأساقفة الأرثذوكس المصريّين عقدوا مجمعًا محليًا سنة ٣٣٨ أيّدوا فيه أسقفهم أثناسيُس، وحرّروا رسالة سلاميّة إلى يوليُس[1] بابا رومة وجميع أساقفة المسكونة وإلى الأباطرة الثلاثة خلفاء قسطنطين الذين كانوا لا يزالون أحياء[2].

سارع البابا يوليُس إلى دعوة أثناسيُس إلى رومة، وبعث إلى الشرق وفدًا يدعو الأساقفة الآريوسيّين وسواهم إلى مجمع مسكونيّ في رومة للبتّ في المسألة. ولكنّ الأساقفة الآريوسيّين قد رفضوا طلب رومة معتبرين أنّ المسألة شرقيّة وقد بتّ فيها مجمع شرقيّ، هو مجمع صور، مهدّدين بقطع العلاقات مع رومة إن هي اعترفت بأثناسيُس[3].

جاء ردّ رومة على الآريوسيّين عنيفًا، إذ بيّن يوليُس وجوب إطلاع جميع الأساقفة على القرارات المتّخذة ليشترك الجميع في إحقاق الحقّ. إلاّ أنّ البابا يوليُس قد توفّي دون أن يتمكّن من إعادة أثناسيُس إلى دياره. وتولّى الكرسيّ الرسوليّ بعده ليباريُس (٣٥٢ ـ ٣٦٦) فاهتمّ هو الآخر بقضيّة أثناسيُس، وعبثًا حاول مع الأمبراطور قسطنديوس أن يدعو أساقفة الكنيسة الجامعة إلى مجمع في أكويليا[4] للنظر في قضيّة أثناسيُس، ذلك أنّ الأمبراطور كان مهتمًّا بكسب تأييد الأريوسيّين في الشرق لأنّهم كانوا قد أصبحوا أكثريّة راجحة. وفي النهاية دعا قسطنديُس الأساقفة الغربيّين فقط إلى مجمع عُقد في ميلانو مطلع السنة ٣٥٥ حيث خيّرهم بين نبذ أثناسيُس أو نفيه، فوافق

---

١ ـ البابا يوليوس الأوّل (٢٨٠ ـ ٣٥٢): وُلد في رومة، بابا ٣٧ ـ ٣٥٢، طوّب قدّيسًا.

٢ ـ St. Athanase, *Apolog. Contra Arianos*, 3 - 19, 87, 19.

٣ ـ Bardy G., *Réaction*, III, pp. 118 - 119; Sozomène, *Hist. Ecc.*, III, 8.

٤ ـ أكويليا Aquila: مدينة إيطاليّة على الترن، مركز أسقفي، تشتهر اليوم بالصناعات الخشبيّة، عدد سكّانها حوالى ٣٥,٠٠٠ نسمة.

معظمهم على أهون الشرَّين: النبذ. إلاّ أنّ البابا ليباريوس بقي مصرًّا على تأييد أثناسيوس الذي أُبعد بأمر الأمبراطور إلى تراقية[1].

وعندما أرسل الأمبراطور بارجة حربيّة إلى الإسكندريَّة لنقل أثناسيُس إلى الغرب، امتنع هذا الأخير، فأرسل الأمبراطور فرقة عسكريّة لاعتقاله، صدّها المصلّون، وحصلت مقاومة عنيفة علت بخلالها أصوات العذارى الصالحات حول كنيسة الإسكندريّة حيث بقي أثناسيُس جالسًا في كرسيه لا يأتي بحركة، إلى أن رأى وجوب الفرار، فانسلّ من الكنيسة هاربًا نحو الصحراء الغربيّة لاجئًا إلى رهبانها الذين أحسنوا استقباله وحموه، فراح يصنّف ويكتب. وتوفّي هذا البطريرك الجليل: أثناسيُس الإسكندريّ، في العام ٣٧٣، فخسرت الكنيسة أحد آبائها الأجلاّء المتنوّرين، بعد أن حارب الآريوسيّة بصلابة، فنُفي خمس مرّات دون أن يحيد عن استقامة معتقده. وفي ملجأه كتب حياة القدّيس أنطونيوس والعديد من المؤلّفات اللاهوتيّة. بينما استمرّت الآريوسيّة ببدعتها تحتلّ كنيسة الشرق التي بقيت في حال من الارتباك والصراع طوال قرن بكامله بسبب بدعة آريوس، التي لم ينتهِ أمرها في الشرق قبل نهاية القرن الرابع، لتستمرّ عند القوط* واللومبرد[2] حتّى القرن السابع حيث انقرضت تمامًا.

وبالإمكان القول إنّ بدعة آريوس قد أخلّت بالكنيسة الشرقيّة نكبة أضعفتها، إضافة إلى ما مهّدت له من بدع سوف تظهر في ما بعد لتُحدث مزيدًا من الانشقاقات داخل الكنيسة، ولتشرذم مسار المسيحيّة بشكل متواصل دونما انقطاع.

---

١ - BARDY, *G. VARIATIONS*, III, 138 - 147.

٢ - اللومبرد: شعب جرمانيّ قديم استوطن في القرن الأوّل ميلاديّ بلاد اللومبرد الواقعة على طول نهر الألب، ثمّ استوطنوا المجر وغزوا إيطاليا حيث أسّسوا مملكة عاصمتها بافيا ثمّ توغّلوا إلى مسافة بعيدة وسط إيطاليا وجنوبها ولعبوا دورًا هامًّا في تاريخ إيطاليا.

مَسألَةُ الدُّستُورِ المؤرِّخ

بينما كانت الانقسامات تعصف بالكنيسة الشرقيّة، كانت الأمبرطوريّة نفسها عرضة للانشطار. فبسبب الصراع على السلطة تعاقبت الانفصالات بين شطرَي الأمبرطوريّة: الغربيّ والشرقيّ، أكثر من مرّة، وحكمهما أباطرة مختلفون. إلى أن حصل الانقسام النهائيّ سنة ٣٩٥ "حين توفّي ثيودوسيُس الكبير (٣٧٩ ـ ٣٩٥) وخلفه إبناه: هنوريُس وأركاديُس، الأوّل على الغرب والآخر على الشرق. وكان ثيودوسيُس آخر أمبراطور على الأمبرطوريّة الواحدة. ومنذ ذلك الحين وُجدت أمبرطوريّة رومانيّة شرقيّة كان النجاح حليفها، بينما كان الفشل نصيب شقيقتها في الغرب. وأخيرًا سقطت رومة في ٤٧٦ بنتيجة هجمات القبائل الجرمانيّة[١]. وقد كسب ثيودوسيُس لقب الكبير لصموده الباسل أمام القوط ولدعمه المسيحيّة الخالية من البدع. واعتنق جميع خلفاء قسطنطين، باستثناء يوليانُس وحده (٣٦١ ـ ٣٦٣) الدين المسيحيّ".[٢]

---

١ ـ **الجرمان أو الجرمانيّون**: مجموعة كبيرة من الأجناس في أوروبا، تغلب حاليًا في تكوين شعوب السويد والنروج والدنمارك وأيسلندا وألمانيا والنمسا وسويسرا وشمال إيطاليا وهولندا وبلجيكا ولكسمبورغ وشمال ووسط فرنسا وسهل اسكتلندا وإنكلترا، يتّفق ظهورهم في التاريخ بالضرورة مع صلاتهم بالرومان، ولا يعرف عنهم الكثير قبل الميلاد في ما عدا هزيمة بعضهم على يد ماريُس حوالى ١٠٠ ق.م.، وكانوا يسكنون شمال ألمانيا وشواطئ البلطيق قبل انتشارهم جنوبًا وإلى الجنوب الشرقي والغرب، وأهمّ المصادر عن حضارتهم مؤلفات الرومان مثل تاكيتوس وقيصر وسواهما وبقايا النظم الجرمانيّة في العصور المتأخّرة والآثار الباقية، ازداد خطر الجرمان على الأمبراطوريّة الرومانيّة في القرون الأولى للميلاد لا سيّما قبائل الوندال منهم في الغرب والقوط الشرقيون* في الشرق، ويحتمل أنّ الجرمان قد احتفظوا بعصبيّتهم حتّى القرن الثالث الميلادي ثمّ تفرّقوا شعوبًا كثيرة أهمّها الألمان والإنكليز والسكسونيّون والبرغنديّون واللومبارديّون والقوط الشرقيّون والغربيّون، وأنتج الإسكندنافيون أول أدب جرمانيّ، وظهرت قبائل أخرى كثيرة في حقبات شتى من التاريخ القديم والوسيط مثل الشامافي والكيمبري والهلفي والتيوتون وغيرهم ممّن يتحدّر من الجرمان أصلاً.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٣٨٨.

يوليانُس هذا لُقّب بيوليانُس الجاحد. وهو ابن أخت قسطنطين الكبير. نودي به أمبراطورًا سنة ٣٦١، وهو من مواليد القسطنطينيّة سنة ٣٣١. أمّا سبب تلقيبه بالجاحد فيعود إلى أنّه جحد الإيمان المسيحيّ وشجّع الوثنيّة. وقد أطلق عليه المسيحيّون هذا اللقب لكثرة ما سبّب لهم من اضطهادات. وكانت نهايته قتيلاً في إحدى المعارك مع الفرس.

منع يوليانُس حريّة المعتقد لأوّل مرّة بعد قسطنطين. كان هدفه من ذلك إطلاق الوثنيّة التي نشط أتباعها من جديد. وقد أنّب يوليانوس أهل أنطاكية الذين كانوا قد أصبحوا بأكثريّتهم الساحقة مسيحيّين لعدم تقديمهم القرابين لأبّولون بمناسبة ذكراه. وأكرم الفلاسفة الوثنيّين فيها، ورقّى وجهاء الوثنيّة إلى أعلى المراتب، وأقدم على التنكيل برفاة القدّيسين فأخرجها من قبورها، فردّ المسيحيّون في أنطاكية بأن أحرقوا هيكل أبّولون[1]. فأقفل الأمبراطور كنيسة أنطاكية الكاتدرائيّة وأمر بنهبها وتدنيسها. فردّ المسيحيّون بتحطيم تماثيل الآلهة[2]. وقد أعمل هذا الأمبراطور الجاحد السيف في رقاب الكهنة والعذارى في غزّة وعسقلان، ورمى بأجسادهم إلى الخنازير لتدوسها: "وفي بانياس أنزل تمثالاً للسيّد المخلّص عن قاعدته وحطّمه تحطيمًا وأقام محلّه تمثالاً لنفسه. وأحرق كنيسة بيروت. وبعهده أشعل اليهود النيران في كُنيستَين من كنائس دمشق. ولقي شمّاس بعلبك حتفه لأنّه كان قد اجترأ في عهد قسطنطين على قلب الأصنام. وأُحرقت قبور المسيحيّين في حمص التي حُوّلت إلى هيكل لباخُس إله الخمر. وفي حماة أُقيم تمثال لباخُس على مذبح الكنيسة"[3]. ويظهر التعاطف واضحًا بين اليهود وهذا

---

١ - أبّولون APPOLLON: إله النور والفنون والجمال عند اليونان، إبن زفس وليتو، كان له معبد في دلفي اشتهر كمركز للتكهّن.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٢٣٩.

٣ - المرجع السابق.

الأمبراطور الجاحد الذي أمر بإعادة بناء هيكل أورشليم. وقد تمّ على يد اليهود بإشراف أحد أمناء الأمبراطور حفر أساسات الهيكل لإعادة بنائه، على أنّه فور انتهائهم من ذلك حدثت زلزلة عظيمة هدمت الأبنية المجاورة وقتلت بعض الفعلة وأعادت ردم الأساسات[١]. كان ذلك قبل مقتل يوليانُس الجاحد في ربيع سنة ٣٦٣ بقليل. وقد ذكر بعض المدوّنات أنّ فارسًا مسيحيًّا من فرسانه اغتاله خلال معركته مع الفرس انتقامًا لاضطهاده المسيحيّين.

وكان هذا الأمبراطور الجاحد قد عمل على زيادة الشرخ في الكنيسة، فأعاد جميع الأساقفة المنفيّين إلى بلدانهم، ما أجّج الصراع بين الكنيسة المستقيمة وأصحاب البدعة الآريوسيّة. بيد أنّ الأمر قد عاد ليستقيم بعض الشيء في عهد يوفيانُس الذي خلف يوليانُس، وقد كان مسيحيًّا مستقيم الرأي، فما أن تسلّم الحكم حتّى دعا أثناسيُس الكبير إلى أنطاكية، فوصلها خريف ٣٦٣ ومنها عاد إلى الإسكندريّة. ورغم محاولات هذا الأمبراطور إعادة اللحمة إلى كنيسة أنطاكية، فقد بقيت منشقّة يرئسها اثنان: أحدهما مستقيم الرأي والثاني آريوسيّ. وإذ مات يوفيانُس بعد سنة من الحكم طال الإنشقاق الأمبراطوريّة نفسها مرّة أخرى فحكم فلنتيانُس الغرب (٣٦٤ - ٣٧٥) وأخوه فلنسُس الشرق (٣٦٤ - ٣٧٨) فأصبحت بذلك الأمبراطوريّة دولتَين: شرقيّة وغربيّة.

حاول فلنسُس أن يجد حلاً للشقاق الذي عمّ كنيسة الشرق بأسرها فوجد في "الدستور المؤرّخ" ما من شأنه أن يكوّن ذلك الحلّ الوسط.

ذلك أنّه في العام ٣٥٩ كان قد عُقد مجمعان كنسيّان في وقت واحد للتنسيق بين أساقفة الشرق والغرب: أحدهما شرقيّ عُقد في سلفكيّة بالقرب من الساحل القيليقيّ،

---

١ - PHILOSTORGE, *HIST. ECC.*, VII, PP. 8 - 14.

والثاني غربيّ في "رميني"[1] على شاطئ الأدرياتيك الإيطاليّ. ونوقش في المجمعَين دستور إيمان جديد عُرف في ما بعد بالدستور المؤرّخ، لأنّ الأسقف الذي أعدّه، وهو مرقس أسقف أرسوز[2]، بدأ النصّ بالإشارة إلى موافقة الأمبراطور قسطنديُس وإلى السنة والشهر واليوم التي تمّت فيها هذه الموافقة.

نصّ الدستور المؤرّخ على التشابه في الجوهر بين الآب والإبن، ما من شأنه بنظر واضعه والأمبراطور، أن يشكّل حلاً للخلاف بين الكنيسة المستقيمة والآريوسيّين حول مسألة الجوهر. وبينما أقرّ المجمع الغربيّ هذا الدستور تحت ضغط واضح من قِبَل الأمبراطور، أنهى المجمع الشرقيّ أعماله دون إقراره. ويبدو أنّ الأمبراطور لم ييأس، ما حقّق عقد مجمع في القسطنطينيّة سنة ٣٦٠ حضره ممثّلو المجمعَين، وتمّ بخلاله إقرار الدستور المؤرّخ الذي قال: "بالتشابه في الجوهر كما في الكتب". ونبذ المجتمعون "التخالف في الجوهر" وحرّموا استعمال اللفظَين اللذَين أثارا الجدل: "OUSIA و HYPOSTASIS "مستعيضين عنهما بكلمة OMOIOS"[3].

هذا هو "الدستور المؤرّخ" الذي حاول فلنسُس توحيد الكنيسة حوله. وكان الأمبراطور قسطنديُس قد جعل من هذا "المؤرَّخ" دستورًا رسميًا للدولة. وقد سار فلنسُس على خطى قسطنديُس فأمر بإعادة إبعاد الأساقفة الذين أقصاهم قسطنديُس عن مراكزهم وأعادهم يوليانُس إليها، كما سبق وأشرنا. وإذ ظهرت بوادر المعارضة لاعتماد "الدستور المؤرّخ" من قِبَل بعض أساقفة الشرق، منع الأمبراطور هؤلاء من عقد مجمع كانوا ينوون تنظيمه في طرسوس ليخرجوا منه بقرار يقول بالمساواة في

---

١ - ريميني RIMINI: مدينة إيطاليّة سكّانها اليوم نحو ٩٠,٠٠٠نسمة، مركز أسقفي.

٢ - أرسوز: مدينة قديمة في قيليقية الثانية، لعلّ العرب سمّوها "أرزن".

٣ - BARDY G., *VARIATIONS*, III, PP. 169 - 170.

الجوهر وليس بالتشابه، غير أنّ انشغال الأمبراطور بحربه ضدّ القبائل القوطيّة سمح لأصحاب الرأي المستقيم بأن يجهروا بالعقيدة النيقاويّة من جديد، نابذين "الدستور المؤرّخ" متشبّثين بوحدة الجوهر، ممّا عرّضهم للاضطهاد من قِبَل فلنسُس بعد عودته من حربه ضدّ القوط، فأعدم بعضهم بالسيف "وألقى القبض على بعضهم الآخر، وأبعدهم على قوارب في مياه البوسفور حيث أُحرقوا"[1]. وعادت الكنيسة لتدخل دورة اضطهاد جديدة، طُرد بخلالها المستقيمو الرأي من كنائسهم التي سُلّمت إلى أصحاب القول "بالدستور المؤرّخ"، وصودرت أملاك المعارضين وأوقافهم ونُفي الأساقفة المؤمنون وكفّ الجيش الأمبراطوريّ عن محاربة الفرس والبرابرة منصرفًا إلى تدنيس الكنائس والمذابح،[2] حتّى أنّ بعض المدوّنات يؤكّد على أنّ الأمبراطور أمر بإغراق عدد من المؤمنين في العاصي بسبب تأييدهم للكنيسة المستقيمة الرأي[3].

هنا يلمع أحد آباء الكنيسة الكبار: باسيليُس القبدوقيّ (٣٢٩ ـ ٣٧٩) أسقف قيصريّة الجديد الذي واجه الأمبراطور بموقف رائع إذ قال له: "أيّ شيء ينتظرني منك؟ فإن لجأتَ إلى المصادرة، فلن تجد عندي سوى بعض الكتب، وإن قلتَ بالنفي فإنّي غريب في هذا العالم، أينما حللت. وإن أمرتَ بالتعذيب فإنّ هذا الجسد النحيل لن يلقى منك سوى ضربة واحدة. أمّا الموت فإنّه سيجعل لقائي بالربّ إلهي الذي من أجله أحيا وأتحرّك، ولأجله أصبحت نصف ميت، وللقائه أتلهّف منذ أمد بعيد"[4].

---

١ - SOZOMÈNE, *HIST. ECC.*, VI, 14.

٢ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٢٤٧؛ ST. GREGOIRE, *ORAT.* 20, 25.

٣ - SOCRATES, *HIST. ECC.*, IV, 17.

٤ - ST. GREGOIRE DE NAZIANZE, *ORAT.*, XX, PP. 49 - 50.

وعندما توجّه الأمبراطور فلنسُس نفسه يوم عيد العنصرة إلى كنيسة قيصريّة وتقدّم إلى المذبح بهديّة، لم يتناولها منه أحد، فارتعد وارتعش، إلى أن تقدّم الأسقف باسيليُس وقبلها، فلانت صلابة الأمبراطور وعامل باسيليُس معاملة طيّبة.

ولمّا أراد الأمبراطور نفيَ باسيليُس، مرض ابنُه الوحيد وأشرف على الموت، فسارع طالبًا من باسيليُس أن يصلّي على ولده، فقبل شرط أن يعمّده عمادة أرثذوكسيّة. ولمّا تعافى، عمّده أسقف آريوسيّ فمات حالاً. ما أغضب الأمبراطور الذي تناول القلم ليحرّر أمرًا بنفي باسيليُس فانكسر القلم. فبراه فانكسر ثلاثًا، فارتجف ومزّق الصكّ[1].

سعى باسيليُس جاهدًا للتقريب والتعاون بين كنيستَي رومة وأنطاكية، وراسل مع عدد من أساقفة الشرق أساقفة إيطاليا وغاليا راجيًا تدخّل أساقفة الغرب لإنقاذ الكنائس الشرقيّة من كبوتها، إلاّ أنّ باسيليُس الكبير قد توفّي مطلع العام ٣٧٩ دون أن تتحقّق رغبته. وبعد انتقاله من هذه الفانية بسنتَين، عُقد المجمع المسكونيّ الثاني في القسطنطينيّة سنة ٣٨١ بحضور ١٤٨ أسقفًا وأبًا من عظماء رجال الكنيسة، إلاّ أنّ الآريوسيّين قد انسحبوا بعد بداية المجمع بقليل ولم يبقَ فيه سوى مستقيمي الإيمان. وقد نتج من هذا المجمع المسكونيّ الهامّ تثبيت الدستور النيقاويّ بعد إضافة بعض الفصول إليه[2]. وإذ حرّر الأساقفة رسالة إلى الأمبراطور فيودوسيُس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) الذي كان يسوس كامل الأمبراطوريّة، شكروه لدفاعه عن الإيمان القويم وسعيه لتوطيد السلم بين الكنائس، أصدر الأمبراطور براءة جديدة مؤرّخة في الثلاثين من تمّوز (يوليو) سنة ٣٨١، أوجب بها إعادة الكنائس إلى الكاثوليكيّين الأرثذوكسيّين، وبذلك انتهت مسألة "الدستور المؤرّخ" كما أمر الأمبراطور بطرد الآريوسيّين من أنطاكية.

---

١ - يعقوب المطران ساويرُس، الكنيسة السريانيّة الإنطاكيّة، ج١، ص ٢٤٨؛ BARDY G., *DECLIN*, III, PP. 260 - 261.

SCHWARTZ P., *ZEITSCHRIFT FUR NEUTESTAMENT* (1926), PP. 38 - 88. - ٢

مَسألَةُ أبولينارُس وَسَائِرِ البِدَع

لم تكن البدعة الآريوسيّة التي شقّت الكنيسة محدثة فيها ذلك الشرخ العظيم، البدعة الوحيدة التي ظهرت في ذلك التاريخ من زمن الكنيسة، بل كان المجال واسعًا للاجتهادات في طبيعة المسيح وفي تحديد لاهوته وناسوته وفي الكثير من الشؤون المتّصلة به، وكان كلّ من تلك الاجتهادات يسبّب خلافات ويتسبّب في اجتهادات مضادة، حتّى كثرت البدع والهرطقات وتناولت أمورًا لم تكن مطروحة من قبل، إلى أن طاولت صفة مريم العذراء: أمّ الله، وقد أحدثت هذه الصفة بحدّ ذاتها مشكلة داخل الكنيسة.

ففيما أكّد آريوس على الطبيعة البشريّة للمسيح، وبينما كانت الكنيسة المستقيمة الرأي تناضل لصدّ بدعة آريوس بعد أن أصبح انتشارها خطيرًا، وكردّ فعل ضدّ الآريوسيّة ومفهومها هذا " أكّد أبولينارُس، أسقف أوديسّة (توفّي حوالى ٣٠٩) على أنّه بينما كان للمسيح جسد بشريّ حقيقيّ وروح بشريّة حقيقيّة، فإنّ الكلمة (Logos) تحتلّ في شخصه المقدّس مكان النفس التي هي أسمى جزء في الإنسان. واتّضح أنّ أبولينارُس كان يستخدم في تفكيره المبدأ الأفلاطونيّ الحديث القائل بأنّ الطبيعة البشريّة مركّبة من ثلاثة عناصر: جسد وروح (تبعث النشاط) ونفس (تجعل الإنسان عاقلاً ومختلفًا عن الحيوانات)..."[1].

وقد قال أبولينارس بنقص في طبيعة المسيح البشريّة، فعلّم أنّ اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الإنسان. ولمّا عقدت الكنيسة الجامعة المجمع المسكونيّ الثاني

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٤١١.

وأدانت أبوليناريس مؤكّدة على حقيقة كمال ناسوت المخلّص، أهملت تعيين جوهر العلاقة بين الطبيعتَين الإلهيّة والبشريّة في المسيح، ومسألة الاتّحاد بين اللاهوت والناسوت، ما أدّى إلى اجتهادات في التفسير. وإذ كانت التعاليم غير موحّدة ومنسّقة بين مدارس الكنائس إن في الشرق أم في الغرب، وكان لكلّ منها نهجها الخاصّ في التعليم وفي استعمال التعابير، فقد أدّى ذلك إلى فتح المجال واسعًا أمام مزيد من البدع.

كانت بدعة أبوليناريس الجبهة المواجهة تعاكسًا لبدعة آريوس. كما كانت في الوقت نفسه ممهّدة لبدعة خطيرة جديدة سوف تؤدّي إلى انشطار آخر في الكنيسة: النسطوريّة*.

وتفيد المدوّنات بأنّ البدعة الأبوليناريّة، وإن كانت قد شغلت الكنيسة لبعض الوقت، إنّما هي بقيت هامشيّة نسبيًا. وقد استحكم الخلاف بشكل بارز في أنطاكية بين الآريوسيّين والأبوليناريّين، خصوصًا حول طبيعة المسيح وحول مكانة مريم العذراء. كما تفيد بأنّ البطريرك الأنطاكيّ ثيودوتس (٤٢٤ ـ ٤٢٨)[١] قد حاول ردّ الأبوليناريّين عن ضلالهم، فعاد إلى الأرثذوكسيّة حوالى نصفهم[٢].

كذلك برزت بدع يصعب تحديدها والإحاطة بها جميعًا في ذلك الزمن المضطرب من تاريخ الكنيسة، منها البدعة المقدونيّة: صاحب هذه البدعة مقدونيُس بطريرك القسطنطينيّة ٣٥١ ـ ٣٦٠. وهي على العموم فرع آريوسيّ، أنكر صاحبها لاهوت الروح القدس، فرذل بدعته المجمع القسطنطينيّ الأوّل سنة ٣٨١.

---

١ ـ ثيودوتس: إسم يونانيّ: THEODOTOS ومعناه عطالله، إختلف المؤرّخون في تعيين مدّة رئاسة هذا البطريرك بين (٤٢٤ ـ ٤٢٨) و (٤١٧ ـ ٤٢٩) و (٤١٨ ـ ٤٢٧). راجع: MUSSET H., *HISTOIRE DU CHRIST*, I, 63; CONSTANTIUS, *PATRIARSH OF ANTIOCHE*, P. 43; رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٣٠٦.

٢ ـ THEODORET, *HIST. ECC.*, V, 37.

ومنها بدعة نوفاتيانُس التي عُرف معتنقوها بالنوفاتيّين. ونوفاتيانُس هذا كاهن رومانيّ كان قد أسّس هذا المذهب سنة ٢٥١، وهو المذهب الذي تصلّب تجاه الخطأة كما سبق وجاء في مكان سابق من هذا البحث.

ومنها بدعة الوالنتيّة التي اتّبع معتنقوها الأمبراطور الرومانيّ فلنسُس (٣٦٤ ـ ٣٧٨) الذي نُسبت البدعة إليه، وهذه البدعة فرع آخر من الآريوسيّة.

إضافة إلى المونتانيّة[1] والمرقيونيّة[2] والبوربوريّة والأفخيتيّة والدوناتيّة التي نُسبت إلى أسقف قرطاجة دوناتُس (حوالى ٣١٥) الذي تصلّب مع الخطأة، والتي أحدثت شقاقًا وفتنًا كثيرة في أفريقية. والبولسيّة التي نُسبت إلى بولس السميساطيّ أسقف أنطاكية (٢٦٠ ـ ٢٧٢) القائل بأنّ المسيح كان إلهًا بالتبنّي. والمركلوسيّة والمانويّة نسبة إلى ماني (٢١٥ ـ ٢٧٦) القائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشرّ، النور والظلام، غير أنّنا نرى مع بعض الباحثين أنّه من غير الجائز نسبة المانويّة إلى المسيحيّة، بل قد يكون من الأصحّ اعتبارها من ديانات الشرق الأقصى.

١ ـ المونتانيّة: بدعة منسوبة إلى مونتانُس، وهو كاهن وثنيّ من آسية الصغرى، صار مسيحيًا وأسّس بدعته ١٧٢ دعا فيها إلى تجديد المواهب الخاصّة التي عرفها المسيحيّون الأوّلون، وقال بوحي ثالث هو وحي البارقليط.

٢ ـ المرقيونيّة أو المركيونيّة: نسبة إلى مَرقيون MARCION (ت حوالى ١٥٥): كاتب مسيحيّ، وُلد في سينوبه من بلاد البنط، نشر كتاب "المتناقضات" الذي أظهر فيه الفرق بين العهدَين القديم والجديد، شكّلت بدعته أولى الكنائس المنفصلة.

مَسألةُ نِسْطُورِيُس

ممّا يدعو إلى الدهشة أنّ الذي سيكون، بعد آريوس، صاحب أخطر بدعة لاهوتيّة بعد الآريوسيّة، هو ذلك الذي بدأ حياته الأسقفيّة بمحاربة البدع كافة بشتّى الطرق والوسائل.

وُلد نسطوريُس NESTORIUS حوالى سنة ٣٨٠ في قيصريّة سورية من أبوَين ليس واضحًا إن كانا سوريَّين أم فارسيَّين، وتتلمذ في أنطاكية إلى أن سيم كاهنًا على مذابحها، واعتنى بتفسير الأسفار المقدَّسة[١]، إلى أن انتُخب بطريركًا على القسطنطينيّة سنة ٤٢٨ بدعم من الأمبراطور البيزنطيّ ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠). وعندما احتُفل بتتويج نسطوريُس في العاشر من نيسان (إبريل)، خاطب الأمبراطور على مسمع من جمهور المحتلفين قائلاً: "أعطني بلادًا خالية من الهراطقة أقدّم لك السماوات بديلاً. واستأصِل الهراطقة لنا نستأصِل الفرس معك"[٢].

وبالفعل فقد استصدر نسطوريُس في الأسبوع الأوّل من ولايته حكمًا من الأمبراطور قضى بإغلاق كنيسة الآريوسيّين في القسطنطينيّة. وقبل انقضاء شهرَين من ولايته استصدر أمرًا آخر قضى باقتلاع "الهرطقة" بجميع فرقها، فأُغلقت كنائس الآريوسيّين والمقدونيّين والأبوليناريّين والنوفاتيّين والأفنوميّين والفالانتينيّين

١ - بشأن نسطوريُس راجع: NAUVE F., *NAISSANCE DE NESTORIUS*, REVUE ORIENTALE CHRÉTIENNE (1909) P. 424 - 426; NAUVE F., *ANALYSE DU TRAITÉ ÉCRIT PAR DENYS BAR SALIBI CONTRE LES NESTORIENS*, REVUE ORIENTALE CHRÉTIENNE ((1909) P. 302; BRIÈRE M., *LÉGENDE SYRIAQUE DE NESTORIUIS*, NO. 19; NAUVE F., *HÉRACLIDE DE DAMAS*, VI; LOOFS F., *NESTORIANA*, P. 171; BARDY, G., *DÉBUTS DU NESTORIANISME*, FLICHE ET MARTIN, IV, 166.

٤ - SOCRATES, *HIST. ECC.*, VII, 29.

والمونتانيّين والمركيونيّين والبوربوريّين والمصلّين والافخيتيّين والدوناتيّين والبولسيّين[1] والمركلوسيّين ومعابد المانويّين وسواهم. وقد استُعمل العنف من أجل تنفيذ الإرادة الأمبراطوريّة ـ النسطوريّة، ما أدّى إلى وقوع جرحى وقتلى.

نسطوريُس هذا، الذي بدأ عهده عدوًّا للبدع، سوف يصبح أحد أسياد البدع.

لاحظ المؤمنون أنّ نسطوريُس كان يتحاشى ذكر عبارة "مريم، والدة الإله". ولمّا نشب الجدل بين أحد كهنته: أناستاسيُس، والآريوسيّين حول "والدة الإله"، وكان أناستاسيُس يقول بأنّ مريم بشر وكبشرٍ لا يمكنها أن تلد إلهًا، ولذا فإنّه لا يجوز القول عنها إنّها والدة الإله، أبى نسطوريُس أن يلوم كاهنه. وعندما حرّم أسقف مركيانوبّولِس: دوروثيُس، إستعمال صفة "والدة الإله" سكت نسطوريُس عن هذا التحريم دون أن يلوم دوروثيُس، إلى أن ردّ نسطوريُس على لائميه بأنّ صفة "والدة الإله" غير واردة في الأسفار المقدّسة ولا في كلام الآباء في نيقية.

برزت بدعة نسطوريُس واضحة عندما قال بـ "طبيعتَين في المسيح": طبيعة ابن الله المساوي للآب في الجوهر، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء، مستندًا في اعتباره هذا إلى قول نيقاويّ جاء فيه: "إنّ ابن الله تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء". وهكذا بدأت بدعة نسطوريُس الذي اقترح الإستعاضة عن قول "والدة اللّه" بقول "والدة المسيح".

وإذ اعتبر نسطوريُس أنّ الشخص الإلهيّ في المسيح هو الكلمة (Logos) فقد ظهر تأثّره واضحًا بأبّوليناريُس الذي سبقه إلى هذا الاعتبار قبل أربعين سنة.

---

١ ـ البولسيّون: جماعة بدعة بولس السُميساطي، أسقف أنطاكية ٢٦٠ ـ ٢٧٠ وقد جاء الكلام عنه، كان مستشار زنوبيا ملكة تدمر، قال إنّ المسيح كان إلهًا بالتبنّي، فرُذل بولس.

بينما كان نسطوريُس في طريقه إلى القسطنطينيّة لمّا دُعيَ ليعيّن بطريركًا عليها، عرّج على معلّمه القديم ثيودورُس الأسقف الشيخ الحكيم، فأقام عنده في موبسوستي لبعض الوقت، وتقول الرواية إنّ هذا المعلّم الشيخ قال لتلميذه نسطوريُس وهو يودّعه: "... إنّي أعرفك يا بنيّ، لم تلد امرأة رجلاً أشدّ حماسًا منك... ولكن... عليك بالاعتدال إذا أردت النجاح في معالجة الاختلافات في الرأي"[1]. ولكن يبدو أنّ نسطوريُس قد نسي وصيّة معلّمه أو أنّه لم يحفل بها.

هذا البطريرك الأنطاكيّ الذي كان عدوًّا للبدع، تطرّف في تعاليمه القائلة بالطبيعتَين، إلى حدّ أصبح القول عنده بـ "شخصيَن أو أقنومَين". ولقد هال المسار اللاهوتيّ لنسطوريُس الأوساط المستقيمة الرأي في أنطاكية، إلى أن اتّهمه بعض علماء اللاهوت بأنّه من أتباع بولس السميساطيّ، ويبدو أنّ معلّم نسطوريُس كان يعرف تلميذه جيّدًا إذ حاول ضبط حماسه يوم أسدى إليه النصيحة، ذلك أنّ هذا الأخير ذهب في حماسه لرأيه إلى حدّ أنّه أمر بضرب الرهبان الذين احتجّوا على تعاليمه، وحتّى إلى حرم جميع الذين لم يقولوا قوله.

كان أوّل مَن تصدّى لنسطوريُس، كيرلُّس أسقف الإسكندريّة (٤١٢ ـ ٤٤٤)، إن على صعيد الطبيعتَين أم على صعيد "والدة الإله". وإذ وصلت أصداء بدعة نسطوريُس إلى رومة دعا البابا قليستينس الأوّل (٤٢٢ ـ ٤٣٢) إلى مجمع محلّيّ عُقد في صيف سنة ٤٣٠ فاعتبر تعاليم نسطوريُس غير قويمة. وقد كتب البابا بذلك إلى أساقفة الشرق وأوجب التراجع عن الضلال فورًا مهدّدًا بالقطع، ووجّه رسالة إلى نسطوريُس نفسه فارضًا عليه التراجع عن الضلال بخلال عشرة أيّام وإلاّ كان لا بدّ من القطع[2].

---

١ - BRIÈRE M., *LÉGENDE SYRIAQUE DE NESTORIUIS*, P. 19.

٢ - JAFFÉ - WATTENBACH, *REGESTA PONTIFICIUM ROMANORUM*, PP. 372 - 373.

عندما كان هذا السجال قائمًا كان يوحنّا بطريركًا على كرسيّ أنطاكية (٤٢٩ ـ ٤٤٨). وبينما أيّد رومة في موقفها أساقفة آسية وأورشليم والإسكندريّة، أيّد نسطوريُس بطريركُ أنطاكيّة يوحنّا الذي عُرف نتيجة هذا الموقف المناهض لرومة ببطريرك الشرق. كذلك انقسمت الكنيسة يومها إلى شطرَين.

نتيجة هذا الخلاف دعا الأمبراطور ثيودوسيُس الثاني إلى مجمع مسكونيّ عُقد في أفسس سنة ٤٣١ وسط تراشق بالمجامع المحليّة التي جرت من قِبَل الطرفَين المتنازعَين على هامش ذلك المجمع المسكونيّ بالتهجّمات اللاهوتيّة. إلاّ أنّه في نهاية المجمع أمر الأمبراطور الحزبَين المتنافرَين أن يجتمعا في مكان واحد، وقام أحد رجال البلاط: يوحنّا قومس، بقراءة براءة أمبراطوريّة عليهم جاء فيها خلع نسطوريُس، ودعت البراءة إلى ضرورة التمسّك بنصّ الدستور النيقاويّ، وأمرت البطاركة والأساقفة بالعودة إلى أوطانهم[١].

إستقال نسطوريُس من منصبه وعاد إلى الدير في أنطاكية، وبقي هناك سنة واحدة إلى أن أمر الأمبراطور بإبعاده عن أنطاكية سنة ٤٣٢، فانتقل إلى البتراء ومنها إلى الواحة الكبرى في صحراء ليبيا حيث لم يعد يُعرف عنه شيء[٢]. إلاّ أنّ بعض المراجع يعتبر أنّه توفّي عام ٤٥١.

وإمعانًا في التخلّص من النسطوريّة التي بقيت تهدّد وحدة الكنيسة بسبب استمرار الخلافات بين معتنقيها وخصومهم، أمر الأمبراطور في الثالث من آب (أغسطس) سنة ٤٣٥ بتحريم تعاليم نسطوريُس وحرق كتبه. ولمّا قام عسكر الأمبراطوريّة باضطهاد أتباع نسطوريُس تنفيذًا للأمر الأمبراطوريّ، وقد شمل هذا الاضطهاد النفي

---

١ - GERLAND - LAURENT, PP. 55 - 56.

٢ - SOCRATES, *HIST. ECC.*, VII, 34.

ومصادرة الأملاك، انتقل هؤلاء الأتباع إلى نواح بعيدة في الشرق، حيث نشروا المسيحيّة من خلال إرسالهم المبشّرين إلى آسية الشرقيّة، بعد أن أنشأوا الرهبانيّات واجتهدوا بالتبشير في الهند والصين وإيران، حيث ظهر في ما بعد النساطرة المعروفون بنساطرة بلاد فارس. وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ هؤلاء النساطرة هم الذين شكّلوا الكنيسة الشرقيّة، أو كما تسمّي نفسها مفاخرة "كنيسة الشرق"... وهم يعتبرون نسطوريُس بين الآباء اليونان وليس السوريّين[1].

وبقي النساطرة يقطنون في كردستان بين الموصل وأرمينية إلى أن انضمّ قسم منهم إلى الكثلكة في القرن السادس عشر، فأصبحوا يُعرفون بالكلدان، أمّا الذين بقوا على نسطوريّتهم فهم الذين عُرفوا بالآشوريّين، وقد تبدّد شملهم بعد حرب ١٩١٤ وأصبحوا مشتّتين في الشرق خاصّة في العراق وبعض سورية ولبنان.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٤١٢.

مَسألة أُوطِيخَة

بينما كان الجدل قائمًا حول طبيعة المسيح بين نسطوريُس من جهة، وكيرلُّس الإسكندريّ بطريرك الإسكندريّة (٤١٢ ـ ٤٤٤) من جهة أخرى، كان يقول قول كيرلّس راهب يونانيّ عاش في القسطنطينيّة، اسمه EUTYCHÈS أوتيشِس، عاش بين ٣٨٨ و٤٥٤، وقد اصطُلح على تسميته بالعربيّة: أوطيخة، أو أوطيخا.

ويبدو من خلال المراجعات أنّ مدرسة اللاهوت الإسكندريّة كانت تشدّد، في ذلك التاريخ، على الطبيعة الإلهيّة في المسيح بنوع خصوصيّ دون أن تنكر فيه الطبيعة البشريّة[١]. إلاّ أنّ هذا الراهب اليونانيّ، وقد كان "زاهدًا ورعًا محترمًا، تقدّم جميع رهبان العاصمة وبرّز تبريزًا"، تمادى في التركيز على الطبيعة الإلهيّة في المسيح، معتبرًا أنّ الطبيعة الإنسانيّة فيه، "ليست سوى نقطة خمر وقعت في بحر ماء، فامتزجت فيه". وهكذا يكون المسيح ذا طبيعة واحدة وأقنوم واحد[٢].

وإذ كان للبطريرك الإسكندريّ أصدقاء كثر، بسبب موقفه المناهض لنسطوريُس، فإنّ هؤلاء الأصدقاء الذين قد لا يجوز تسميتهم بالأتباع، قد اهتمّوا بأوطيخة بعد وفاة البطريرك، وسرعان ما انتشرت بدعته بينهم في القسطنطينيّة، حيث كان يقيم، إلى أن انتقلت باتّجاه مصر والرها وأنطاكية وقورش[٣] وسواها[٤].

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٣٠٧ ـ ٣٢٧.

٢ ـ TIXERONT J., *HISTOIRE DES DOGMES*, III, PP. 84 - 85

٣ ـ قُورُش أو خُورس CYRRHUS: قديمًا موضع في سوريا الشماليّة قرب أعزاز (محافظة حلب اليوم) كانت فيه مستعمرة سلوقيّة أدخلها بومبيُس في حكم الرومان ٦٥ ق.م.، ازدهرت فيها المسيحيّة وعُرفت باسم هاغيوبوليس، ذهب بعضهم إلى أنّ القدّيس مارون قد تنسّك بالقرب منها، من أساقفتها تيودوريطُس المؤرّخ.

٤ ـ DUCHESNE L., *HISTOIRE ANC. DE L' EGLISE*, III, 398.

كان أوّل مَن تصدّى لبدعة أوطيخة: دومنُس أسقف أنطاكية (٤٤١ ـ ٤٤٩) إذ ألّف كتابًا ظهر في نهاية سنة ٤٤٧ تحت عنوان "الشحّاذ"، أكّد على وجود الطبيعتَين معًا في المسيح دون امتزاج. وكان واضحًا من قراءة كتاب دومنُس أنّه استهدف الردّ على بدعة أوطيخة دون أن يسمّيه. إلاّ أنّ دومنُس ذكر أوطيخة بالإسم عندما كتب إلى الأمبراطور يشكو بدعة هذا الراهب، متّهمًا إيّاه بالهرطقة. ولكن يبدو أنّ صداقة كانت تجمع بين الأمبراطور ثيودوسيُس الثاني (٣٩٥ ـ ٤٥٠) وأوطيخة بلغت حد إجلال الأمبراطور لأوطيخة. فكان من الطبيعيّ إذّاك أن يرفض الزعيم البيزنطيّ شكوى دومنُس، بل بلغ به الحنق أن أصدر إرادة أمبراطوريّة سنة ٤٤٨ تدخّلت بشكل سافر بشؤون الكنيسة، إذ حرّم بموجبها بعض المصنّفات الكنسيّة وعزل بعض الأساقفة من مناصبهم. وهكذا نشب الخلاف من جديد داخل الكنيسة بين حزبَين سرعان ما تشكّلا من رواسب الماضي: حزب الأمبراطور وأوطيخة، وحزب دومنُس. وتمادى الأمبراطور في التدخّل بشؤون الكنيسة بشكل لم يسبق له مثيل. وعندما أُثيرت مسألة أوطيخة أمام مجمع قسطنطينيّ محلّي سنة ٤٤٨، حاول صاحب بدعة الطبيعة الواحدة أن يتهرّب، ولكنّه اضطرّ في النهاية إلى حضور المجمع مُحاطًا برهط من موظّفي الدولة ومؤيّديه من الرهبان. ووسط هذا الاستعراض، أصرّ على بدعته، فحكم عليه المجمع بالهرطقة، وقطعه من كلّ رتبة كهنوتيّة ومن الشركة ومن رئاسة الدير الذي كان قد رُئّس عليه. إلاّ أنّ أوطيخة تمرّد على حكم المجمع، وراح يراسل رؤساء الكنائس في الشرق والغرب، مدّعيًا أنّ المجمع القسطنطينيّ قد ظلمه، طالبًا إنصافه. فقامت ضجّة بين تلك الكنائس، وسط انتصار الأمبراطور لأوطيخة. وإذ طلب الأمبراطور من البابا لاون الأوّل (٤٤٠ ـ ٤٦١) تلميحًا الدعوة لعقد مؤتمر مسكونيّ للنظر في قضيّة أوطيخة، بهدف إسقاط مقرّرات المجمع القسطنطينيّ، تروّت رومة

بحكمة، ودرست الموضوع بدقّة، قبل أن تعقد مجمعًا محليًّا دقّق في أعمال مجمع القسطنطينيّة، فوافق عليها، خلافًا لما كان يتمنّاه الأمبراطور الذي أغضبه اعتذار رومة عن حضور البابا لأيّ مجمع مسكونيّ قد ينعقد للنظر في قضيّة أوطيخة.

لم يمنع موقف رومة الأمبراطور من الدعوة إلى مجمع مسكونيّ بدأ أعماله في أفسس سنة ٤٤٩، وقد عيّن الداعي إليه الحضور وجدول الأعمال والرئيس وسائر الأمور المتعلّقة بهذا المجمع، بعد أن أمر بإلقاء القبض على بعض الأساقفة المناهضين لرأي أوطيخة. وفي أجواء يمكن وصفها بالبوليسيّة، تمكّن الأمبراطور من انتزاع قرار من المجمع، أعلن عن استقامة رأي أوطيخة وقرّر إعادته إلى مقامه ورئاسة ديره، بعد "إدخال الجند إلى المجمع، والرهبان المؤيّدين لأوطيخة، والبحّارة المصريّين وسواهم من عناصر الغوغاء. وقد جرّ هؤلاء بعض معارضي أوطيخة من الأساقفة جرًّا على الأرض وداسوهم وسجنوهم ومات بعضهم بسبب كلّ هذا بعد أيّام قليلة من تعرّضهم للاعتداء، وتمكّن بعضهم الآخر من الفرار واللجوء إلى رومة"[١]. كذلك أصدر المجمع قرارات حطّت من مقام كلّ أسقف لا يرى رأي أوطيخة، واتّهمت عددًا منهم بالسرقات، أو بأنّه غير أهل لأن يكون كاهنًا، وحرمت آخرين، واتّهمت سواهم بممارسة السحر والعرافة وبكسر الصوم وبالاشتراك في القصف مع اليهود، أو بالنسطرة، وخلع مَن خلع، وفرض رسم وتعيين أساقفة مكانهم من حزب أوطيخة والأمبراطور[٢]. كلّ ذلك جعل هذا المجمع يوصَم باللصوصيّة من قِبَل المؤرّخين الذين عرّفوه بـ "المجمع اللصوصي"[٣].

---

١ - LIBELLUS, *APPELLATIONIS* (ED., MOMMSEN 1886), PP. 362 - 367.

٢ - راجع: MARTIN P., *ACTES*, PP. 11, 77 - 172; THEODORET, *EPIST*, PP. 113 - 116.

٣ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

الفَصلُ الخَامِس

المفصَل الخَلقيدُونيّ

المَجمَع الخَلقيدُونيّ المَسكونيّ

المقرّرات الحاسِمَة

المَجمَع الخَلقيدُونيّ المَسكونيّ

لقد أحدث مؤتمر أفسس المسكونيّ ـ الأمبراطوريّ الذي انعقد بدعوة من الأمبراطور ثيودوسيُس الثاني سنة ٤٤٩، بشكله وأحداثه ومقرّراته، ردّة فعل مدوّية في الأوساط الكنسيّة على كافّة مستوياتها في الشرق والغرب. فما إن وصلت أنباء هذا المجمع إلى رومة حتّى انتفض حبرها الأعظم لاون الكبير، الذي سارع إلى إرسال كتاب إلى الأمبراطور يعترض فيه على كلّ ما جرى، مؤكّدًا على وجوب انعقاد مجمع مسكونيّ جديد لإعادة النظر بكلّ ما صدر من مقرّرات. وعبّر البابا كذلك عن عدم قبوله بما حصل من خلال رسائل مماثلة بعث بها إلى الأمبراطورة وإلى الإكليروس وإلى الشعب. غير أنّ الأمبراطور ثيودوسيُس قابل موقف رومة باللامبالاة، ما جعل البابا يعيد مراسلته بالمعنى نفسه دون جدوى[1].

لم يمضِ سنة واحدة على انعقاد ذلك المجمع حتّى لاقى الأمبراطور حتفه إذ حرن به حصانه وأوقعه عن ظهره فأرداه. وإذ لم يكن لثيودوسيُس عقب، أدارت دفّة الأمبراطوريّة أخته بلشيرية لوقت وجيز، وتزوّجت بعد حين مركيانُس قائد الجيش.

بزواجه من بلشيريَة المشروط "بأن تبقى عذراء وأن يقتصر موضوع الزواج على الاشتراك في إدارة الأمبراطوريّة"[2]، أصبح مركيانُس سيّد الأمبراطوريّة (٤٥٠ —

١ ـ INTER EPISTOLAS LEONIS, EPIST. 4, PP. 56 - 58.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٣٣٦.

٤٥٧). وكان من بين أوّل الإجراءات التي اتّخذها هذا الأمبراطور الذي اشتهر بعدله وبتأييد الجيش له بقوّة، أنّه أبعد أوطيخة عن البلاط، وأعلن عن عزمه على إنهاء الظلم والفوضى. ثمّ سارع إلى الدعوة لعقد مجمع مسكونيّ جديد بعد أن أمر بإعادة الأساقفة الذين نفاهم المجمع السابق تعسّفًا إلى ديارهم.

هذا المجمع التاريخيّ، وهو المجمع المسكونيّ الرابع، الذي عُقد في خلقيدونية[1] وبدأ أعماله في الثامن من تشرين الأوّل (أكتوبر) ٤٥١، سوف يكون له فعل الفصل بين المعتقد المسيحيّ الأساسيّ وبين كلّ ما سبق انعقاده من ظهور لأفكار وفلسفات دينيّة مسيحيّة أطلقت عليها الكنيسة الجامعة تسمية البدع. ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت الكنيسة التي تبنّت مقرّرات المؤتمر الخلقيدونيّ، على مختلف تسمياتها الفرعيّة، معروفة بالكنيسة الخلقيدونيّة الجامعة دلالةً على استقامة رأيها.

سبق انعقاد ذلك المجمع صدور دعوة عن البلاط الأمبراطوريّ في السابع عشر من أيّار (مايو) ٤٥١ إلى مجمع مسكوني يفتتح في الأوّل من أيلول (سبتمبر)، وقد لبّى تلك الدعوة خمسمئة أسقف تلاقوا في القسطنطينيّة لينتقلوا منها إلى نيقية في الموعد المعيّن، لكنّ ظروفًا عسكريّة قضت بتأخرّ الأمبراطور مركيانُس عن الحضور، فأجّل انعقاد المجمع مدّة وجيزة، فانتهز ديوسقوروس هذه الفرصة للدسّ والتخريب إذ سعى حثيثًا لقطع البابا لاون ولكنّه لم يلقَ آذانًا صاغية خارج أوساط الأساقفة المصريّين. واعترف في هذه الآونة نفسها بمكسيموس أسقفًا على أنطاكية. ثمّ رغب مركيانُس في أن تُعقد جلسات المجمع في خلقيدونية لقربها من العاصمة، وأمر بإخراج رهبانها منها لتأمين السلام والصفاء فأُخرجوا. وبدأ المجمع المسكونيّ الرابع أعماله في الثامن من

---

١ ـ خَلْقيدونيّة CHALCEDOINE: من آسية الصغرى، وهي مدينة قديمة كانت تقع في منطقة بيثينية البوسفور BITHYNIE، هي اليوم كاديكوي التركية.

تشرين الأوّل (أكتوبر) ٤٥١ في خلقيدونية، بحضور عدد كبير من الأساقفة الذين مثّلوا كنائس الشرق: أنطاكية، وخناصير[١]، وحلب، وقنسرين[٢]، وجبلة[٣]، وجبّول[٤]، وبالس[٥]، وسلفكة[٦]، من مقاطعة سورية الأولى؛ وأفامية[٧]، والرستن[٨]، وشيزر[٩]، ومريمين[١٠]، ورفنية[١١] وجسر الشغور[١٢]، من مقاطعة سورية الثانية؛ وذكرت المدوّنات أنّه تمثّل أيضًا من الأسقفيّات السوريّة كلّ من أسقفيّتي سلفكة الساحليّة[١٣]،

---

١ ـ خناصير: بلدة سوريّة كانت تُعرف قديمًا بـ "كوناسارا" تقع إلى الجنوب الشرقيّ من حلب على مسافة حوال ستّين كلم منها، وُجدت فيها آثار لكنيسة كبيرة.

٢ ـ قنّسرين: بلدة سوريّة تُعرف بأسكي حلب، كانت على طريق القوافل بين حلب وأنطاكية، حصّنتها سلوقوس نيكاتور الظافر (٣٥٥ ـ ٢٨٠ق.م.) ودعاها خلقيس أدبيلوم CHALEIS.

٣ ـ جبلة: مرفأ سوريّ يقع جنوبيّ اللاذقيّة، هو اليوم مركز قضاء، وهي جبلة الفينيقيّة، لبنة إرواد، وقبل أن تصبح كرسيًّا أسقفيًّا استولى عليها السلوقيّون، ثمّ الرومان مع فتح بومبيُس (٦٤ ق.م.).

٤ ـ جبّول: موضع جنوب شرقيّ حلب، اسمها اللاتينيّ GABBOLA.

٥ ـ بالِس: هي اليوم إسكي مَسكَنَة، قرية سوريّة شرقي حلب، عندها يتحوّل مجرى الفرات من الجنوب إلى الشرق، كانت مدينة عامرة فتحها أبو عبيدة الجراح وضمّها الرشيد إلى جند العواصم، كانت مركزًا تجاريًّا هامًّا في العصور الوسطى، احتلّها الصليبيّون ١١٠٠ وخرّبها المغول ١٢٦٠.

٦ ـ سلفكة: هي سلوقية التراخية الهلنستية، تقع على نهر كليكدنس في قيليقية شمال تركية، كان فيها مقام "تبوءات" أفلون.

٧ ـ أفامية: كانت تقع بجوار قلعة المضيق في سورية على مسافة ٤٥ كلم من حمص، دُعيت أوّلاً "فرناكه" ثمّ "بيلا"، وسّعها سلوقوس نيكاتور الظافر (٣٥٥ ـ ٢٨٠ق.م.) ودعاها أفامية باسم زوجته الفارسيّة، كانت مركزًا سلوقيًا هامًّا، إحتلّها الرومان ٦٤ ق.م. ثمّ أضحت مركزًا أسقفيًا في العهد البيزنطيّ.

٨ ـ الرّستن: هي ARETHUSA قرية سوريّة مركز قضاء اليوم يحمل اسمها في محافظة حمص.

٩ ـ شيزَر: كانت تقع على العاصي شمال حماة.

١٠ ـ مريَمين: كانت تقع في الأردنّ شرقيّ قصر المشتى القديم.

١١ ـ رفَنية RAPHANIA: مدينة قديمة من أعمال حمص، كان اسمها رفنية تدمر.

١٢ ـ جِسر الشغور: هي سلوكوبِلُس القديمة SELEUCOBELOS، بلدة سوريّة ومركز قضاء جسر الشغور في محافظة أدلب.

١٣ ـ سلفكة الساحليّة: هي سَليقيّة وسَلَقيّة: مدينة قديمة من ناحية الشام.

وأنيموريون[1]؛ وحضر أساقفة كلٌّ من طرسوس* وأدنه[2] وأوغسطه[3] وخمسة أخرون من قيليقية الأولى، وعين زربة[4]، والإسكندرونة[5] وموبسوستي[6] وأرسوز*، وخمسة آخرون من قيليقية الثانية؛ ومنبج[7]، وبالس[8]، وقورش[9]، ودلوز[10]، وجرابلس[11]،

---

١ ـ أنيموريون: هكذا ورد الإسم، لعلّها عمّوريّة الواقعة على شاطئ العاصي بين أفاميا وشيزر، فيها آثار قديمة، وهي غير عمورية بيزنطية في آسيا الصغرى الصغرى؛ ومنهم من اعتبر أنّها دير مُران الذي كان واقعًا في غوطة دمشق.

٢ ـ أدَنَه أو أطَنه أو أضَنه ADANA: مدينة تركيّة قاعدة مقاطعة سيهان في كيليكيا.

٣ ـ أوغُوسطا أو أوغوستا: هي نفسها أنقرة عاصمة تركيا اليوم وسط الأناضول، عُرفت قبلاً باسم أنسيرة ثمّ أنجورة وكانت مركزًا تجاريًا هامًا منذ عهد الحيثيّين، أصبحت عاصمة إقليميّة تحت حكم الرومان وازدهرت في عهد أوغسطس فنسبت إليه، من آثارها معبد رومانيّ يرجع إلى ذلك العهد.

٤ ـ عين زَرْبَة: بلدة في تركيا من نواحي مدينة المصيصة على شاطئ نهر جيحان قرب طرسوس، خرّبها الروم مرارًا، أعاد الرشيد بناءها وتحصينها وأسكن فيها أقوامًا من خرسان، أسكن المعتصم فيها وفي نواحيها أقوامًا من الزطّ.

٥ ـ الإسكَنْدَرونَة: مدينة سوريّة على المتوسّط تقع على خليج اسكندرون، أسسها الإسكندر، وضعت تركيا يدها عليها مع سنجقها ١٩٣٩، ميناء هام.

٦ ـ موبْسُوسْتي MOPSUESTE: إسمها اليوم المصيصة، مدينة تركيّة على شاطئ نهر جيحان قرب طرسوس.

٧ ـ مَنْبج: مدينة سوريّة، هي اليوم مركز قضاء منبج في محافظة حلب، عُرفت قديمًا بـ "مبّول"، أطلق عليها السلوقيّون اسم HIERAPOLIS، إشتهرت بهيكلها المكرّس للإله هدد وللإلهة أترغاتيس قبل أن يعتنق أهلها المسيحيّة، فيها استلم الأمبراطور هرقل عود الصليب من الفرس سنة ٦٣٠.

٨ ـ بالِس: هي اليوم: إسكي مسكنة، قرية سوريّة في شرق حلب، احتلّها الصليبيّون سنة ١,٠٠ بعد أن كان فتحها أبو عبيدة الجرّاح، وضمّها الرشيد إلى جند العواصم، ثمّ خرّبها المغول سنة ١٢٦٠.

٩ ـ قُورُش أو خورُس CYRRUS: بلدة قديمة كانت تقع قرب أعزاز في محافظة حلب، كانت مستعمرة سلوقيّة، أدخلها بومبيُس في حكم الرومان سنة ٦٤ ق.م. ثمّ ازدهرت فيها المسيحيّة وعُرفت باسم هاغيوبوليس، ذهب بعضهم إلى أنّ القدّيس مارون قد تنسّك بالقرب منها، ومن أساقفتها تيودوريطُس المؤرّخ الذي مثّلها في المجمع الخلقيدونيّ.

١٠ ـ دلوز: هي DOLICHÉ القديمة، موضع بالقرب من معرّة النعمان في سورية، فيها آثار أبنية يرقى عهدها إلى ما قبل القرن السابع ميلاديّ.

١١ ـ جَرابلُس: بلدة في شمال سورية، إسمها القديم EUROPOS، هي اليوم مركز قضاء يحمل اسمها في محافظة حلب، وهي نفسها التي كانت عاصمة دولة كركميش، وفيها حدثت المعركة الحاسمة بين الأشوريّين والبابليّين والماديّين ٦١٢ ق.م. التي أدّت إلى سقوط الدولة الأشوريّة.

ومرعش[1]، وصفّين[2]، وقلعة الروم[3]، والبيرة[4]، والرصافة[5]، وسميساط[6]، والصتور[7]، وزوغما[8]، من منطقة الفرات؛ وأساقفة كلّ من الرها[9]، وبرثا[10]، والرقة[11]،

---

١ ـ مَرعَش: مدينة في جنوب تركية على حدود سورية، فتحها أبو عبيدة صلحًا ٦٣٧، إلاّ أنّ العثمانيّين الأتراك قد ذبحوا فيها آلاف الأرمن في ١٨٩٥ و١٩١٧.

٢ ـ صِفِّين: هي NEOCESARIA القديمة، تقع على الحدود السوريّة على شاطئ الفرات الأيمن، إشتهرت بموقعة علي ومعاوية على أرضها ٦٥٧.

٣ ـ قلعة الروم: هي OURIMA، تقع غربيّ الفرات قبالة البيرة أو براجيل، كان فيها حصن قديم لعب دورًا في الحرب الصليبيّة إذ أخذه الإفرنج من المسلمين أيّام بغدوين الثاني ١١١٩.

٤ ـ البيرَة: هي PERRHÉ، عُرفت أيضًا بـ "براجيل". كانت تقع على الفرات قبالة قلعة الروم المذكورة أعلاه.

٥ ـ الرُّصَافَة: هي SERGIOPOLIS، مدينة قديمة في بادية الشام على بعد حوالى ٤٠ كلم عن يمين الفرات، دُعيت سرجيوبوليس بسبب استشهاد القديس سركيس ـ سرجيوس وزميله باخوس فيها ٣٠٥، اشتهرت بمزارها، شيّد فيها الأمبراطور أنستازيوس (٤٩١ ـ ٥١٨) كنيسة كبيرة، وُجدت فيها بقايا كنائس قديمة.

٦ ـ سَمَيسَاط، أو شَمَيشَاط SAMOSATE: مدينة سوريّة على الفرات، هي اليوم قرية تُعرف باسم سمزاط تقع في الأراضي التركيّة، نبغ منها لوقيانوس الكاتب، ولوقيانوس القديس، وبولس الأسقف المعروف ببولس السميساطيّ الذي ورد ذكره في هذا البحث، إزدهرت في العهد الرومانيّ، فتحها العرب حوالى ٦٤٠ واستردّها البيزنطيّون مرارًا، فتحها صلاح الدين ١١٨٨.

٧ ـ الصتّور: هي صوري القديمة، قرية في سورية على الخابور بين دير الزور والحسكة، وُجدت فيها آثار لمختلف العهود القديمة.

٨ ـ زوغما: ذكرها ياقوت باسم زغمَوَا، على أنّها بلد قديم غربيّ الفرات فيه آثار قلعة وعمارة عظيمة دثرت كلّها، بينها وبين البيرة ميل أو زيادة، وفيها بقايا قنطرة كانت على الفرات.

٩ ـ الرُّها EDESSE أو أورفا URFA: ورد ذكرها سابقًا، مدينة بين النهرَين في تركية، اشتهرت بمدرستها اللاهوتيّة، إشتهر من أساتذتها أفرام السريانيّ ورابولا.

١٠ ـ بَرثَا: وردت في المراجع اللاتينيّة BIRTHA وأحيانًا MOCEDNOPOLIS وقد ترجمها "رستم" بـ "بيرة جك"؛ ياقوت ذكر بَرثَة في نواحي الكوفة، كما ذكر بِرْث على أنّها بلدة في سواد بغداد.

١١ ـ الرقّة: مدينة سوريّة شيّدها الإسكندر المقدونيّ، ودعاها اليونان "نيقيفوريون" والرومان "كالينيكوس"، عُرفت أيضًا بـ "الرشيد" لأنّ هارون الرشيد جعلها عاصمته الصيفيّة بعد نكبة البرامكة وبنى فيها قصر السلام.

وقرقيسيّة[١]، وقسطنطينيّة*، وحرّان[٢]، ومركوبوليس[٣]، إضافة إلى أسقف العرب من منطقة الرها*، وأساقفة: آمد[٤]، وغزّة[٥]، وكيفا[٦]، وأبجل[٧]، وميافارقين[٨]، وصوفانة[٩] من منطقة ما بين النهرَين؛ أساقفة بصرى[١٠]، ودرعة[١١]، ومسميّة[١٢]، القنوات[١٣]،

---

١ ـ **قَرقيسيّة**: وردت في المراجع اللاتينيّة CIRESIUM، رجّح رستم أن تكون قرقيسيون عند مصبّ الخابور في الفرات، أمّا قرقيسيّة فهي مدينة سوريّة تقع عند ملتقى الفرات بالخابور.

٢ ـ **حرّان**: هي CARRHAE، مدينة تركيّة قديمة تقع في بلاد ما بين النهرَين، موطن أسرة إبراهيم الخليل بعد هجرته من أور، دعاها الرومان كارهاي.

٣ ـ **ماركوبوليس**: لعلّها ماردين التركيّة، جلا عنها أكثر المسيحيّين ١٨٩٥ ـ ١٩١٧، بالقرب منها دير الزعفران للسريان، كانت مركزًا أسقفيًا، من آثارها قلعة شهيرة.

٤ ـ **آمد**: هي ديار بكر الحاليّة، مدينة تركيّة على شاطئ دجلة الأيسر.

٥ ـ **غزّة**: هي غير غزّة فلسطين، اعتبرها المؤرّخون مجهولة الموقع، قد تكون "الأزغ" التركيّة الواقعة شمال ديار بكر.

٦ ـ **كيفا أو حصن كيفا**: مدينة تركيّة على نهر دجلة، كانت مقرّ أسقف سريانيّ.

٧ ـ **أبجل**: بلدة قديمة في ديار بكر.

٨ ـ **ميافارقين**: قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمينية (تركية)، سُمّيت قديمًا مارتيروبوليس MARTYROPOLIS أو مدينة الشهداء لما جُمع فيها من عظام الشهداء الفرس المسيحيّين.

٩ ـ **صوفانة**: الرّاجح أنها سفّان بين نصّيبين وجزيرة ابن عمر في ديار ربيعة.

١٠ ـ **بصرى**: هي إسكي شام: مدينة في محافظة حوران السوريّة، فيها آثار من العهد الهلنستي، عاصمة الإقليم الغربيّ في أيّام ترايانوس ١٠٦، أصبحت في العهد المسيحيّ كرسيًا أسقفيًا ذا شأن، إشتهرت بكنسيتها الرائعة في القرن السادس، افتتحها العرب ٦٣٢، دخلها الصليبيّون ١١٤٦ و ١١٨٢.

١١ ـ **درعة**: مدينة سوريّة، قاعدة محافظة حوران أو درعة، هي أذرعات القديمة، فيها آثار يونانيّة ورومانيّة.

١٢ ـ **مسميّة**: هكذا وردت عند رستم، وفي اللاتينيّة PHAENA، نميل إلى اعتبار أنّها بلدة المسيفرة السوريّة من أعمال محافظة درعة.

١٣ ـ **القنوات**: قرية سوريّة من أعمال محافظة السويداء، هي قناثا CANATHA الرومانيّة، ازدهرت فيها المسيحيّة في القرنَين الرابع والخامس، فتحها العرب ٦٣٧، وُجدت فيها أنقاض كنيسة فخمة، وفيها مزار للنبيّ أيّوب، هي اليوم مركز إقامة شيخ الدروز الأكبر.

واللجا[1]، والسويدا[2]، والصنمين[3]، وحسبان وحرّان[4]، وجرش[5]، ومأدبا[6]، وشقة[7]، وخان النيلة[8]، ونوى[9]، ومشنف[10]، وعمّان[11]، وشحبة[12]، وإذرح[13]، من العربيّة؛

---

١ ـ اللجا أو الحرّة السوداء: منطقة وبلدة سورية جنوبيّة تفصل بين جبل الدروز وحوران، ذُكرت في المراجع: قسطنطينة اللجا، وهي تُكتب محليًا: اللجاه.

٢ ـ السُوَيْدَا أو السُوَيْدَاء: بلدة سوريّة تشكّل قاعدة جبل الدروز، احتلّها الأنباط في القرن الأوّل ق.م.، والرومان في أوائل القرن الثاني ميلاديّ، أصبحت كرسيًّا أسقفيًا في القرن الخامس، وُجدت فيها أنقاض كنيسة قديمة.

٣ ـ وردت عند ياقوت الصَنَمَان: قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران، بينها وبين دمشق مرحلتان.

٤ ـ حرّان: هي غير حرّان ما بين النهرين (تركية) التي تُعرف باللاتينيّة بـ CARRATTAE أو CARRTTES، أمّا هذه فذُكرت باللاتينيّة EUTINUI، ولعلّها هي نفسها EURANTIS أي حوران الحاليّة، ومن الراجح أنّ حسبان الوارد ذكرها سالفًا تقع في جوارها امتدادًا حتّى شمال الأردن.

٥ ـ هي نفسها جرش الأردنيّة الواقعة في شمال المملكة على سفح جبل عجلون والقائمة على أنقاض مدينة قديمة أنشأها الإسكندر المقدونيّ أو أحد قادته، ازدهرت في العهد السلوقيّ، احتلّها الرومان ٦٣ ق.م. ثمّ خضعت لتأثير الأنباط، أنشئ فيها كرسيّ أسقفيّ في القرن الرابع قبل أن يفتحها العرب ٦٣٥، وُجدت فيها آثار كنائس كبيرة وهياكل وشوارع رومانيّة.

٦ ـ مأدَبا: بلدة في المملكة الأردنيّة الهاشميّة جنوب عمّان، شيّدها المؤابيّون، ازدهرت في عهد الرومان، شهيرة بالفسيفساء الأثريّة خاصّة تلك التي تمثّل خارطة فلسطين والقدس في القرن السادس.

٧ ـ شَقَّة: هي MAXIMIANOPOLIS ودُعيت أيضًا سقايا، تقع في جبل السويداء، وُجد فيها بقايا دير قديم يرجع بناؤه إلى أواخر القرن الثاني ميلادي.

٨ ـ خان النِّيلة: هي NÉAPOLIS القديمة في جبل السويداء، فيها بقايا كنيسة أثريّة وأبنية أخرى.

٩ ـ نَوى: هي NÉVÉ باللاتينيّة، تقع في منطقة جبل السويداء، تحتفظ ببقايا أثريّة هامّة.

١٠ ـ مِشْنَف: وردت في المراجع اللاتينيّة NEELA، تقع بالقرب من خان النيلة المذكورة أعلاه.

١١ ـ عمّان: هي اليوم عاصمة الأردن، شُيّدت على أنقاض "ربّة عمون" القديمة عاصمة العمونيّين ودُعيت فيلادلفيا في عهد بطليمس فيلادلفس، عُدّت من المدن العشر، كانت جزءًا من دولة الأنباط، استولى عليها الرومان ٣١ ق.م.، كانت كرسيًّا أسقفيًا، فتحها العرب بقيادة يزيد بن أبي سفيان ٦٣٥ وأصبحت قاعدة إقليم البلقاء، من آثارها قلعة عمّان ومسرح روماني.

١٢ ـ شَحبَة: هي PHILOPPOPOLIS من أعمال الأردن.

١٣ ـ أَذرُح: تقع بين معان وسلع في الأردنّ، عُرفت أيضًا باسم زريانة، ذكرتها المراجع اللاتينيّة ZERABÈNE، اشتهرت بالتحكيم الذي عُقد فيها بعد وقعة صفين بين علي ومعاوية ٦٥٨.

وأســـــاقفة صــــور[1]، وطرطـــــوس[2]، وأرواد[3]، وعرقـــــة[4]، وبـــــيروت[5]،

---

١ ـ تُعدّ أسقفيّة صور لبنان من أقدم الأسقفيّات المسيحيّة، وأوّل من تبوّأ كرسيّ صور هو قسيس الذي اجتمع بقالور أسقف عكّة وفريق من أساقفة فلسطين يوم الإحتفال بعيد الفصح وحتّموا أن يسلكوا طبقًا لتقريرهم واتّفاقهم ويعمّموا ذلك في الكنائس اللائذة بهم، ثمّ كتبوا في هذا المعنى إلى بيقطور الحبر الرومانيّ ١٨٩ ـ ١٩٨، وممّن تولّى كرسيّ صور "طيران" الذي امتاز بغيرته الرسوليّة وأحرز إكليل الشهادة في عهد ديوقلطيان قيصر ٢٨٤ ـ ٣٠٥، وذكر أوسابيوس القيصريّ المؤرّخ من مشاهير الشهداء في فونيقي نذكر خصوصًا طيران مطران بيعة صور الذي أُلقي جثمانه في قعر البحر، ومن مشاهير أساقفة صور فولين الذي نُقل إلى الكرسيّ الأنطاكيّ ٣٣٢ ـ ٣٣٧ وهو الذي جدّد بيعة صور ووسّعها، وفيها ألقى أوسابيوس القيصريّ يوم تدشينها خطبة رائعة بحضور فولين فسمّاه "المثلّث الطوبى والمحنّك في السياسة"، وحضر زينون الأوّل مطران صور المجمع النيقاوي الأوّل المسكونيّ ٣٢٥، وكان زينون الثاني مطران صور في عداد آباء المجمع القسطنطينيّ الأوّل المسكونيّ ٣٨١، واشتهر فوط مطران صور في عهد المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ الرابع ٤٥١ وجرت منافسة بينه وبين أوسطاثيوس أسقف بيروت فقضى الآباء في الجلسة الرابعة بتبرئة ساحة يهيبا مطران الرها وأرجعوه إلى كرسيّه معزّزًا مكرّمًا، ولمّا تولّى أبيفان مطرانيّة صور دافع عن عقيدة المجمع الخلقيدونيّ وناهض سويرا بطريرك أنطاكية ٥١٢ ـ ٥١٨ ورفض رسائله وعنّفه على ما اقترف من الأفعال المنافية لحقوق الكنيسة، وواصل أبيفان رعاية أبرشيّته حتّى عهد جوستينُس قيصر ٥١٨ ـ ٥٢٧.

٢ ـ **طَرطوس:** مدينة وميناء على الشاطئ السوري قبالة جزيرة أرواد، قاعدة محافظة طرطوس اليوم التي يتبعها أقضية بانياس وصافيتا والشيخ بدر، بناها قسطنطين على أنقاض مستعمرة فينيقيّة، مركز أسقفي قديم، فتحها العرب ٦٣٨ ثمّ البيزنط ٩٦٨، احتلها الصليبيّون ١٠٩٩ ـ ١١٠٢ وشادوا فيها كنيسة ملوكيّة باقية إلى اليوم، استعادها السلطان قلاوون ١٢٩١.

٣ ـ **أرْوَاد:** هي أرفاد الفينيقيّة وأرادوس اليونانيّة، ورد اسمها في التوراة، جزيرة سوريّة آهلة على مسافة ٣ كلم من شاطئ طرطوس، طولها ٨٠٠م وعرضها ٥٠٠، كانت قديمًا مملكة فينيقيّة وصلت حدودها إلى جهات حمص وحماة، ناصر أسطولها الفرس في معركة سلامين ٤٨٠ ق.م.، دخلتها المسيحيّة باكرًا مع سائر المدن الفينيقيّة، فيها آثار فينيقيّة وصليبيّة.

٤ ـ **عرقة:** مدينة قديمة في منطقة عكّار من شمال لبنان، مسقط رأس اسكندر ساويرس الأمبراطور الروماني ٢٠٨ ـ ٢٣٥، كانت مركزًا أسقفيًا شمل نطاقه بلدات شدرا وعندقت والرحبة وخربة الرمّان وشربيلا وحوشب وقرقف وقعبرين وكفرنون وكينيسا وكفرملكا وكويخات ومجدلا ومشحا وغيرها من بلدات عكّار، فيها آثار بالغة الأهميّة بدأ كشفها في السنوات الأخيرة من قبل الإدارة اللبنانيّة.

٥ ـ أصبحت بيروت مقرًّا أسقفيًا منذ القرن الرابع، ورد في أعمال القديس كوراتوس الذي يذكره بولس في رسالته إلى الرومانيّين (٢٣:١٦) أنّه أوّل أسقف أقيم على بيروت وأنّه كان من عداد التلاميذ الإثنين والسبعين، من شهداء المسيحيّة في بيروت أبيانوس الذي درّس الفقه في معهدها، والقدّيسان يوحنّا وأركاديوس، ومنهم أيضًا القديس رومانوس الشمّاس، وممّن ورد ذكرهم في عداد شهداء المدينة يهوذا الرسول، ومريانا البيروتيّة الشهيدة التي كان لها في المدينة عبادة خاصّة، وجاء في تاريخ البطريرك ساويرُس أنّ بيروت كانت تحتوي كنيسة باسم القديس يهوذا أخي يعقوب البار في القرن السادس.

والبترون[1]، وجبيل[2]، وعرطز[3]، وبانياس[4]، والنبيّ يونس[5]، وعكّة[6]، وصيدا[7]،

---

١ ـ يصرّ مؤرّخو السريان على أنّ بطرون كانت سادس الأسقفيّات بعد مطرانيّة صور، وعُرف من أساقفتها فرفور في المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ الرابع، وفي البترون من العهد الصليبيّ عدّة كنائس وقلعة صغيرة تقوم عند الشاطئ كانت تؤدّي دور المراقبة للطرقات والممرّات بين السلسلة الغربيّة والبحر، أمّا كنيسة البترون القديمة فلا نعرفها إلاّ من وصف أحد السيّاح الفرنج لها، وقد مرّ في البترون في القرن الرابع عشر.

٢ ـ ورد في التاريخ الكنسيّ أنّ بطرس الرسول قد عيّن تلميذه يوحنّا مرقس أسقفًا على جبيل، وقد أكّد دورتاوس الصوري على هذا، كما سجّل السنكسار الرومانيّ في ٢٧ أيلول (سبتمبر) إستشهاد القدّيس يوحنّا الملقّب مرقس أسقف جبيل في فينيقية، وممّن ورد ذكرهم من أساقفة جبيل القدماء الأسقف أوثاليوس الذي عمّد القدّيسة الجبيليّة أكواليتا وهي حديثة السن قبل استشهادها نحو ٣٠٨، وعُرف من أساقفة جبيل الأقدمين أوثل في القرن الثالث، وباسيليد أو روفين في المجمع القسطنطينيّ الأوّل، أصبحت جبيل بعد القرن السادس خاضعة كنسيًا توًا للكرسيّ الأنطاكيّ.

٣ ـ عَرطِز: وردت في المراجع اللاتينيّة ORTHOSIA، عرّبها رستم إلى عرطوز دون أن يذكر موقعها، وفي الواقع أنّها تقع في قضاء البترون من لبنان الشمالي، وُجدت فيها آثار لأبنية كنسيّة قديمة ـ المؤلّف ـ راجع: أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، الجامعة الأميركيّة في بيروت (بيروت،١٩٥٦) ص ٢١٩.

٤ ـ بانْياس: هي نفسها قيصريّة فلِيبُس الوارد ذكرها في حاشية سابقة، بلدة في سوريا قرب نبع الأردن على سفح جبل الشيخ، فيها سلّم يسوع السلطة لبطرس، احتلّها الصليبيّون وأعادوا بناء قلعتها المعروفة بقلعة الصبيبة أو قلعة بانياس ١١٣٠، استعادها العرب ١١٣٤.

٥ ـ النبيّ يونس: قرية لبنانيّة تقع في قضاء الشوف من محافظة جبل لبنان، وردت في اللاتينيّة PORPHYREON.

٦ ـ عكّة: سمّاها اليونان بِتُوليماوُس، مدينة في فلسطين على المتوسّط، دخلتها المسيحيّة باكرًا، مركز أسقفي، فتحها العرب ٦٣٨، رمّمها معاوية وحسّنها ابن طولون ١١٠٤، فتحها بغدوين الأوّل ووسّعها ، أخذها صلاح الدين ١١٨٧ بعد معركة حطّين واستعادها الصليبيّون ١١٩١ وجعلوها قاعدتهم ومقرّ فرسان القدّيس يوحنّا، احتلّها الملك الأشرف وخربت ١٢٩١، انتقلت إلى أيدي العثمانيّين ١٥١٧ فعادت إلى ازدهارها وأضحت مركز ولاية، حاصرها عبثًا نبوليون ١٧٩٩، احتلّها ابراهيم باشا المصري ١٨٣٢ ـ ١٨٤٠.

٧ ـ صيْدا: من أقدم وأشهر المدن الفينيقيّة اللبنانيّة، سمّاها يشوع بن نون (١١:٨ و١٩:٨) **صيدون العظيمة**، جاء ذكرها مرارًا في العهدَين القديم والجديد، وقد تعهّدها السيّد المسيح (متّى ١٥: ٢١) وبولس الرسول (أعمال ٢٧ :٣)، جُعلت صيدا كرسيًا أسقفيًا خاضعًا لمطرانيّة صور، من مشاهير أساقفتها ثيودورُس احد آباء المجمع النيقاويّ الأوّل، خلفه الأسقف أمفيون، وحضر بولس أسقف صيدا المجمع القسطنطينيّ الأوّل، وكان رَوّما أسقف صيدا السريانيّ في عداد آباء المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ الرابع، عُقد في صيدا مجمع كنسيّ ٥١٢ بدعوة من الملك أنسطاس الأوّل (٤٩١ ـ ٥١٨) لطرح قضيّة البطريرك فلبيانُس المنحاز إلى عقيدة المجمع الخلقيدونيّ الذي أيّد ٤٥١ التقرير بالطبيعتَين وأدّى ذلك المجمع إلى عزل البطريرك المذكور عن كرسيه وانتخاب الراهب سويرا خلفًا له. لا يزال في صيدا كراس أسقفيّة لعدّة كنائس مسيحيّة إلى اليوم.

وطرابلس[١]، من فينيقية الأولى أو الساحليّة؛ وأساقفة دمشق[٢]، وسوق وادي بردى[٣]، وحرلانة في غوطة[٤] دمشق، ويبرود[٥]، وخناصر[٦]، والدانا[٧]، وحوّارين[٨]،

---

١ ـ ترتقي مسيحيّة طرابلس لبنان إلى القرن الأوّل للميلاد، كان أوّل أساقفتها ماروثا الذي وضع عليه اليد مار بطرس الرسول عند مروره بطرابلس في طريقه إلى أنطاكية ورقّى معه اثني عشر قسّيسًا، عُدّت طرابلس الثانية عشرة بين أسقفيّات صور، حضر أسقفها هلنيق المجمع النيقاويّ الأوّل ٣٢٥، وكان ثيودورُس أسقفها من جملة آباء المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ ٤٥١.

٢ ـ دِمَشْق أو الشّام: عاصمة الجمهوريّة العربيّة السوريّة وقاعدة محافظة دمشق، موقعها في طرف بادية الشام على ملتقى الطرق العسكريّة والسبل التجاريّة القديمة، ورد ذكرها في الكتابات المصريّة القديمة، سكنها الآراميّون فجعلوها عاصمة مملكتهم ٩٤٠ ق.م.، فتحها الأشوريّون ٧٣٢ ق.م. والبابليّون ٦١٢ ق.م. والفرس ٥٣٩ ق.م. واليونان ٣٣٣ ق.م. ثمّ الأنباط ٨٥ ق.م. والرومان ٦٦ ق.م.، ازدهرت بانتشار المسيحيّة فيها باكرًا وأصبحت مقرًّا أسقفيًّا تابعًا لأنطاكية، احتلّها الساسانيّون ٦١٤ ثمّ فتحها العرب ٦٣٥ واتّخذها الخلفاء الأمويّون عاصمة لهم فعرفت عصرها الذهبيّ، تقهقرت مع العبّاسيّين ابتداء من القرن الثامن، حكمها الطولونيّون ٨٧٨ والأخشيديّون والفاطميّون، حصّنها نور الدين في وجه الصليبيّين، خرّبها المغول ١٢٦٠ و١٣٠٠، أحرقها تيمورلنك ١٤٠٠، احتلّها السلطان سليم الأوّل ١٥١٦ وعادت إلى عزّها في حكم أسعد باشا العظم ١٧٤٩، احتلّها المصريّون ١٨٣٢ ـ ١٨٤٠.

٣ ـ سوق وادي بَرَدى: قرية في قضاء الزبداني محافظة دمشق السوريّة، ينبع بالقرب منها نهر بردى، هي أبيلا القديمة، مركز أسقفي قديم، فتحها العرب ٦٣٤.

٤ ـ غوطَة دمشق: هي البساتين المحدقة بدمشق، ترتوي من نهر بردى، سكنها الغساسنة قديمًا وهم من العرب المتنصّرة حيث كانت لهم كنيستهم وأسقفيّتهم.

٥ ـ يَبْرُود: وردت في المراجع اللاتينيّة CORADA، عرّبها رستم إلى جيرود التي لم نجد لها ذكرًا في المراجع، ويبرود مصيف سوريّ في قضاء النبك محافظة دمشق من قرى جبل القلمون الذي ازدهر في العهد الرومانيّ والبيزنطيّ، وممّا يؤكّد على أنّ يبرود كان مركزًا أسقفيًّا وجود آثار لكنيسة قديمة كبرى كشفت التنقيبات عنها كما عن آثار تعود إلى أزمنة قديمة متسلسلة في التاريخ.

٦ ـ خُنَاصِر: هي في المراجع اللاتينيّة CHONACARA، عرّبها رستم إلى كناكر، قرية في سورية في محافظة حلب، وممّا يؤكّد على صحّة كونها مركزًا أسقفيًّا اكتشاف آثار لكنيسة كبيرة فيها تعود إلى القرن الخامس.

٧ ـ الدَّانا: هي الواردة في المراجع اللاتينيّة DANABA، عرّبها رستم إلى "مهين"، قرية في شمال سورية، فيها أنقاض كنيسة قديمة وقبور يظهر فيها تأثير الفنّ السوريّ في القرن الرابع.

٨ ـ حَوّارين: هي الواردة في المراجع اللاتينيّة EVARIA، مكان في سورية بين دمشق وتدمر وحمص، سكنه المسيحيّون الآراميّون، فيه مات ودُفن يزيد بن معاوية ٦٨٠، فيها بقايا أثريّة كنسيّة وسواها.

وحمص[1]، وبعلبك[2]،

---

١ ـ حِمْصٌ أو حُمُص: مدينة سوريّة قديمة جدًا، قاعدة محافظة حمص التي تضمّ أقضية تل كلخ وتدمر والرستن والقصير، دعاها الرومان إيميزا، مسقط رأس دومنا زوجة الأمبراطور سبتيمُس سَويرُس ووالدة الأباطرة كركلاّ وإيلاغابال واسكندر سَويرُس، بالقرب منها هزم الأمبراطور أورليانس جيوش الملكة زنوبيا ٢٧٢، دخلتها المسيحيّة باكرًا وأضحت مركزًا أسقفيًا، فتحها العرب ٦٣٦ فأصبحت قاعدة أحد الأجناد، توالت على حكمها سلالات مختلفة مها: الحمدانيّون والفاطميّون والمغول ثمّ الأتراك، من آثارها قلعة شهيرة وقبر خالد بن الوليد وبقايا كنسيّة وسواها من الأبنية القديمة.

٢ ـ بَعْلَبَكّ: مدينة لبنانيّة كبرى مدن البقاع شهيرة بآثارها وخاصّة قلعتها المنقطعة النظير بمعابدها وأعمدتها وضخامة حجارتها، سمّاها الرومان هيليوبوليس HELIOPOLIS أي مدينة الشمس، ذكر مؤرّخو السريان ثيودوط أسقف بعلبك في القرن الثاني للميلاد، ولكنّ المؤرّخين الكلاسيكيّين ذكروا أنّ الأمبراطور قسطنطين قد أصدر قانونًا أو أمرًا أمبراطوريًا أنذر أهالي هيليوبوليس بالإقلاع عن العادات الخلاعيّة الفاسقة في عباداتهم الوثنيّة ونصحهم بقبول المذهب الأفضل أي المسيحيّة وفي الوقت عينه شيّد في بعلبك كنيسة مستطيلة ضخمة وكرّس لها أسقفًا مع قسسه وشمامسته ويفهم من كلام المؤرّخ يوسيبيوس أنّ المسيحيّين في المدينة كانوا يومها بضعة أنفار فقط أمّا ما يجب أن يفهم من تأسيس كنيسة، وأنّه، على الأرجح، قد حوّل الهيكل الكبير إلى كنيسة مستطيلة، شهدت اضطهادًا وحشيًا للمسيحيّة في عهد يوليانُس الجاحد، قام ثيودوسيُس الكبير الذي ارتقى العرش ٣٧٩م. بهدم هيكل بالانيوس في هيليوبوليس وهو التريليثون العظيم الشهير وحوّله إلى كنيسة مسيحيّة وليس إسم الإله بالانيوس سوى إسم ثان أو BALANIOS آخر لـ"إله الشمس" BAAL HELIOU "بعل هيلو"، وحوالي منتصف القرن الخامس ذكر إسم أسقفين لبعلبك أحدهما يوسف JOSEPH نصبه المجمع الأنطاكيّ حوالي العام ٤٤٣ والآخر بطرس PETER نصّب في عهد الإمبراطور ليو، وجاء اسم يوسف أسقف بعلبك بين الأساقفة الذين شاركوا في المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ الرابع، وجاء أنّ مار ربولا مطران الرها (٤١٣ ـ ٤٣٥) قد تعهّد بيعة بعلبك فعندما كان راهبًا في صومعة إبراهيم الحبيس بجوار قنسرين مسقط رأسه إرتحل مع راهب إلى بعلبك في أواخر القرن الرابع وأرشدا أهاليها، وجاء في أخبار الآباء أنّ مكسيم الأوّل بطريرك أنطاكية (٤٤٩ ـ ٤٥٥ + ٤٦٠) كتب إلى نونا السريانيّ مطران الرها (٤٥٧ ـ ٤٧١) في الشخوص إلى بعلبك ليرشد أهلها ويوطّدهم في الدين المسيحيّ، فامتثل نونا لأوامر البطريرك وأقبل إلى بعلبك ومعه سبعة أساقفة سريان وهدى نساء كثيرات إلى محجّة الإيمان المقدّس وانضمّ على يده إلى المسيحيّة ثلاثون ألفًا من العرب ثمّ قدم نونا إلى أنطاكية حيث فوّض إليه البطريرك أن يخطب في الكنيسة وفيما كان على المنبر دخلت بيلاجيا المشهورة بخلاعتها وأصغت إلى أقواله وطلبت المعموديّة فاستأذن المطران نونا رئيسه البطريرك الأنطاكيّ وعمّدها ثمّ وزّع ثروتها الوافرة على المساكين ونصح لها فانطلقت إلى أورشليم حيث قضت حياتها في أحد الأديار وتوفّيت برائحة القداسة، عُدّت بعلبك في القيود المسيحيّة القديمة بين أسقفيّات مطرانيّة دمشق الشام، قبل نهاية صيف ٦٣٥م. سقطت بعلبك بيد العرب المسلمين على يد أبو عبيدة بن الجرّاح الذي أعطى عهد أمان لأهلها، وبعد تحويل كنيسة بعلبك الكبرى إلى مسجد أصبح هذا الجامع مدرسة دينيّة كبرى تخرّج منها صلاح الدين الأيّوبي، وكان آخر من جدّده السلطان الملوكي محمّد بن قلاوون، وفي القرن الرابع عشر دمّر المسجد زلزال كبير ضرب لبنان آنذاك، وتوفّي فيه الشيخ محمّد علي الحريري وطلاّبه وأصبح المسجد مهملاً مهجورًا وأطلق عليه اسم الجامع الخربان، يتعايش في بعلبك اليوم المسيحيّون والمسلمون بتآخ وهي تضمّ أسقفيّات لعدّة كنائس.

واللاذقيّة[1]، وتدمر*؛ وأسقف يمثّل العرب من فينيقية الثانية أو اللبنانيّة. وحضر المجمع إضافة إلى جميع هؤلاء أساقفة أوروبّة، وآسية، وتراقية[2]، واليونان، وإيليرية[3]، وأفريقية. إضافة إلى ممثّلين للأمبراطور والدولة الرومانيّة على أرفع المستويات[4].

---

١ - اللاذقيّة: هي LAODICIA في المراجع اللاتينيّة، عرّبها رستم إلى لطينة، وهي في الواقع مدينة اللاذقيّة السوريّة قاعدة المحافظة التي تحمل اسمها، عُرفت المدينة في العصور القديمة باسم RAMITA ثمّ "لوكاه اكته" ثمّ "مزابدان"، أضحت جزءًا من منطقة أوغاريت - رأس شمرا في الألف الثاني ق.م.، احتلّها البابليّون ٦٠٤ ق.م. ثمّ اليونان ٣٣٣ ق.م.، ازدهرت في العهد السلوقي فأصبحت مدينة هامّة أطلق عليها سلوقُس الأوّل اسم LAODICIA البحريّة تكريمًا لأمّه، منحها أنطونيُس حريّات واسعة، خرّبها نيجر، احتلّتها زنّوبية في القرن الثالث، خرّبتها الزلازل ٤٩٤ - ٥٥٥، أعاد بناءها يوستينيانُس، فتحها العرب المسلمون حوالى ٦٣٨، إستولى عليها السلاجقة ثمّ الصليبيّون ١٠٩٧، استولى عليها صلاح الدين الأيوبي ١١٨٨ وهدمها فاستعادها الصليبيّون ثمّ أخذها قلاون ١٢٨٧، سقطت بأيدي العثمانيّين ١٥١٦، تقدّمت بشكل ملحوظ بعد الاستقلال خاصّة بعهد الرئيس حافظ الأسد، مركز محافظة تحمل اسمها يتبعها قضاءا جبلة والقرداحة، فيها آثار رومانيّة أهمّها قوس نصر أقيمت احتفاء بالأمبراطور سفيرُس وفيها مغاور وأقبية ومدافن أثريّة.

٢ - تراقية: إقليم في أوروبّة جنوب طرف شبه جزيرة البلقان، يشمل شمال اليونان وجنوب بلغاريا وتركيا الأوروبية، من أهم مدنه اسطنبول وأدرنة وغاليبولي.

٣ - إيليريّة: منطقة بلقانيّة جبليّة على طول الأدرياتيك، شعبها سلافيّ، شملت إقليم دلماسيا.

٤ - راجع: SEHWARTZ, ED. ACTA, II. PP. 56 - 64, 326 - 351.

المقرَّرَات الحَاسِمَة

أهمّ ما أسفر عنه هذا المجمع المسكونيّ الرابع، وهو الشهير بالمجمع الخلقيدونــيّ، تحريم بدعة المشيئة الواحدة (المونوفيزيّة[1]) وقد صدر عنه، بعد حوالى عشرين يومًا من الاجتماعات والنقاشات، تخلّلها ستّ جلسات، تحديد للعقيدة المسيحيّة، صدّق عليه الأمبراطور، جاء فيه:

إنّنا نعلّم جميعًا تعليمًا واحدًا تابعين الآباء القدّيسين. ونعترف بابن واحد هو نفسه ربّنا يسوع المسيح. وهو نفسه كامل بحسب اللاهوت وهو نفسه كامل بحسب الناسوت. إله حقيقيّ وإنسان حقيقيّ. وهو نفسه من نفس واحدة وجسد. مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت. وهو نفسه مساوٍ لنا في جوهر الناسوت. مماثل لنا في كلّ شيء ما عدا الخطيئة. مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت. وهو نفسه في آخر الأيّام. مولود من مريم العذراء والدة الإله بحسب الناسوت. لأجلنا ولأجل خلاصنا. ومعروف هو نفسه مسيحًا وابنًا وربًّا ووحيدًا واحدًا بطبيعتَين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال من غير أن يُنفى فرق الطبائع بسبب الاتّحاد بل إنّ خاصّة كلّ واحدة من الطبيعتَين ما زالت محفوظة، تؤلّفان كلتاهما شخصًا واحدًا لا مقسومًا ولا مجزّأ إلى شخصَين بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الربّ يسوع المسيح كما تنبّأ عنه الأنبياء من البدء وكما علّمنا الربّ يسوع المسيح وكما سلّمنا دستور الآباء[2].

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣، عن: MANSI, VII, COL. 116; HAHN A, BIBLIOTHEK DER SYMBOLE, 146.

٢ ـ راجع المجلد الثاني عشر من هذه الموسوعة.

وإضافة إلى تحريم القول بالمشيئة الواحدة ومنع أتباع أوطيخة عن إقامة الحفلات الدينيّة ونفي أوطيخة الذي توفّي بعد ذلك التاريخ بوقت قصير، حلّ المجمع مسائل تتعلّق بأساقفة كلٍّ من صور وبيروت وآسية، وكنيسة أورشليم، وقبِل تبرّؤ بعض الأساقفة من القول بالمشيئة الواحدة، فعرّف المجمع عن جميع هؤلاء بأنّهم مستقيمو الرأي. وبهذا انتهت أعمال المجمع المسكونيّ الرابع: المجمع الخلقيدونيّ الشهير، بتصديق الأمبراطور على المقرّرات والقوانين. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المونوفيزيّة غير شرعيّة إن كنسيًّا بالنسبة للكنائس التي شاركت في هذا المجمع المسكونيّ فعُرفت بالكنائس الخلقيدونيّة، أو على صعيد قوانين الدولة.

الفَصلُ الخَامِس

نُشوءُ الرُّهبانيّات

واستِمرارُ الانقِسامَات

نُشوءُ الرُّهبانيّات

نُشوءُ الرُّهبانيّات

حينما كانت الخلافات تعصف بالكنيسة وتُحدث تلك الانشقاقات التي أثّرت في المسيحيّة سلبًا، وكان بعض كبار رجال الدين وقادة الإكليروس المسبّبين الأساسيّين لها، بينما كان الأباطرة في أكثر الأحيان يحاولون فرض وحدة الكنيسة من خلال التدخّل المباشر، كانت المسيحيّة تتلمّس دربًا أصيلاً لتحقّق ذاتها ولتؤدّي رسالتها السماويّة في الحقل البشريّ الذي كثر حصاده وكان فعَلته الحقيقيّون... قليلين.

من بين أولئك الفعلة مَن اعتبروا المسيحيّة سيرًا على خطى المسيح. أولئك هم النسّاك والزهّاد الذين اشتهر بعضهم بأفعال شهدت من الزهد ما يصعب على إنسان اليوم تصوّره أو تصديقه. وقد بلغ شأن هذه الظاهرة التي عمّت الشرق أن دعت إلى وضع تنظيم لروّاد الزهد والتنسّك والعزوبة والفقر فكان بدء الترهّب في المسيحيّة.

فلمّا كان الاضطهاد في بداية الانتشار المسيحيّ قد أرهب المؤمنين إيمانًا حقيقيًّا بالمسيحيّة، وجعلهم أمام ثلاث خيارات: إمّا الموت، أو نكران المسيحيّة، أو الهرب إذا أمكن، فقد اختار بعض "الرّهبانين" الفرار إلى البراري والقفار مفضّلينه على الخيارَين الآخرَين حياة البؤس والزهد بإيمان يحافظون عليه.

هؤلاء "الرّهبانون" هم الذين سيكونون أساس ما سيُعرف لاحقًا بـ "الرهبنة" وبـ "الرهبانيّة"، هؤلاء هم الذين سيُعرفون بالرهبان. فإنّ جذر "رهب" الساميّ المشترك يفيد الخوف والقلق والرعب والهرب والرهبة. وفي العربيّة "رهب": خاف. و"أرهب":

خوّف. و"ترهّب": صار راهبًا. و"الراهب" هنا، كلمة دخلت إلى العربيّة جديدة نسبيًّا، أي أنّها دخلت إليها بعد أن أصبح هناك رهبانيّات ورهبان. والرَّهبان في العربيّة معناها: الخائف. وقد أُضيف إلى أحد معانيها في ما بعد: مَن اعتزل من الناس إلى دير طلبًا للعبادة. والرَّهبان أيضًا معناها: المبالغ في الخوف، مثلما نقول الخشيان، مَن خشيَ، والفزعان، مَن فزع.

أخطأ، برأينا، مَن اعتبر أنّ الرَّهبنة في أساسها "كانت طريقة محبَّبة في الحياة... وكان لمبادئها الأساسيّة، وهي العزوبيّة والفقر والطاعة، جاذبيّة كبرى"[1] ، ذلك أنّ أساس الرَّهبنة عذاب وفقر ورهبة مضاف إليها: التقوى.

يجمع المؤرّخون على اعتبار أنّ القدّيس أنطونيوس الكبير* (٢٥٠ ـ ٣٥٦) هو أبو الرهبان. لكنّ هذا القدّيس، كما هو معروف، تلميذ لناسك حبيس اسمه باولا، عنه أخذ الزهد، ومنه استوحى التنسّك الذي كان أصلاً للترهّب.

وُلد أنطونيوس في مصر. وبعد أن تتلمذ على يدي أوّل الحبساء: باولا، تنسّك في صعيد مصر قبل أن يجذب الكثيرين من أولئك الزهّاد الهاربين إلى القفر والبراري، متمسّكين بمسيحيّة أصيلة معتبرين أنّ يسوع المسيح قد عاش هاربًا فقيرًا تائهًا موصيًا بأن لا يكون للواحد من تلاميذه ثوبان. وذاع صيت أنطونيوس الكبير في مصر والشرق الذي قصده نسّاك وزهّاد من كافّة أنحائه. وكان من بين هؤلاء باخوميوس الذي أسَّس ما عُرف بالحياة النسكيّة المشتركة من خلال تأسيس عدّة أديار في مصر العليا، ووضع القوانين لها، وهي التي صارت تُعرف في ما بعد بالقوانين الرهبانيّة، كان ذلك قبل سنة ٦٤٠.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص ٤٠٤.

ومن بين الذين قصدوا أنطونيوس ليتتلمذوا على يديه، الناسك هيلاريون المولود في فلسطين، وتحديدًا في غزّة، فعاد إلى مسقط رأسه حيث اعتكف في بريّة غزّة حاذيًا حذو أنطونيوس، فالتفّ حوله هو الآخر عبّاد من سائر الأنحاء الشرقيّة. هذان القدّيسان كانا منوالاً نسج عليه آخرون. وهكذا أخذت تنتشر مراكز التنسّك الجماعيّ بعد أن كان النسك إفراديًا في براري لبنان وسورية وفلسطين ومصر. فقد اكتُشفت في هذه الأماكن كهوف ومغاور ثبت أنّها كانت مراكز نسك، أهمّها تلك التي في وادي الفرزل المطلّ على البقاع الغربيّ في لبنان، إضافة إلى مغارة الراهب الشهيرة عند نبع العاصي قرب الهرمل في أعالي شرق البقاع[1].

وإذا كان أصل الرهبنة لغويًا، ساميًا مشتركًا، فإنّ أصل كلمة دير، يونانيّ: MANDRA. وكانت الكلمة تعني في الأساس: الحظيرة. وكانت تُطلق تحديدًا على حظيرة الغنم. ثمّ أطلق الرهبان الأوّلون هذا الإسم على مكان اجتماعهم. كما استعملوا أحيانًا لفظ CHOINOBION الذي معناه المنتدى والمجمع. ويبدو لنا أنّ وادي قنّوبين قد اتّخذ اسمه من هذا الأصل، بالنظر إلى ما كان يحفل به هذا الوادي من نشاط نسكيّ ورهبانيّ في القرون المسيحيّة الأولى.

وعندما تعدّدت الأديار كان لا بدّ من وضع القوانين لها، وإضافة إلى ما وضعه في هذا المجال كلّ من أنطونيوس الكبير وباخوميوس، جاءت قوانين القدّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠ ـ ٣٧٩) أحد آباء الكنيسة ومعلّميها، لتضع أسس الحياة الرهبانيّة المشتركة في الشرق. هذه القوانين ما زال يجري عليها إلى يومنا الرهبان الباسيليّون ـ من الملكيّين الكاثوليك ـ بينما يجري الرهبان الموارنة على قوانين أنطونيوس الكبير.

---

١ ـ راجع: لامانس، تسريح الأبصار، ج١، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

وُلد باسيليوس في قيصريّة قبدوقية حوالى ٣٢٩. إنتقل إلى أثينة حيث حصّل العلوم وعاد إلى مسقط رأسه حيث راح يعلّم الفصاحة والبيان. وإذ أخذ الناس يُبدون نحوه الإجلال والتقدير، خشيت روحه الكبرياء، فهجر إلى البريّة، بعد أن وزّع ماله وأملاكه على الفقراء، وانصرف للتعبّد في حياة نسكيّة. وعملاً بنصيحة رئيسه الروحيّ الأسقف أفستاثيوس، راح يتفقّد شؤون الرهبان والنسّاك في سورية وبلاد ما بين النهرَين ومصر. وعندما رجع إلى موطنه في ٣٥٩ أنشأ ديرًا للرهبان اجتمع فيه عدد منهم، فكانوا يعيشون في تقشّف على خطى باسيليوس الذي "كان يلبس قميصًا خشنًا في النهار، ويتمنطق فوقه بالجلد، ويلبس المسح ليلاً فقط لئلاّ يلحظه أحد في النهار فيسمو في عينه. وكان لا يأكل إلاّ مرّة واحدة في اليوم ويكتفي بالخبز والماء، حارمًا نفسه حتّى من الخضار التي كان يميّز نفسه بها في الأعياد. وكان يمضي أيّامه مصلّيًا متأمّلاً قائمًا بالأعمال اليدويّة، ولياليه ساهرًا مروّضًا نفسه على الصبر والاحتمال، وكان ينام الساعات القليلة مفترشًا الأرض محتملاً الصقيع قاهرًا جسده إماتة"[1].

وبعد أن أسّس باسيليوس الكبير عدّة أديار ضمّت مئات الرهبان، وضع قوانينه التي عمّت الشرق وانتقلت إلى الغرب[2]. ومن تلك القوانين النذر المثلّث: الطاعة والفقر والعفّة. وتميّزت قوانين باسيليوس بفرض العمل اليدويّ المشترك على الرهبان، إضافة إلى مطالعة الكتاب المقدّس والتأمّل في محتوياته. وهذا ما ميّز قوانينه عن تلك التي وضعها أنطونيوس وباخوميوس[3].

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ١: ٢٩٠.

٢ ـ كان أوّل من أنشأ الحياة الرهبانيّة في الغرب القديس مَرتينُس MARTIN (٣١٦ ـ ٣٩٧) أسقف تور في فرنسا، فكان راهبًا نشر الحياة النسكيّة في فرنسا وأسّس فيها الأديار الأولى؛ والقدّيس باتريك الذي أسّس الرهبانيّة في إيرلندا خلال القرن الخامس.

٣ ـ باخوميُس (نحو ٣٤٦): من مؤسّسي الحياة النسكيّة المشتركة في الشرق، أسّس عدّة أديار في مصر العليا ووضع لها القوانين الرهبانيّة الأولى.

كان لباسيليوس شقيقة تُدعى ماكرينة، أنشأت، مع رفيقة لها اسمها إميلية، ديرًا على نهر الإيريس قبالة الدير الأوّل الذي أنشأه أخوها، انضمّت إليه راهبات متعبّدات، ما من شأنه أن يفيد عن قدم الترهّب النسائيّ في الشرق.

ومن مشاهير المؤسّسين الأوائل للرهبانيّات في الشرق، القدّيس مارون، شفيع الطائفة المارونيّة، الذي سنتناول تفاصيل حياته وأعماله في الجزء المخصّص للكنيسة المارونيّة من هذه الموسوعة[١]. أمّا أقدم دير للرهبان أتباع مار مارون، فقد بُني سنة ٤٥٢ على اسم "مارون أشهر نسّاك سورية الشماليّة" على أثر المجمع الخلقيدونيّ بأمر صريح من الأمبراطور مارسيان، كما ذكر المؤرّخ العربيّ أبو الفداء، وبطلب من النافذين في مجمع خلقيدونية، أي الأسقف ثيودوريه والبابا لاون[٢]. ووصف بعض الباحثين "دير بيت مارون بأنّه كان القلعة الوطيدة للعقيدة المسيحيّة حسب التحديد الخلقيدونيّ"[٣].

ومن الأديار التي أُسّست في بدء العصر الرهبانيّ، أي في بداية القرن الخامس، ذلك الذي أسّسه في بيت لحم القدّيس إيرونيموس بمؤازرة أخيه بولينيانوس والكاهن منصور، للرهبان. وقد رافق إيرونيموس وصحبه تقيّتان هما بولا PAULA وأستوكيوم EUSTOCHIUM، فشيّدتا في جوار المذود ببيت لحم، وبقرب الدير الأوّل، ديرًا آخر للنساء. وبينما ترأس إيرونيموس دير الرهبان، أشرفت بولا على دير الراهبات[٤].

---

١ ـ راجع الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ نعمان الأباتي د. بولس في أطروحته: ثيودوريتس القورشي ودير مار مارون.

٣ ـ المرجع السابق مستشهدًا بقول للمستشرق البحّاثة VOOBUS.

٤ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٢٩٤ بالاستناد إلى: HELM R., *HIERONYMUS ZUSATE IN EUSIBIUS CHRONIK.*

والقدّيس إيرونيموس هو JÉRÔME HIERONYMUS (٣٤٧؟ ـ ٤١٧ أو ٤٢٠) من آباء الكنيسة، وُلد في دلماتية من أبوَين شرقيَّين مسيحيَّين تقيَّين، وفي الثانية عشرة من عمره أرسله والداه إلى رومة حيث درس الفصاحة والبيان. وبعد أن استسلم لأهوائه، ارتدّ إلى المسيحيّة الصالحة فقبِل سرّ المعموديّة على يد البابا ليباريوس (٣٥٢ ـ ٣٦٦) سنة ٣٦٥. وإذ سعى لاجتذاب شقيقته الصغيرة إلى حياة التبتّل والتنسك، غضبت عليه عمّته وطردته، فسافر إلى الشرق ونزل ضيفًا على الكاهن أفاغريوس في أنطاكية. وهناك درس اليونانيّة والعبريّة، وتعمّق في اللاهوت. ثمّ سار في دعوة التبتّل والتنسّك فاعتكف ببريّة خلقيس (قنسرين)، ثمّ عاد إلى أنطاكية سنة ٣٧٧، وكان في الثلاثين من عمره حين تقبّل سرّ الكهنوت، وترقّى في درجاته إلى أن أصبح سنة ٣٨١ مقرّرًا للمجمع المسكونيّ الثاني، ثمّ أصبح كاتبًا لبابا رومة الذي أوكل إليه وضع ترجمة موحَّدة للكتب المقدّسة. كان اسم ذلك البابا داماسس الأوّل (٣٦٦ ـ ٣٨٤) الذي بعد وفاته رشّح بعض الأساقفة إيرونيموس للسدّة البابويّة، غير أنّ الفريق المعارض له رشقه بالاتّهامات الجائرة، ما جعله يقوم إلى أنطاكية، ومنها إلى عكّة فيافا فأورشليم فبيت لحم، ومعه مَن ذكرنا من رفاق، حيث شيّدوا الديرَين[1].

لم يكن إيرونيموس وبولا الوحيدَين اللذَين أسّسا الأديار في هذه المنطقة، فإنّ عددًا من الحجّاج الغربيّين قد أسّس أيضًا الأديرة في أورشليم وبيت لحم وغيرها من الأماكن المقدّسة في القرن الرابع، وأقام فيها معتكفًا على الصلاة والصوم والزهد. فبالإضافة إلى ديرَي إيرونيموس وبولا في بيت لحم، هناك دير ميلاني للراهبات في أورشليم، ودير روفينوس للرهبان على جبل الزيتون. هذه الأديار يعود عهدها بحسب

---

١ ـ لحياة هذا القدّيس راجع: CAVALLERA F., *SAINT JÉRÔME, SA VIE ET SON ŒUVRE* (LOUVAIN,1922); MONCEAUX P., *SAINT JÉRÔME, LA JEUNESSE, L'ETUDIANT, L'ERMITE,* (PARIS, 1932).

الباحثين إلى القرن الرابع. وفي المدوّنات ذكر لمالكوش الحبيس الذي اعتكف في النصف الأوّل من القرن الرابع في قنسرين، إضافة إلى أكثر من ثلاثين ناسكًا في براري سورية الشماليّة وسورية الوسطى، وقد وُصفوا بأنّهم فاقوا نسّاك مصر في ممارسة الفلسفة. واشتهر من بين هؤلاء إبراهيم القيدونيّ، الذي زهد بعد سبعة أيّام من عرسه، واشتهر بالورع والتقوى، ولمّا توفّي سنة ٣٦٦، احتشد المؤمنون لتشييع جنازته وتسابقوا لاقتطاع شيء من ثيابه تبرّكًا، ذلك أنّ بعض المؤمنين كان قد تطرّف في موقفه من لذّات الجسد، ولا سيّما في أمر الزواج، فافترق الزوجان ليلة العرس، أو حافظا على العفّة أبدًا، أو ترك أحدهما الآخر رغم فائق المحبّة وشدّة التعلّق، وعاد البعض إلى تمجيد التأبّد والتبتّل والدفاع عنهما دفاعًا عقليًّا منطقيًّا، ولا يخلو بعض مصنّفات الآباء القدّيسين من التأسّف الشديد على وجوب المحافظة على الجنس بالطريقة الجسديّة المعروفة واصفين ما يتّبعها من عواقب بالنجاسة والقذارة[1].

في القرنَين الخامس والسادس تكاثر عدد الرهبان حتّى أصبحوا يُعدّون بعشرات الألوف. وكما انقسمت الكنيسة على صعيد الأسقفيّات كذلك انقسمت رهبانيًّا. إلاّ أنّ نظم الفئتَين الرهبانيّتَين بقيت تلك التي وضعها باسيليوس الكبير الذي بقي زعيمًا معنويًّا للمعسكرَين اللذَين اتّخذا منه مُثلهما العليا. وهكذا فقد عمرت تلال أنطاكية وأفامية وآمد والرها بالأديرة. وانتشرت الصوامع في بعض أنحاء البادية[2]. كما قامت في طريقة

---

١ - راجع: رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٢٨٩ و ٢٩٧؛ PATROLOGIA LATINA, VOL. 23, COL., 29 - 54 ; SOZOMÈNE, *HIST. ECCL.*, VI, PP. 23 - 24; BAM C., *CHRYSOSTOMUS UND SEINE ZEIT*, I, P. 85F; MARTIN P., *ZEIT FUR. KATOLISCHE THEOLOGIE*, (1880) PP. 426 - 437; SOCRATES, *HIST. ECCL.*, VI, 23; SAINT JÉRÔME, *EPIS.* LXVI, 3; PALLADIUS, *HIST. LAUS.*, LXI, 2; SAINT AUGUSTIN, *SOLILOQ.*, 1, 9, 17, CONF., X, 30, 2, DE CIVITATE DEI. XIV, 16; CHRYSOSTOMUS, *SAINT JEAN, DE VIRGIN.*, XIV

٢ - للاطّلاع على مبير الرهبان والنسّاك في تلك الحقبة راجع: DOWEN ET LAND, *IOHANNIS EPISCOPI., EPHESINI* (AMSTERDAM, 1889).

مستحدثة، قلاّيات[1] إلى جانب الأديرة أوى كلّ منها ناسكًا واحدًا اشتهر بورعه وزهده وقداسته، وكانت له الحريّة لقهر الجسد كيفما شاء، تلك القلاّيات هي التي عُرفت عند الكنيسة المارونيّة بالمحبسات ومفردها محبسة. ومن أغرب ما توصّل إليه البحث عن قهر الذات والتنسّك والاعتكاف في هذا المجال، رؤوس الأعمدة، فلقد اختار بعض النسّاك لهم رؤوس الأعمدة، وقضوا عليها السنين الطوال زاهدين متقشّفين متوحّدين. وأشهر هؤلاء القدّيس سمعان العموديّ الأكبر (نحو ٣٨٩ ـ ٤٥٩) و سمعان العموديّ الأصغر (نحو ٥١٧ ـ ٥٩٢).

وُلد سمعان الأكبر في قرية سيسان الواقعة بين سورية وقيليقية. وبعد أن عمل راعيًا في بدء صباه، قصد أحد الأديار وهو حديث السنّ فقضى فيه سنتَين. ثمّ انتقل إلى آخر أكثر فقرًا. ولكثرة ما بالغ سمعان في أساليب قهر الذات والإماتة، إذ من جملة ما كان يفعله في هذا المجال أنّه كان يشدّ على وسطه حبلاً أدماه وقرح جلده، طلب إليه رئيسه أن يترك الدير ويذهب حيث يشاء ويمارس ما شاء من أساليب قهر الذات.

لم نطالع في سيَر النسّاك والزهّاد ما هو أشدّ قهرًا للذات وتعذيبًا لها ممّا مارسه سمعان العموديّ الكبير في حياته. فبعد أن ترك الدير مطيعًا رئيسه تصومع على سفح قريب من أنطاكية. ومن جملة ما أقدم عليه في هذا المجال أنّه صام أربعين يومًا صيامًا مطلقًا مرارًا عديدة. وفي خطوة فريدة من نوعها بنى لنفسه صومعة بلا سقف على ذلك السفح المقفر، وقيّد نفسه بالحديد إلى إحدى زواياها وأقام فيها متحمّلاً لسع الصقيع ولهب الشمس، ولم ينقطع سمعان عن ذلك القيد إلاّ بعد أن مرّ به أحد متفقّدي

---

١ ـ قلاّية: جمعها قلاّيات، كلمة معرّبة عن اليونانيّة تعني أصلاً مسكن الأسقف.

النسّاك من رجال الدين وأرشده بقوله: "مَن لم يكن إيمانه قيدًا له لا ينفعه قيد". عندها فقط نزع سمعان القيد من رجلَيه. بيد أنّ إقبال الناس عليه تبرّكًا أخافه خشية خروجه عن النسك، فانتقل من صومعته إلى مكان بعيد وبنى لنفسه عمودًا في العراء ليتّقي من خلال الصعود إليه شرّ الوحوش المفترسة. ولكنّ الناس أدركوه بعد البحث. أمام هذا الواقع لم يرَ سمعان بدًّا من الانصياع لمشيئة الله، فجعل من عموده منبرًا للتبشير. ومن هنا اتّخذ سمعان لقب العموديّ بعد أن ذاع صيته في الشرق، فأخذ الناس يتوافدون عليه أفرادًا وجموعًا من الطبقات كافّة طالبين التبرّك والشفاء. حتّى أنّ بطريرك أنطاكية قد أتاه يومًا حاملاً القربان الأقدس ليناوله بيده. هذا بعض ممّا ذكره السنكسار[1] عن سمعان العموديّ الأكبر.

وفق هذه الظروف المعيشيّة كان من الطبيعيّ أن يُصاب سمعان بأمراض عديدة. إلاّ أنّ هذا لم يفقده إرادة النسك وقهر الذات. وفي يوم من أيّام سنة ٤٦٩ جاء الناس كعادتهم وتحلّقوا حول عموده وراحوا يصلّون. وكان سمعان راكعًا يصلّي كعادته، ولكنّه لم يطلّ عليهم عند عصر ذلك اليوم مرشدًا معزّيًا شافيًا مثلما عوّدهم، بل بقي ساجدًا مصلّيًا. وانقضى ليل وجاء عصر آخر وبقي سمعان على حاله. فصعد إذ ذاك إليه بعضهم فوجدوه جثّة هامدة[2]. ونُقل ما تبقّى من سمعان إلى كنيسة كاسياني. ومنها في ما بعد إلى كنيسة الاتّحاد للتوبة. وبقي عموده مزارًا، وشُيّدت حوله كنيسة ملوكيّة يحيط بها دير كبير، وكلاهما من روائع الهندسة المسيحيّة السوريّة. وما يزال بعض هذا الموقع قائمًا حتّى اليوم، وهو يُعرف بـ "قلعة سمعان".

---

١ ـ السِّنْكِسَار والسِّنْكْسَار: كلمة من أصل يونانيّ تعني مجموع تراجم الصالحين يُقرأ على الشعب في البيَع المسيحيّة.

٢ ـ راجع: DE LAHAYE H., *LES SAINTS STYLITES*, XXXI - XXXII; THÉODORET, *HIST. ECCL.*, 36

يُجمع المؤرّخون على أنّ أعمال سمعان العموديّ الأكبر قد بهرت البادية بأسرها، ما دفع قبائلها العربيّة إلى اعتناق المسيحيّة. وجاء في المدوّنات التاريخيّة أنّ أهل الحيرة بجميع عشائرهم كانوا يقصدون هذا القدّيس ليستمعوا إلى وعظه وإرشاده. وعندما منعهم النعمان[١]، ملك الحيرة، من ذلك خشية اعتناقهم المسيحيّة، رأى هذا الملك العربيّ في منامه رجلاً جليلاً يدخل عليه ممسكًا بسيفه آمرًا بجلده، فأطبق على الملك خمسة رجال وراحوا يجلدونه. ثمّ سمع الرجل يقول: "حذار! حذار! لمَ منعت قومك عن زيارة سمعان؟ أوَلا تدري أنّي أقطّعك إربًا!". فكان أوّل ما فعله النعمان أنّه سمح لقومه باعتناق المسيحيّة[٢].

لم تقتصر آثار سمعان على كلّ ما ذُكر، بل ترك اسمه لينتسب إليه الجبل الذي تنسّك فيه قرب حلب، فأصبح يُعرف بجبل سمعان. إضافة إلى الإسم الذي تركه على المجمّع الذي أُقيم حول عمود عاش عليه ٣٧ سنة: قلعة سمعان. ومن أهمّ آثاره، إضافة إلى اعتناق عرب البادية المسيحيّة، نهج التنسّك على عمود، الذي أصبح متّبعًا بشكل لافت. حتّى أنّ بعض المدوّنات يذكر عدّةَ نسّاك عموديّين اسمهم سمعان، منهم القدّيس سمعان العموديّ المعروف بالبحريّ، الذي تنسّك هو الآخر على عمود بالقرب من أنطاكية، ثمّ في جبل قريب من مصبّ العاصي. ومن العموديّين مَن حملوا غير هذا الإسم[٣].

---

١ - النُعمان: إسم حمله عدّة ملوك عرب في الجاهليّة، وحمله ملوك لخميّون وغساسنة، والمقصود هنا هو أحد ملوك الحيرة اللخميّين بين النجف والكوفة في العراق، كان أهلها من المسيحيّين النساطرة، أقامت هند أم الملك عمرو بعد ٥٥٠ ديرًا في المدينة بعد اتّباع الأسرة المالكة الدين المسيحيّ، فتحها خالد بن الوليد ٦٣٣.

٢ - NAUF F., *LES ARABES CHRÉTIENS DE MÉSOPOTAMIE ET DE SYRIE* (PARIS, 1933) P. 38

٣ - راجع: SYNODICON ORIENTAL "CHABOT", 285; LIETZMANN H., *DAS LEBEN DES HEILIGEN SYMEON STYLITES*; DAWES E., AND BAYNES N.H., *THREE BYZANTINE SAINTS*, (OXFORD, 1948)

ومن أقدم الآثار المسيحيّة على قمم جبال لبنان الشمالي بقايا أعمدة تعود لتلامذة القدّيس سمعان العموديّ الذين قصدوا هذه المنطقة مبشّرين في القرن السادس، وقد ذكر العلاّمة السمعاني[1] أنّه رأى على قمّة جبل حصرون الحجارة المنقوشة عليها صور الصلبان الأربعة التي طلب القدّيس سمعان إقامتها على قمم كلّ من حصرون وبشرّي وإهدن وأيطو من بلدات شمال لبنان.

***

لا يمكن للباحث أن يفصل بين الترهّب والتنسّك في القرون الثلاثة الأولى التي ظهرت فيها الرهبانيّات. فإنّ تأسيس الرهبانيّات الذي بدأ على أنّه جمع للنسّاك المتوحّدين في مؤسّسة نسك جماعيّة، لم يُنهِ النسك التوحّديّ الإفراديّ بشكل ملحوظ، فقد بقي النسك الإفراديّ منتشرًا في نواحي الشرق بشكل يبدو أنّه كان كثيفًا. لذلك تخلط المراجع، أو على الأقلّ تَجمع في مدوّناتها، بين أخبار النسّاك وأخبار الرهبان، إلى حدٍّ يصعب معه فصل إحداها عن الأخرى بشكل دقيق. وغالبًا ما اعتبر المجتمع، آنذاك، كما اعتبرت الدولة، النسّاك والرهبان اسمَين لمسمّى واحد.

أزعج الرهبان والنسّاك الوثنيّين بشكل حاد. فراح الأخيرون يتّهمون أولئك الزهّاد المسيحيّين بأنّهم سخفاء أعداء للمجتمع المدنيّ وللمسرّات الطبيعيّة، وبأنّهم يبذرون الشقاق في مجتمعاتهم ويلحقون الأضرار بهياكل الآلهة. بل اتّهموهم بأنّ فيهم أرواحًا نجسة، فصوّروهم كشياطين يظهرون فجأة ليتغالظوا على الناس ويشاكسوهم وليبتعدوا

---

١ ـ يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ ـ ١٧٦٧): من حصرون في قضاء بشرّي، وُلد في طرابلس وتوفّي في رومة، هو المعروف بالسمعاني الكبير، من علماء الموازنة في الشؤون الشرقيّة ـ راجع الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

عنهم بعد ذلك إلى القفار، ليعودوا من جديد مكرّرين فعلتهم. وكتب ليبانيوس[1] سنة ٣٨٤ إلى الأمبراطور ثيودوسيوس رسالة طالبًا فيها تدخّله الفعّال ضدّ مَن وصفهم "بالمخرّبين للهياكل مالئي الكهوف والمغاور، وليس فيهم من الزهد سوى معاطف سوداء يرتدونها، إلاّ أنّهم يأكلون أكثر من الفيَلة ويشربون وهم يرتّلون ما يضني العبيد من كثرة السكب. يصفّرون وجوههم، ولكنّهم يخفون تحت هذا التلوين بلبلة وتشويشًا". وجاء في الرسالة: "أيّها الأمبراطور، هؤلاء هم الذي يهاجمون الهياكل متجاوزين القانون جالبين الحطب لإشعال النار بها مزوّدين بالحجارة والحديد للهدم والتدمير"[2].

يتّضح من هذه الرسالة أنّ الرهبان والنسّاك إنما كانوا يقصدون المعابد والهياكل الوثنيّة ليحطّموا الأصنام ويحاربوا أعمال العبادة الوثنيّة التي كانت لا تزال جارية في المجتمعات الأرستقراطيّة من غير أهل البلاد. ولم تكن السلطة بحاجة إلى رسالة الفيلسوف الوثنيّ كي تلاحق الرهبان، إذ كان الأمبراطور الرومانيّ فلافيوس VALENS (٣٦٤ ـ ٣٧٨) الذي اعتنق الآريوسيّة، قد أصدر قانونًا يقضي بأن يقوم الرهبان بالخدمة العسكريّة. وقد لاقى هؤلاء من التشدّد والظلم والقساوة كثيرًا على يد جيش الأمبراطوريّة الذي راحت فرقة منه تلاحق الرهبان والنسّاك وتسوقهم وسط الهزء والإذلال والضرب إلى مجمّعات الخدمة، وقد استُشهد عدد كبير من أولئك الزهّاد بسبب تلك الأعمال[3].

---

١ ـ ليبانيوس: (٣١٤ ـ حوالى ٣٩٣): كاتب وخطيب سوريّ باللغة اليونانيّة، وُلد في أنطاكية وفيها أسّس مدرسة للبيان، اشتهر بين طلاّبها القدّيسان يوحنّا فم الذهب وباسيليوس الكبير، أمّا هو فقد كان فيلسوفًا وثنيًا صديقًا للأمبراطور يوليانوس الجاحد (٣٣١ ـ ٣٦٣) وقد دافع معه عن الهلّينيّة.

٢ ـ LIBANIUS, *ORATIO*, II, P. ٣٢.

٣ ـ راجع: THÉODORET, *HIST. ECCL.*, IV, 19; SAINT JÉRÔME, *CHRON.*, 2 - 48.

لم يكن الوثنيّون والسلطات الوحيدين الذين أزعجهم النسّاك والرهبان. فلقد انقسم منظّرو المسيحيّة آنذاك بين مؤيّد للزهد والتنسّك والتبتّل ورافض لها. وقد اعتبر بعض هؤلاء الأخيرين التقشّف والترهّب ضربًا من الجنون، وحارب أصحاب هذه النظرة كلّ أنواع الزهد والتنسّك. وعندما كان المجتمع الوثنيّ يقابل وفود هؤلاء النسّاك والرهبان من البراري والصحاري إلى المدن بالعداء، كانت الأوساط المسيحيّة، في غالبيّتها، تقابلهم وهم بوجوههم الصفر وشعورهم الحليقة وألبستهم الحقيرة، بالسخرية المحقّرة[1].

كذلك أزعج الرهبان والنسّاك أحيانًا الأساقفة والبطاركة. ذلك أنّ التنسّك والترهّب اعتُبر بشكل من الأشكال، بأنّه انتقاد للحياة الإكليريكيّة يومها. ذلك أنّ الرهبان والنسّاك وجدوا أنّه من المستحيل تحقيق حياة مسيحيّة حقيقيّة في الكنيسة التي كانت قائمة بالشكل الذي كانت عليه[2]. فبات تدخّل الرهبان والنسّاك في أمور الكنيسة أمرًا مرفوضًا في بعض الأحيان من قبل بعض الأساقفة والبطاركة الذين اتّهموا أولئك بالسحر والشعوذة. ولكنّ هذا الوضع لم يكن عامًّا، بل كان التعاون واضحًا أحيانًا بين الرهبان والنسّاك والكنيسة في الشرق. فكان بعض الرهبان يعمل في التبشير بقيادة كنيسة أنطاكية[3].

ولكن يبدو لنا أنّ الحياة الرهبانيّة قد خرجت عن مسارها الأساسيّ، لا بل الطبيعيّ، في بعض الأحيان، وهذا شأن كلّ رسالة في التاريخ. فلقد ذكر بعض

---

١ - Chtysostomus, *Contre les Détracteurs de la Vie Monastique*, Trad. Le Grand (Paris, 1933) I: 2, II: 6, III: 89; De Gubernatione Dei, VIII, 4.

٢ - Duschene L., *Histoire Ancienne De L'Eglise*, II: 492

٣ - راجع: Olaf Hendriks, *Activité Apostologique des Premiers Moines Syriens*, *Proche - Orient Chrétien* (1958) P. 25.

المراجع تحريم مجمع محليّ، عُقد في اللاذقيّة، الربا على الكهنة، ومنعهم من ارتياد الفنادق، وأوجب عليهم مغادرة الأعراس قبل بدء الرقص، والابتعاد عن الحمّامات العموميّة فور دخول النساء إليها. كما منع الكهنة من نقل فضلات موائد الحفلات العموميّة، ومنعهم من ممارسة السحر والتنجيم[١]. وكانت قد ظهرت أعمال عنف من قبل بعض الرهبان في الرها عندما هاجموا طائفة غنوسيّة وأضرموا النار في معبدها، كذلك هاجموا كنيسًا يهوديًّا وأحرقوه. وقد أدّى ذلك إلى سَنّ قوانين أمبراطوريّة سنة ٣٩٠ منعت الرهبان من الإقامة في المدن، وأخرى حرّمت عليهم التدخّل في الشؤون المدنيّة وارتياد مراكز السلطة[٢].

وبعد قرن من ذلك التاريخ، تطالعنا المدوّنات بأنّ الرهبان المونوفيزيّين قد استعملوا العنف في المجمع المسكونيّ الثالث السيّء الذكر، الذي عُرف بالمجمع اللصوصيّ، وهو الذي انعقد في أفسس صيف ٤٤٩، حيث لم يحترموا لجوء خصمهم فلابيانُس إلى مذبح الكنيسة، فجرّوه حتّى أوقعوه أرضًا وراحوا يدوسونه، فتوفّي بعد ثلاثة أيّام متأثّرًا بكدماته[٣].

ومن أخبار الرهبان المونوفيزيّين في فلسطين أنّهم اتّبعوا أفدوكية التي قالت بالطبيعة الواحدة، وكانت تنفق عليهم بسخاء. وكان قد أمّ فلسطين عدد كبير من النسّاك والرهبان وقالوا بالطبيعة الواحدة. وفي حوالى ٤٥١ أصبح الرهبان القائلون بالطبيعة الواحدة يشكّلون الأكثريّة في الشرق[٤]، يوم كانت الكنيسة بأحبارها منقسمة مناصفة بين

---

١ - راجع: LABRIOLE P., *MORALE ET SPIRITUALITÉ*, FLICHE ET MARTIN, HISTOIRE DE L'EGLISE, III: 382 - 384.

٢ - راجع: LABRIOLE P., *SAINT AMBRIOSE*, PP. 109 - 125; COD. THEOD., VI: 36, XVI: 3.

٣ - MANSI, VI, COL., 691, 1017, VII, COL. 68.

٤ - راجع: ABEL F. M., *HISTOIRE DE LA PALESTINE*, PP. 334 - 340.

استقامة الـرأي والمونوفيزيّـة. حتّـى أنّ أحد الرهبـان: ثيودوسـيوس، قد تزعّم القول بالطبيعة الواحدة. وقد وصف بعض المؤرّخين الراهب ثيودوسيوس بأنّه "كـان مشـاغبًا من الطراز الأوّل. وأنّه كان يجمع في شخصه صفتَين قلّما اجتمعتا في شـخص واحد: المماللقة والوقاحة. وإنّ صلابة وجهه كانت قد دفعت ديوسقورس[١] في الإسكندريّة إلـى أن يأمر به، فجُلد وأركب الأجرب الأعرّ"[٢].

وفـي المجمـع الخلقيدونـيّ سنة ٤٥١ ظهـر عـدد كبـير مـن الرهبـان الذيـن كـانت تتزعّمهم أفدوكية، فاغتاظوا لمقرّرات المجمع وقبّحوا وأنكروا وتمـادوا فـي اللـوم... وعندما عاد أسقف أورشليم يوبيلانيوس إلى أسقفيّته، حاصره الرهبـان المعـارضون لمقـرّرات المجمـع الخلقيدونـيّ، وخيّروه بيـن الموافقـة علـى موقفهم مـن المجمـع، أو الاستقالة والعزلة، فرفض. فأحاط الرهبان به من كلّ جانب وهدّدوه بـالقتل. وإذ تمكّـن مـن الفـرار، إغتـالوا سـويريانوس أسـقف بيسـان... مـا أدّى إلـى سـيامة أسـاقفة علـى فلسطين يقولـون بالطبيعـة الواحـدة[٣]. وعندمـا أرسـل الأمـبراطور ماركيـانوس قـوّة عسكريّة للاقتصاص من الرهبان، لجأ هؤلاء إلى العنف، فكـانت معركـة وقعـت قـرب نابلس سقط فيها عدد كبير منهم. أمّا الباقون فظلّوا خاضعين لإرادة أفدوكية، ما اضطرّ روما على أن تتدخّل لإنقاذ الوضع، فكتب البابا لاون الكبير إلى أفدوكية يحضّهـا علـى إنقاذ الرهبان من الضلال[٤].

---

١ ـ ديوسقورُس: بطريرك الإسكندريّة (٤٤٤ ـ ٤٥١) حُطّ عن كرسيه وخُذل في مجمع خلقيدونية لاتّباعه مذهب أوطيخة.

٢ ـ EVAGRIUS, *HIST. ECCL.*, II: 5

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ١: ٣٥٤، بالاستناد إلى: BARDY G., *LUTTES CHRISTOLOGIQUES*, IV, PP. 276 - 277; BARDENHEWER O., *GESCH. DER. ALTKIRCHLICHEN LIT*, IV, PP. 315 - 317.

٤ ـ JAFFÉ WATTENBACH, *REGESTA*, 499.

وكما في فلسطين كذلك في وادي الفرات "سار على أفواه النسّاك والرهبان القول بالطبيعة الواحدة. ومنهم راهب اسمه بطرس القصّار، جاء إلى أنطاكية وألّف عصابة تمكّن من خلالها من التوصّل إلى سدّة الأسقفيّة الأنطاكيّة"[1].

إلاّ أنّ هذا العمل أوقع انقسامًا في أنطاكية بعد مشاكسات طويلة السيرة لبطرس هذا الذي انتقل في ما بعد إلى مصر، وأحدث شرخًا مماثلاً في كنيستها دام أكثر من خمس وثلاثين سنة. فدخلت كنائس الشرق في حالة فوضى درجت فيها سيامة أسقفَين على كلّ كرسيّ، أحدهما أرثذوكسيّ والآخر مونوفيزيّ. وقد استمرّت هذه الأحوال بعد موت بطرس.

غير أنّ المدوّنات لم تفد عن خروج للرهبان المستقيمي الرأي عن خطّهم الأساسيّ والطبيعيّ.

على أيّ حال فإنّ الرهبانيّات عشيّة المؤتمر الخلقيدونيّ، كانت منتشرة، ومنقسمة، وكذلك كان النسّاك والزهّاد منتشرين أفرادًا في البراري والقفار. وسوف يتطوّر الوضع الرهباني مع تطوّر أنظمة الكنائس وتشعّباتها وظهور متنوّرين كان لهم الفضل العميم في نشوء العديد من الرهبانيّات في كافّة أقطار العالم، خدم الكثير منها ومن أبنائها وبناتها البشريّة بشكل ملحوظ، فكان منهم مرسَلين ومبشّرين ولاهوتيّين وفلاسفة وأدباء ومربّين وناشطين إجتماعيّين وبررة وشهداء وقدّيسين من الجنسَين، فاقوا بإنجازاتهم الإنسانيّة المسلّحة بالمحبّة وبذل الذات، أهمّ إنجازات القادة العلمانيّين المسلّحين بحبائل السياسة والحديد والنّار.

---

١ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٣٤٩ بالاستناد إلى: THÉODORE LE LECTEUR, *HIST. ECCL.*, I: 20 - 22

NOBILIS

بيروت